

قضايا ونظرات

تقرير ربع سنوي

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

العددالتاسع أبريل ٢٠١٨



قضايا ونظرات

تقرير ربع سنوي يصدر عن مركز الحضارة للدراسات والبحوث

تجديد الوعي بالعالم الإسلامي والتغيير الحضاري

إشراف/ د.نادية محمود مصطفى

مدير التحرير/ أ.مدحت ماهر سكرتير التحرير/ أ.مروة يوسف

العدد التاسع أبريل ٢٠١٨

محتويات العدد

رؤية معرفية:

ملف العدد– القرار الأمريكي بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة إليها ومقاومته:

رؤية معرفية



ما قبل القرار الأمريكي: العرب وإسرائيل والقدس(*)

المستشار/ طارق البشري(**)

في الظروف التاريخية التي نحن فيها لم تعد هناك ثوابت، حتى التكوين القُطري لكل الدول العربية لم يعد قائمًا بهذا الشكل وأصبحت صورته مهزوزة ومضطربة، انظر مثلا إلى العراق وما يحدث فيها، انظروا إلى سوريا وما يحدث فيها، ولبنان وما يمكن أن يحدث فيها، اليمن وما يحدث فيها، مصر وما يحدث فيها، وما يحدث في ليبيا، كل صور التكوين القطري أصبحت مهزوزة مضطربة. ولا ندري علامَ سينتهي ذلك وإلامَ سيصل؟ بمعنى أنه ليست هناك قوة قادرة على أن تتوقع ما سيكون عليه هذا الأمر مستقبلًا، ولكن معرفتنا يجب أن تتعلّق بما يجري ومواطن الخلل والتأثير فيها وما يجب أن نفعله.

فهناك خلل، ويجب أن نعترف، ولكن هناك فرصة أيضًا، فحين يُقال في أمريكا إن هناك ما يسمى بالفوضى الخلاقة، فقد تكون فوضى خلاقة لنا وليست لهم، إذا استطعنا أن نضع معيارًا ومنظورًا معينًا ونجمع عليه الناس للخروج من تلك الفوضى باتجاه مصالحنا. كيف يكون هذا؟ سنتكلم في هذا الموضوع من الناحية التاريخية والسياسية.

إذا كنت قد ذكرت سابقًا العراق وسوريا وليبيا واليمن وفلسطين وما يحدث هناك، فمصر أيضًا نرى ما يحدث فيها ويتم بطريقتها الخاصة، وهي طريقة سلمية ومشروعة أو مشرَّعة، أي يحدث الأمر فيها بقرار رسمي وينفَّذ القرار بطريقة سلمية وهادئة، حتى القتل يحدث فيها بطريقة سلمية ويمكن أن يُسَمَّى بالقتل السلمي! وهذا هو أسلوبها دائمًا في العمل.

أول سؤال نسأله –ونحن نضع صورة الأقطار العربية وهي مهزوزة وممزَّقة أو بها مهازل بهذا الشكل تحدث فيها– هو: ما هو القُطر؟

أولًا– نشأة الأقطار والدول:

كانت كلمة قُطر تعني مجرد إقليم، وهذه الأقطار التي نشأت عندنا وهي مهزوزة الآن في تكوينها نشأت باتفاقية سايكس–بيكو كما نعرف، أو بعبارة أدق: نشأت بسياسة أوروبية اسمها "سياسة الرجل المريض" على الدولة العثمانية، ولكي نرى كيف كانت الصورة بهذا الشكل وقتها، فلنتذكَّر أن الغزوات أو الأطماع الأوروبية في هذه المنطقة قديمة منذ أيام الحروب الصليبية.

وفي تقديري، فإنه مهما قيل عن الدولة العثمانية، فإن الدولة العثمانية استطاعت أن تُوقف تاريخيًّا استمرار هذه الأطماع في الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وهذه وظيفة تاريخية مهمَّة جدًّا لابد أن نقدِّرها للدولة العثمانية. فدائمًا ما كان يأتينا الغزو –ما عدا الغزو التتري– من الغرب من قَبل الدولة العثمانية. فقامت الدولة العثمانية في بداية ١٣٠٠م، وهي الدولة الوحيدة بالمنطقة التي أصرَّت على أن تبني وجودَها على حساب الغرب وليس الشرق، فبدأت تأخذ من شرق الأناضول إلى أن وصلت إلى القسطنطينية ١٤٥٣م، وبعد ذلك وصلت إلى مشارف فيينا. وكانت الدولة العثمانية هي التي استطاعت فعلًا أن تحوِّل الموقف الدفاعي الإسلامي والمشرقي إلى موقف هجومي في هذا الوقت، لكن المهم أن وجودها حفظ هذا الحائط الكبير الذي كنت أسمِّيه «سور

(*) عقد مركز الحضارة حلقة نقاشية حول الأوضاع في الأراضي الفلسطينية بعد قرار ترامب بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، ودور السياسات العربية في تكريس ذلك الوضع، في ١١ ديسمبر ٢٠١٧.

(**) مفكر ومؤرخ مصري، ونائب رئيس مجلس الدولة سابقًا.

الإسلام العظيم»، وهو الدولة العثمانية مع الشام ومصر والحجاز، هذا هو خط «سور الإسلام العظيم» الذي كان دائمًا يَصُدُّ لمدة ثلاثة قرون، فكانت أوروبا وهي تنمو لا تستطيع أن تخترقه.

في القرن التاسع عشر بدأت سياسة الرجل المريض، بمعنى أن الدولة العثمانية ضعفت بعد ٤٠٠ سنة، وبدأت أوروبا تظهر في شكل إنجلترا وفرنسا وروسيا. كانت هذه هي البلاد الكبرى في القرن التاسع عشر وبدأت كل أطماعها تتعلق بالشرق.

فأطماع روسيا بدأت مع وصايا بطرس الأكبر من سنة ١٧٢٥م بأن "انزلوا إلى المياه الدافئة" وقد مات بطرس على ذلك العهد، والمياه الدافئة هي إيران وفارس والدولة العثمانية. وطمعت إنجلترا لأنها كانت محتلةً للهند وتحتاج إلى أن تؤمن لنفسها الطريق البحري والبري إلى هناك. وفرنسا كانت محتلةً للمغرب العربيِّ. ومن ثمَّ ففكرة الرجل المريض هي إبقاؤه حيًّا حتى لا تكون وفاته سببًا لأن تثور بينهم حرب في الخلاف على إرثه بين هذه الدول الثلاث الكبرى، فكان المتفَّق عليه أن تقطع تلك الدول ما تقطع من الرجل المريض وهو حي وتأخذ من أشلائه إلى أن تحين وفاته. وهذا ما حدث بالفعل، فأخذت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م وتونس سنة ١٨٨١م والمغرب سنة ١٩١٢م، وأخذت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢م، والسودان سنة ١٨٩٩م، وأكلت روسيا من شمال الدولة العثمانية ما أكلت، وبعد ذلك قامت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م.

كان السلطان عبد الحميد من القيادات الوطنية المحترمة والمظلومة أيضًا في تاريخنا ، لأنه ورث دولة ضعيفة، لكنه فهِم أنهم إن كانوا يطمعون فيه، فطمعهم فرصة لإيقاع الخلاف بينهم ولأن يحاربوا بعضهم بعضًا، فكان يثير المطامع بينهم ويثير التناقضات التي تجعلهم يحاربون بعضهم بعضًا دون أن يمسُّوه، ولذلك أنشأ طريق BBB (برلين–بيزنطة–بغداد)، وهو طريق سكك حديدية، اعتمد فيه على ألمانيا لأنها كانت في بداية نشأتها ولم تكن قد توحَّدت، ومن ثم كانت لا تهدِّده في شيء.

خاف الإنجليز على طريقهم البري للهند، وكان ذلك الخوف من ضمن أسباب قيام الحرب العالمية الأولى، ولكن للأسف عندما قامت الحرب كانوا قد عزلوا السلطان عبد الحميد في تركيا، وقام حزب خائن يسمى حزب "الاتحاد والترقي" بتولِّي الحكم ودخل الحرب، وقال السلطان عبد الحميد في مذكراته إنه ظل ٣٠ عامًا يعمل على أن يثير الخلاف بينهم وبين بعضهم البعض حتى يتحاربوا ويخرج هو منهم سالمًا غانمًا، ولكن أن يدخل الحرب معهم فهذا كان يعني أن الدولة العثمانية قد انتهت.

عندما دخلت أوروبا الحرب كان ما تخشى عليه من أن تحارب بعضها بعضًا على إرث الدولة العثمانية قد انتهى، فقد دخلت الحرب فعلًا ودخل الحلفاء مع بعضهم (روسيا وإنجلترا وفرنسا) ضد ألمانيا والدولة العثمانية، وفي ذلك الوقت قالوا لابد أن نرث بقية الرجل المريض، وعقدوا سايكس–بيكو سنة ١٩١٦م فأخذت فرنسا شمال الشام وقسَّمته إلى خمس دويلات في سوريا ولبنان، وأخذت إنجلترا فلسطين والأردن والعراق، أي الطريق البري الذي يقرِّبها من الهند، بالإضافة إلى أن فلسطين مهمَّة جدًا بالنسبة لمصر، وكانت إنجلترا قد احتلَّت مصر بالفعل، والذي يحتل مصر ضروريٌّ جدًّا له أن يسيطر على فلسطين.

بعد هذا الظرف ظهر وعد بلفور ١٩١٧م. كان أمام اليهود لبناء دولة يهودية قبرص وأوغندا والأرجنتين وسيناء وفلسطين. وكانت الحكومة الروسية عملت لهم تكوينًا معينًا ليقيموا دولة داخل الاتحاد السوفيتي ولم يقتنعوا به. لكن لماذا فلسطين؟

أوغندا رُفِضت لأجل مياه النيل، وسيناء كانت داخل مصر ورفض كرومر أن تكون دولة لليهود داخل مصر. كانت فلسطين هي الأكثر إغراء لليهود ليتجمَّعوا بها باعتبار أنها أرض لها تاريخ عندهم.

لكن ما هي فلسطين بالنسبة لمصر، وما هي أرض الشام بالنسبة لمصر؟

أتذكر موضوع داود بركات رئيس تحرير الأهرام منذ ١٨٩٩م، له كتاب "بالسلاح وبالماء تستعمر مصر"، ويعني أن مصر تُستعمر من خارجها أكثر مما تستعمر من داخلها، ولذلك عندما تنظر إلى مصر نجد أن المعارك التي حدثت في داخلها لاحتلالها قليلة، والمعارك التي حدثت لاحتلالها كانت خارجها، وكانت دائمًا تأتي من أرض الشام. صلاح الدين الأيوبي كانت معاركه ضد الصليبيين في الشام. المظفر قطز كانت معاركه ضد التتار في الشام. سليم الأول أخذ الشام سنة ١٥١٦م وأخذ مصر سنة ١٥١٧م. علي بك الكبير عندما استقلَّ بمصر تحرَّك إلى الشام. محمد علي عندما احتلَّ مصر تحرَّك إلى الشام. والإنجليز عندما احتلوا مصر احتلوها عن طريق التل الكبير وليس الغرب، لم يستطيعوا الدخول عبر الإسكندرية فدخلوا عبر التل الكبير. لقد كانت الحدود الشرقية هي مصدر الاحتلال دائمًا.

الفرنسيون دخلوا الغرب أول ما دخل نابليون ذهب إلى عكا فهزمته عكا، واستعماره في مصر لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات. والإنجليز عندما احتلوا مصر وضعوا سايكس-بيكو وأخذوا المنطقة، وبعدها جاء وعد بلفور فكانت أعينهم على هذه المنطقة، وليس فقط لتأمين الطريق المؤدي للهند، ولكن كان في ذهنهم: مصر.

الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية أنشؤوا مركز تمويل الشرق الأوسط، وكان لهم سهم في إنشاء جامعة الدول العربية وقتها، وشجعوا الدول العربية على إقامتها ليكون لهم دور في هذا الإطار مع وجودهم في مصر.

أنا هنا لا أتكلم عسكريًّا، وكيف حدثت تلك الوقائع، ولكن كل فكرتي جاءت من الاستقراء التاريخي. فعندما أجد أن كل هذه الحروب أثرت في مصر بالاحتلال أو بتغيير حكوماتها، وللشام أثر فيها.. إذن بالتأكيد هناك علاقة، فمن يحكم مصر لا يطمئن على حكمه إلا إذا كان مؤمَّنًا من ناحية الشام. لا يمكنني أن أقول ذلك بمنطق عسكري، لأنني لا أعرفه، ولكن بمنطق الاستقراء التاريخي بالأمثلة السابقة التي تؤكِّد هذا.

إذن فعلينا أن نعتبر أن مصر قد احتُلَّت بإسرائيل، ومصر هنا لابد أن نعترف أنها عندما تُحتَل فمن الممكن أن تُحتل من خارج أراضيها، وفكرة داود بركات لابد أن نضعها أمامنا بشكل قوي، فاحتلال مصر إما أن يكون بأرض الشام، أو عن طريق التحكم في مياه النيل. فمصر من البلاد التي تُحتل من خارج أراضيها، وعندما تحتل من خارج أراضيها تصبح مصر مُحتلة عسكريًّا، لابد أن نضع هذه المسألة في ذهننا. فلا يكفي أن نُخرج الإنجليز من قناة السويس لكي نقول إن مصر مستقلة، هذا غير صحيح.

ما هو الاحتلال إذن؟

الاحتلال في ظني -والذي أقصده- هو السيطرة على الإرادة السياسية، ليس فقط التأثير في الإرادة السياسية ولا الضغط عليها، فالتأثير على الإرادة السياسية والضغط عليها يمكن أن ينشأ عن طريق ضغوط اقتصادية أو عن طريق الحلفاء أو عن طريق مسائل معينة من هذا النوع، لكن ذلك لا يبلغ مرتبة الاحتلال، لأن الاحتلال هو السيطرة على الإرادة الوطنية لتوجيهها توجيهًا ليس في صالح شعب هذا الوطن، ولكن في صالح القوة الخارجية. وعندما أقول إن مصر محتلَّة بهذا الشكل، فإنما أقصد بهذا المعنى.

ما الذي يثبت أن مصر محتلة؟

حرب ١٩٤٨م دخلتها مصر مع سوريا والأردن وهُزِموا فيها، وحرب ١٩٥٦م دخلتها مصر وهُزِمت عسكريًّا وانتصرت سياسيًّا، أو لعلنا من الأفضل أن نقول إن انتصار مصر كان سياسيًّا ولم يكن عسكريًّا ولا نقول إن مصر هُزمت في ١٩٥٦م، فقد استطاعت أن تُخرج اليهود والإنجليز والفرنسيين بضغوط سياسية داخلية من خلال حكم وطني، وضغوط خارجية عن طريق التوازنات الدولية

التي كانت موجودة وقتها بين الاتحاد السوفيتي وبين الغرب، فانتصارها كان سياسيًّا وليس عسكريًّا.

وحرب ١٩٦٧م مازلنا نعيش بآثار هزيمتها حتى الآن، وحرب ١٩٧٣م وقعت وانتصرنا عسكريًّا ولكن سياسيًّا اعترفنا بإسرائيل وأصبح لها ضغوط علينا في سيناء على عكس حرب ١٩٥٦م.

وبعدها حرب اجتياح لبنان ١٩٨٢م، وحرب لبنان ٢٠٠٦م، وقبلها ثورة فلسطين ١٩٨٧م، وثورة فلسطين ٢٠٠٠م، نجد ثماني حروب في نحو ٥٠ أو ٦٠ سنة، وإذا أضفنا إليها حرب العراق وإيران ١٩٨٠-١٩٨٨م، ثم أفغانستان وأمريكا سنة ٢٠٠١م، وحرب العراق وأمريكا سنة ٢٠٠٣م، وحروب سنة ٢٠١١م وما بعدها.. نجد أكثر من ١٢ حربًا قامت في منطقة واحدة في أقل من ٦٠ سنة.

لم يعرف العالم ولا التاريخ مثل هذا الوضع، ولكننا منه نعرف أنه احتلال لأرضنا، واحتلال عسكري بالتحديد.

إذن ما علاقتنا بفلسطين؟

علاقة الشعب المصري بشعب فلسطين في حركته السياسية الممتدَّة في التاريخ المعاصر -وأقصد بالتاريخ المعاصر من القرنين التاسع عشر والعشرين- بدأت في تقديري بحائط البراق سنة ١٩٢٩م عندما حدث نزاع بين المسلمين واليهود حول حائط البراق (ويسميه اليهود حائط المبكى)، مَنْ يستحوذ عليه ويسيطر على منطقة حائط البراق؟ فبدأت تتحرَّك مصر وشعبها في هذه المسألة.

بدأ نوع من أنواع الالتفات الشديد جدًّا، إذ كان تفكيرنا مقصورًا من قبل على الاحتلال الإنجليزي وإخراجه من مصر، وبعدها جاءت مصادمات حائط البراق فانتبه الشعب المصري وبدأ ينظر إلى مصر العربية، وبدأت تظهر فكرة العروبة بشكل واضح، وظهر ذلك في الحزب الوطني القديم من خلفاء مصطفى كامل ومحمد فريد، لأنه كان له توجُّه وطني إسلامي إلى حد ما.

وبعدها حدثت ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦م ضدَّ الصهاينة، كان مصطفى النحاس -زعيم الوفد المصري- قائد الحركة الوطنية المصرية في هذا الوقت وزعيم أكبر حزب ينادي بالوطنية المصرية واستقلال مصر عن الإنجليز، وكان تفكير الوفد حتى ذلك الوقت قطريًّا إلى حدٍّ ما، فقال النحاس بأننا لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي أمام ما يجري عند حدودنا الشمالية الشرقية، يقصد: فلسطين. وبدأ الوفد ينتبه إلى أهمية فلسطين بالنسبة للحركة الوطنية المصرية في هذا الوقت، وبدأت تدخل هذه الحركة في تكوين الوعي المصري المتكامل فأيقظها، وبدأت تنمو بشكل ما من سنه ١٩٣٦م وما بعدها.

بعدما انتهت الحرب العالمية الثانية وبدأت مصر تطالب بجلاء الإنجليز، كانت أول مظاهرة عامَّة تشمل مصر كلها يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٥م، أي ذكرى وعد بلفور، وقامت المظاهرات لتملأ مصر والتفت الناس كلهم بشكل قاطع لهذا الأمر، ونجد ذلك في الجرائد القديمة بدار الكتب، (عندما كنت شابًّا كنت بعد قراءة الكتب التاريخية لفترة معينة أنظر في جرائد الفترة نفسها فهي توضح كيف كانوا يفكرون يومًا بيوم، فالمؤرخ ينظر نظرة عامة لكن الجرائد تعطيك نظرة تفصيلية يومية من داخل الحدث وليس من خارجه)، لذلك فاجأني يوم ٢ نوفمبر ١٩٤٥م، لأن المؤرِّخين لم يكتبوا عنه جيِّدًا في كتب التاريخ، لكن كانت جميع الصحف قد كتبت عنه.

منذ الخمسينيات وبعد خروج الإنجليز من مصر، صار جوهر القضية المصرية الوطنية هو: فلسطين، لأن احتلال فلسطين أصبح هو الاحتلال القائم بعد أن انتهى الاحتلال الإنجليزي من قناة السويس، ولذلك عندما جاء السادات واعترف بإسرائيل ووقَّع اتفاقية كامب ديفيد التي تذكرني باتفاقية ١٩٣٦م لحزب الوفد، وهي اتفاقية اعترف الوفد فيها بوجود الإنجليز في مصر، وبعدها بأربع سنوات بدأ الوفد بالتراجع وقال إنها لا تلزمنا ونعيد النظر فيها، لأن الاتفاقية مع المستعمر -وهو مستعمر- لا تلزمنا ولا يجب

أن ننظر إليها. ولذلك فمعاهدة كامب ديفيد لا تزيد في قيمتها عن اتفاقية ١٩٣٦م لحزب الوفد. وعندما ألغى النحاس باشا اتفاقية ١٩٣٦م في أكتوبر ١٩٥١م قال: "من أجل مصر وقعت اتفاقية ٣٦ ومن أجلها أطالبكم الآن بإلغاء اتفاقية ٣٦"، قال ذلك بمجلس النواب.

علاقتنا بإسرائيل أساسها أن مصر احتُلَّت من قبل إسرائيل، والاحتلال هو السيطرة على الإرادة السياسية من خارج الوطن وليس مجرد الضغوط السياسية. فماذا نصنع في مواجهة الاحتلال؟ ليس عندي إجابة عن هذا السؤال لكن أطرحه عليكم، لنتكلم فيه وهو سؤال يجب أن ننظر إليه. ما الذي جعلنا في موضع احتلال بهذا الشكل؟

إسرائيل قوة احتلال تتميَّز عن القوى الأخرى بشيء مهم، لأن الاحتلال الآخر هو احتلال عسكري يفرض إرادته، ويسيطر على الإرادة الوطنية باحتلاله العسكري، أما هذا الوضع فليس احتلالا عسكريًّا محضًا، وإنما هو احتلال عسكري وشعبي أيضًا، فهناك شعب يقيم بالدولة ويطرد الفلسطينيين، وبذلك أصبح هناك عنصر آخر في الموضوع.

ولذلك فإن أول نتيجة لذلك كانت نتيجة غريبة جدًّا، عندما جاؤوا في حرب ١٩٤٨م ماذا فعلنا؟ عندما نحارب الإنجليز مثلًا أو أية قوة وطنية تحارب مستعمرًا أجنبيًّا، ماذا تفعل؟ المستعمر الأجنبي له جيش نظامي وبجيشه النظامي يسيطر على البلد ويستطيع أن يغير كلَّ أحوالها، وبقواه السياسية يستطيع أن يعتقل وينفي ويفعل كل شيء، وأنا لا أملك نفس قدراته العسكرية فماذا أفعل؟ هناك طريقتان نجحتا في العالم كله، هما طريقة غاندي وطريقة ماو تسي تونغ.

الطريقة الأولى (طريقة غاندي والمقاومة السلمية): في الصحف المصرية القديمة يقال إن ثورة ١٩١٩م أخذ منها غاندي فكرة المقاومة السلبية، لأنه قال إن المحتل يريد باحتلاله لك أن يسيطر عليك لمغانم يحصل عليها، فعليك بالمقاومة السلبية وبالإحجام عن التعاون وبالمقاطعة فبذلك تستطيع أن تفقده إمكانية أن يحصل على هذه المغانم، هذا ما فعله غاندي. وهذا ما فعلناه في ثورة ١٩١٩م فكان شعار الثورة: عدم التعاون مع الإنجليز، وفكرة عدم التعاون هي إفقاده القدرة على الاستفادة من بقائه عندك، وقد قامت في الهند ونجحت.

الطريقة الثانية التي نجحت أيضًا هي حرب العصابات: جيش منظم يكلف الكثير جدًّا يحاربك وله قدرات، وأنت تحاربه بطريقة حرب العصابات. شرحها ماو تسي تونغ في إحدى كتاباته: "إذا تقدم العدو تقهقر، وإذا توقف ناوشه، وإذا استقر اهجم عليه، وإذا التفت إليك ليضربك اهرب، ولا تدخل في معركة حاسمة أبدًا". تصبح تكلفته الحربية بهذا الشكل مكلفة جدًا، ولا يصل إلى شيء وأنت طول النفس عندك قوي.

وبذلك فإن اتباع هذه الطرق يجعلك قادرًا على محاربة جيش نظامي أقوى منك: إما مقاومة سلبية أو حرب عصابات. وهذه نجحت في الهند والأخرى في الصين. ونجحت الطريقتان على مستويات عالمية وبلاد كثيرة حدثت معها.

ماذا فعلنا نحن سنة ١٩٤٨؟

دائمًا الجيش النظامي الأجنبي أقوى منك، فتحاربه حرب عصابات، لكن ما حدث هنا هو أن الاحتلال الإسرائيلي كان احتلالا عسكريًّا وشعبيًّا في نفس الوقت، لأنه كان معهم مهاجرون يهود من بلاد مختلفة. فدخلنا نحن بجيوش نظامية ضعيفة وهم دخلوا بحرب عصابات، ولذلك نجحوا وانتهت الحرب بما هو معروف، عكس ما كان من الممكن أن يحدث. ولذلك نحن هنا نقابل حالة مختلفة وهي حرب عصابات يقابلها حرب عصابات دون وجود جيوش نظامية، وذلك ما انتهت إليه إسرائيل وبدأت تعمل على أساسه.

بدأ عبد الناصر في بداية ١٩٤٨م ينتبه لهذه المسألة، وبدأ عن طريق غزة يعمل على أسلوب حرب العصابات في إسرائيل، فكانوا يضربون الجيش المصري

ليحولوها إلى حرب نظامية ووراءهم أمريكا والغرب. وحاولت سوريا أن تفعل ذلك وتشجع حرب العصابات ولكن كانوا يضربونها ليحولوها إلى حرب نظامية فتراجعت. بدأ الفلسطينيون في الأردن كذلك يضربون بطريقة حرب العصابات، فقام الملك حسين بضرب الفلسطينيين لكي يؤمِّن نفسه من ناحية اليهود. ومن المعروف أنه كان من عملاء CIA ومن أقطابهم، فالمسألة هي مسألة كيف تستخدم هذا السلاح.

لكي نعرف ما حدث في حرب ١٩٤٨م يجب أن نلاحظ أن الفلسطينيين في فلسطين قبل الحرب استطاعوا أن يحافظوا على ٨٠٪ من أرض الوطن، وبعد دخول الجيوش النظامية العربية تركوا فلسطين وأصبح ٧٨٪ من الأرض تابعة لإسرائيل و٢٢٪ تابعة للعرب في ذلك الوقت.

يبين ذلك أن أسلوب الحرب النظامية في ذلك الوقت لم يكن صالحًا، ويوصلنا ذلك لنقطة أخرى مهمة وهي: أن جيوشنا لا تستطيع أن تحارب الدول الكبرى، فتلجأ إلى حرب العصابات. لقد استطاع اليهود أن يُهجِّروا من فلسطين ٨٠٠ ألف فلسطيني بطريقة حرب العصابات، وكان عدد الفلسطينيين أصلًا مليون و٣٠٠ ألف فلسطيني.

تثور في هذا الشأن مسألة ما العمل؟ كيف تواجه الاحتلال العسكري في مثل هذه الحالة؟

فالأسلوب الذي اتُّبع من قبْل في الهند لا يصلح بالنسبة لإسرائيل وأسلوب حرب العصابات لا يصلح. لم تعد الدول العربية تستطيع الآن بعد اتفاقية سايكس-بيكو أن تحارب إسرائيل، فالجيش الإسرائيلي نظامي ومُعَدٌّ إعدادًا أقوى من جيوشنا، لأنه مفتوح له كل إمكانيات الغرب في هذا الشأن، بالإضافة إلى السلاح النووي. وأصبح الوجود القُطري لبلادنا وحكوماتنا يمنع وجود حرب العصابات، لأنه يهدِّدها قبل أن يهدِّد يهود إسرائيل وهذه هي المشكلة. فقد أصبح الآن الوجود القُطري ونظم حكومتنا لا تسمح بوجود معارضة منظمة شعبية سلمية في بلادنا، فكيف تسمح بوجود قوة مستقلَّة مسلَّحة في بلادها تحارب إسرائيل إن لم تحاربها هي؟ كيف تسمح بوجود كيان شعبي قوي، وهي لا تستطيع ولا تحتمل وجود قوة في بلادها بهذا الشكل؟

وتجربة الأردن واضحة جدًّا، عندما قام الفلسطينيون هناك بحمل السلاح ضدَّ إسرائيل ضربهم الملك حسين لأن هذه الحالة تهدِّده، وحوادث عام ١٩٧٠م واضحة جدًا وما قبلها وما بعدها.

لا يسمح الحاكم المستبد بوجود تنظيم شعبي له قدرات ذاتية وله استقلالية في تفكيره وفي اتخاذ القرارات وتنفيذها. من الممنوع استبداديًّا فعل ذلك، وإن فعلتَ فقد خُنْتَ الاستبداد، فما بالك إن كان التنظيم الشعبي مسلَّحًا لمحاربة إسرائيل؟

نحن هنا لا نستطيع -بجيش نظامي- أن نحارب، لأن العدو له دعم غربي شديد جدًّا بالإضافة لسلاحه النووي، والحكم القُطري بموجب قُطريَّته لا يسمح بوجود هذا الأمر ونحن في هذا المشكل:

١- صارت إسرائيل ذات قوة نظامية كبيرة مستندة إلى كل قدرات الولايات المتحدة، ونحن قوة نظامية لا تستطيع مواجهة قوة نظامية مستندة إلى كل هذا التقدُّم والتنظيم الأمريكي الغربي.

٢-تجعل حربُ العصابات الشعبَ اليهودي في إسرائيل غير آمن، فحرب العصابات تجعل تكلفة الاحتلال أكثر من تكلفة المغانم. فقد أتى اليهودي إلى إسرائيل لكي يجد فيها أغلبيةً تحميه بدل أن يكون أقلية في بلد آخر. فطلب الأمان هو الذي جاء به وعندما يهدَّد في أمنه لن يبقى في هذا الوضع، حتى وإن كانت هناك خسائر مادية، فليست هي الحاسمة، فتهديد أمنه هو ما يجعله ينصرف.

ونعرف أن إسرائيل عندما بدأت دعوة الوطن الديني كان اعتمادهم على أن المذبحة الألمانية أيام النازية جعلتهم غير آمنين. ذهب أغلب اليهود الألمان بدلًا من إسرائيل إلى بلاد أخرى كأمريكا لأنهم طلبوا الأمن وليس وطنًا قوميًّا لليهود. فاليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين أقل

ممَّن ذهبوا إلى أماكن أخرى. ونصف اليهود تقريبًا الذين ذهبوا إلى إسرائيل من الدول العربية، كيف سمحت الدول العربية لليهود أن يهاجروا إلى فلسطين ويكوِّنوا شعبًا ودولة معادية لهم؟

لقد أدَّت الدولة القطرية إلى الآتي:

١- أنها لا تستطيع أن تحارب دولا معتمدة على تنظيم سلاحي أقوى منها.

٢- ولا تسمح بحروب عصابات من داخلها.

٣- وتسمح بخروج أقلية من عندها لتصبح دولة معادية لها في الخارج.

وبذلك الشكل أسهمنا نحن في إنشاء دولة إسرائيل بأكثر ممَّا أسهم فيها الغرب أو بقدر ما أسهم فيها الغرب. هل هذه حقيقة تتفقون معي فيها؟

كان إجمالي اليهود العرب ٩٨٥ ألف، هاجر ٦٧٠ ألف منهم إلى فلسطين، فصار نصف سكان إسرائيل من اليهود العرب، ويُطلق عليهم (السفارديم)، ويُطلق على الغربيين (الإشكناز). فأصبحت إسرائيل نصفها سفارديم من العرب ونصفها إشكناز من الغرب، وأصبح هناك اضطهاد من الغربيين للشرقيين، ومنهم من قال عن نفسه: "لقد كنت يهوديًّا في العراق، فصرت الآن سفارديم"، لأنه لا يعامل كيهودي ولكن كسفارديم مضطهد من اليهود الغربيين.

الذي يؤكِّد على أن إسرائيل لم تنشأ كوطن قومي لليهود ولكن نشأت كقاعدة استعمارية: أن نفس قادة إسرائيل وقادة الحركة اليهودية الصهيونية كانوا ملاحدة، ومن لم يكن ملحدًا منهم كان علمانيًّا، وأشد ملحديهم كان موسى ديان. فالملاحدة والعلمانيون هم من أنشأوا الدولة اليهودية مما يبيِّن أنها دولة احتلال وليست وطنًا قوميًّا كما يقال.

كان بمصر ٨٠ ألف يهودي، ذهب إلى إسرائيل منهم ٧٥ ألفًا. وبذلك عزَّزنا نحن إسرائيل، والعراق كان بها ١٠٥ آلاف يهودي ذهبوا إلى إسرائيل، وكذلك اليمن كان بها ٥٠ ألف يهودي.

لا تتعلق هذه النقطة الثانية بإسرائيل، وإنما تتعلَّق بالدول القطرية (دول سايكس-بيكو). لقد قامت عندنا حركة توحيد عربي وقومي وحركات توحيد بين بلاد مختلفة وبعضها، لكن فشلت دولتنا القطرية في ذلك المسعى. فكان هناك اعتقاد دائم عن وحدة مصر والسودان ووحدة وادي النيل، وهناك مفاوضات كثيرة مصرية فشلت مع الإنجليز بسبب السودان، لأنهم لم يعترفوا بحكم مصر للسودان، وأن تكون مصر والسودان وحدة واحدة، وإن أجازوا صيغة معينة للاحتلال الإنجليزي. فقد كانت فكرة وحدة وادي النيل جزءًا لا يتجزَّأ من فكرة الوطنية المصرية، ولقد درستها في كتابي "سعد زغلول يفاوض الاستعمار".

لكن هل فكَّر أيُّ حزب مصري في إدخال سوداني في تكوينه التنظيمي؟ لم يحدث قط! فسعد زغلول مثلًا عندما أقام الوفد وعمل صيغة الوفد والتوكيلات، كان كل الأعضاء في البداية مسلمين، فذهب إليه المسيحيون وقالوا كيف ذلك؟ وفي وقتها وضع في الكشف أسماء مسلمين ومسيحيين تعبيرًا عن تكامل الوحدة الوطنية في صيغة أسماء الوفد. لم يفكروا في ذلك مع السودان! حزب الوفد لم يدخله سوداني واحد، الإخوان المسلمون بجامع الجامعة الإسلامية وليس بجامع القطرية ووحدة وادي النيل وجدت في مصر والسودان، وكذلك الشيوعيون بجامع الشيوعية (ففي مصر نشأت حدتو وفي السودان نشأت حستو). لم نقبل وجود تنظيم مصري شعبي يتضمن السودانيين وكنا نرغب في الوحدة مع السودان ونتكلم مع الإنجليز في المفاوضات على أساس أننا -على الأقل- لا نأخذ السودان ولا هم يأخذونها.

ولذلك لما حدث أن استقل السودان عام ١٩٥٦م، كان الذي نجح في الانتخابات في السودان حزب وحدة وادي النيل الذي كان رئيسه إسماعيل الأزهري، أول

ما وصلوا إلى السلطة رفضوا الوحدة مع مصر، وهم محقون في ذلك.

توحَّدت مصر وسوريا سنة ١٩٥٨م وانفصلتا سنة ١٩٦١م. حَكَمَ حزبُ البعث في سوريا والعراق ومع ذلك انفصل حزب البعث إلى حزبين وأصبح أحدهما في سوريا والآخر في العراق، وهذا قومي والآخر قطري، مما يدل على ماذا؟

الدلالة الأهم من وجهة نظري: أن الفكرة السياسية لا تصبح قوة مادية إلا عن طريق تنظيم شعبي عبارة عن هيكل جماعي يجمع عددًا كبيرًا من الناس تتجمَّع فيه المعلومات ويفكرون سويًّا ويؤخذ القرار ويُنفَّذ جماعيًّا في مناطق كثيرة. لا يمكن لفكرة سياسية أن تتحوَّل لشيء حقيقي مادِّيٍّ في المجتمع إلا عن طريق التنظيم. والمشكلة التي حدثت عندنا أن التقسيم القُطري أنشأ دولة قُطرية بتنظيم قُطري، فعندما قامت الحركات الوطنية قامت داخل الأقطار فأصبحت التنظيمات قُطرية أيضًا بتنظيم قُطري.

اتحدت الدولة المصرية أثناء حكم عبد الناصر مع بعث سوريا، وسعيا إلى الوحدة لكن التنظيم المصري والتنظيم الآخر البعثي لم يسمحا بهذا الاندماج، وأصبحت هناك ممانعة، فانفصلا. وكذلك حدث في العراق مع سوريا، وكذلك بين مصر والسودان. فتجارب الوحدة -رغم الدعوة إلى الوحدة والإيمان بالوحدة- رفضتها التكوينات التنظيمية، سواء التكوينات التنظيمية الخاصة بالدولة أو الحركات الوطنية الشعبية التي قامت على أساس قطري، ولم تستطع أن تندمج مع بعضها البعض.

والتنظيم القطري عندنا لم ينجح مع إسرائيل، ولم ينجح أيضًا في الوحدة، وأيضًا التكوين القطري يجعل النظرة السياسية للأمن القومي تستبعد الآخرين، ومثالاً على ذلك:

عندما عَمِل عبد الناصر على الدوائر الثلاث التي تنتمي إليها مصر -أفريقيا والإسلام والعروبة- عمل على أفريقيا والعروبة، ولكن دائرة الإسلام لم ينجح فيها، ليس بسبب الإخوان، ولكن لأن وحدة الدائرة الإسلامية هنا تشمل تركيا وإيران، ولم يكن أمنهما القومي يسمح بالتكامل معهما في ذلك الوقت، إذ كنا كعرب ضد الغرب وضد الأمريكان ومستعدين للتحالف مع الروس ضد الأمريكيين، لأن الأخيرين هم مصدر الخطر علينا. فأمننا القومي يسمح بتحالف مع شريك كبير غير غربي لا يهددني ضد القوة السائدة التي تهددني. لكن على العكس كان حال تركيا وإيران، لأن التهديد الأساسي لهما كان روسيا القيصرية أولًا ثم روسيا السوفيتية، لأن روسيا دائمًا كانت تبحث عن المياه الدافئة ومعاركها منذ ١٧٢٥م أو قبل ذلك حتى وقت قريب والتي انتهت الآن، كانت دائمًا مع تركيا وإيران.

لذلك فإن جزءًا من التكون الوطني التركي والإيراني أنهم يتحالفون مع أمريكا -ليس فقط تحالفًا عسكريًّا- ضد العدو الأساسي، روسيا. والتكوين القطري يؤدي بنا إلى أن نتعاكس ونتنافر. ففكرة الأمن القومي لدى كل قُطر تتعارض مع الآخر، لأن كل قطر يبحث عن أمنه هو فقط.

هذا هو الجزء المتعلق بالوحدة القطرية، وكلها تتعلق بهذا الموضوع:

- لا نستطع أن نواجه إسرائيل بدولة قطرية.
- لا نستطع أن نقيم وحدة عربية بدولة قطرية.
- لا نستطع أن نحقق أمننا الوطني في إطار الفهم الخاص بالدولة القطرية.

*****

قراءة في نماذج من الفكر العربي عن الصهيونية وإسرائيل والقضية الفلسطينية:



معالم رؤية المسيري للصهيونية "الجماعة الوظيفية مدخلا للفهم والتفسير"

رجب السيد عزالدين(*)

مقدمة:

ثمة مداخل تفسيرية متنوعة لتحليل الظاهرة الصهيونية الحديثة، بعضها يعتمد على الدين ومقولات اليهود واليهودية والمؤامرة العالمية على الإسلام، وهو التفسير الأكثر رواجًا على مستوى أوساط العامة في عالمنا العربي والإسلامي[1]، والبعض الآخر يعتمد على مقولات الاستعمار وخطط القوى الغربية في الهيمنة على شعوب العالم واستنزاف مواردها[2]. ويعد د.عبد الوهاب المسيري من أهم الرموز الفكرية العربية —المنتمية للتيار الأخير – وأكثرهم اعتناء بتحليل وتشريح الظاهرة اليهودية والصهيونية خلال العقود الماضية، فقد استحوذت هذه الظاهرة على محور تفكيره وبحثه ودراسته لمدة تزيد على أكثر من خمسة وعشرين عامًا إلى أن انتهى من أكبر عمل موسوعي عربي معاصر حول اليهود والصهيونية في عام ١٩٩٩.

صدرت موسوعة المسيري بعنوان "اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد" ليعبر بذلك عن الفكرة الأساسية التي تتمحور حولها موسوعته، وهي التمييز بين اليهودية واليهود من ناحية، والحركة الصهيونية من جهة أخرى، بما يعني تفكيك كل الديباجات والمقولات والأساطير الدينية والتاريخية التي تحاول ربط الصهيونية باليهودية.كما انتقلت الموسوعة من التفكيك إلى التأسيس عبر طرح رؤية عربية بديلة للظواهر اليهودية والصهيونية ونحت مصطلحات جديدة لوصفها واقتراح مداخل تفسيرية

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) هناك عشرات الكتابات الإسلامية التي تتبنى هذا الخطاب ومقولاته المختلفة الأساسية والفرعية، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- محمد إبراهيم ماضي، **صراعنا مع اليهود بين الماضي والمستقبل**، (القاهرة ،دار التوزيع والنشر الإسلامية،١٩٩٢).
- بهاء الأمير ، **الوحي ونقيضه: بروتوكولات حكماء صهيون في القرآن** (القاهرة ،مكتبة مدبولى ،٢٠٠٦).
- عبد الله التل ، **الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام**،المكتب الإسلامي (القاهرة ،٢٠٠٨).
- محمد بن مهنا العلي، **صراعنا مع اليهود بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية**(الرياض ،دار أمية ،١٩٩٣).
- محمد عبد العزيز منصور، **يا مسلمون اليهود قادمون** ،(القاهرة، دار الإعتصام ،١٩٧٨).
- وليم كار ،**اليهود وراء كل جريمة** ،المحقق :خير الله الطلفاح (بيروت ،دار الكتاب العربى ،١٩٨٢).
- صلاح عبد الفتاح الخالدى ،**كتاب حقائق قرآنية عن القضية الفلسطينية** ،(عمان ،دار العلوم للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧).
- أحمد سالم الرحال ، **فلسطين بين حقيقة اليهود وأكذوبة التلمود**،(عمان ،دار ،٢٠٠٧).
- عبد الرحمن بن محمد الدوسري، **يهود الأمس سلف سيء لخلف أسوأ**،(جدة ، مكتبة السوادي ،١٩٩٢).
- محمد خليفة التونسي، **الخطر اليهودى بروتوكولات حكماء صهيون**،(عمان، دار الكتاب العربى ،١٩٨٠)
- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، **مكايد اليهود عبر التاريخ**، (دمشق ،دار القلم ،١٩٧٨).
- صارم الدين ابراهيم الكوكباني، **التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب**، (عمان ،دار الراية ،١٩٩٣).
- أبو بكر جابر الجزائري ،**هؤلاء هم اليهود فاعتبروا يا أولي الأبصار**، (المدينة المنورة ،مجلة الجامعة الإسلامية ،٢٠٠٨).
- عبد العزيز بن عبد الله بن باز، **حكم الصلح مع اليهود في ضوء الشريعة الإسلامية**،(الرياض ، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ،١٩٩٦).
- محمد عثمان شبير، **صراعنا مع اليهود فى ضوء السياسة الشرعية**،(الكويت ،مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ،١٩٨٩).

(٢) يتبنى هذا الاتجاه عدد من المفكرين العرب أمثال د.عزمى بشارة، د. أحمد يوسف أحمد، وغيرهم من الرموز القومية والناصرية واليسارية .

مركبة لفهمها وتحليلها، وكان نموذج "الجماعة الوظيفية" من أهم النماذج التفسيرية التي قدمها المسيري في هذا السياق.

استطاع المسيري من خلال هذا المدخل أو النموذج التفسيري تفكيك المقولات الدينية التي يستخدمها الكيان الصهيوني للتغطية على ماهيته الاستعمارية الاستيطانية الأصلية من أمثلة (أرض الميعاد – التوارة –العودة لأرض الأجداد –بناء الدولة اليهودية – نحن اليهود)، كما استطاع تفكيك المقولات الدينية المضادة المستخدمة في جانب من أصحاب الخطاب الإسلامي المقاوم من أمثلة (الصراع مع اليهود – الجهاد ضد اليهود –أحفاد بني إسرائيل). ليطرح بعد ذلك تفسيرًا مختلفًا للظاهرة الصهيونية من خلال ربطها بالظاهرة الاستعمارية، فتصبح الأولى نتيجة للثانية، وتصبح إسرائيل هي القاعدة العسكرية الوظيفية الكبرى في الشرق الأوسط لتحقيق مصالح القوى الاستعمارية الغربية، وهي تقوم بهذه الوظيفة مقابل الدعم الذي تتلاقاه والذي يشكل أساس بقائها فيما يعرف بنموذج "الدولة المملوكية الطفيلية" التي تعتمد في أساس وجودها على غيرها.

وتهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على مفهوم الجماعة الوظيفية ومدى قدرته التفسيرية في قراءة وتحليل تاريخ الجماعات اليهودية الحديثة والمعاصرة وصولاً إلى الحركة الصهيونية ومنتجها الرئيسي في العالم العربي المسمى" إسرائيل"، وذلك اعتمادًا على موسوعة المسيري (الجزآن الثاني والسابع تحديدًا)، وكتاب"الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد"، وفقًا للمحاور التالية:

أولًا– الجماعة الوظيفية: التعريف بالمفهوم

الجماعات الوظيفية مصطلح قام المسيري بصكه استنادا إلى مصطلحات قريبة في علم الاجتماع، لوصف مجموعات بشرية تستجلبها المجتمعات الإنسانية من خارجها، في معظم الأحيان، أو تجندها من بين أعضاء المجتمع أنفسهم من بين الأقليات الإثنية أو الدينية، أو حتى من بعض القرى أو العائلات. ثم يوكل لأعضاء هذه المجموعات البشرية أو الجماعات الوظيفية وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها لأسباب مختلفة من بينها: رغبة المجتمع في الحفاظ على تراحمه وقداسته، ولذا يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية بعض الوظائف المشينة (الربا– البغاء)، أو الوظائف المتميِّزة (القضاء – الترجمة –الطب) التي تتطلب الحياد والتعاقدية. كما أنه قد يوكل لأعضاء الجماعات الوظيفية الوظائف ذات الحساسية الخاصة وذات الطابع الأمني (حرس الملك – طبيبه– السفراء– الجواسيس). ويمكن أن تكون الوظيفة مشينة ومتميِّزة وحساسة في آن واحد (مثل الخصيان والوظائف الأمنية على وجه العموم). كما أن المهاجرين عادةً ما يتحولون إلى جماعات وظيفية (في المراحل الأولى من استقرارهم في وطنهم الجديد)؛ ذلك لأن الوظائف الأساسية في وطنهم الجديد عادةً ما يكون قد تم شغلها من قبَل أعضاء الأغلبية. ولذا يمكن تسمية أعضاء الجماعات الوظيفية "المتعاقدين الغرباء". وقد يلجأ المجتمع إلى استخدام العنصر البشري الوظيفي لملء فجوة أو ثغرة تنشأ بين رغبات المجتمع وحاجاته من ناحية، ومقدرته على إشباع هذه الرغبات والوفاء بها من ناحية أخرى، ومن أمثلة ذلك نشأة الحركة الصهيونية واستعمارها الاستيطاني لفلسطين والحاجة المستمرة لمستوطنين جدد لتوطينهم[1].

ثانيا– تطبيق المفهوم في قراءة تاريخ اليهود:

اهتمت موسوعة المسيري (اليهود واليهودية والصهيونية: مدخل تفسيري جديد)[2] بدراسة "الجماعات

---

(١) عبد الوهاب المسيري، **الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد**، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٢، ص ص ١٤–١٥.

(٢) يمكن أن نعرف الموسوعة بأنها دراسة لحالة محددة هي اليهود واليهودية والصهيونية في الحضارة الغربية أساسًا، وهي دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تركز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء

اليهودية"[١] في إطار علم اجتماع الأقليات والجماعات التجارية الهامشية والجماعات الإثنية، حيث يظهر اليهودي باعتباره عضو أقلية أو جماعة وظيفية، وما يحدث له يحدث لكل أعضاء الأقليات والجماعات الوظيفية الأخرى، أي أن اليهودي يظهر باعتباره الإنسان عضو الأقلية الدينية أو الإثنية أو الوظيفية.

اكتشفت الموسوعة من خلال عملية استقراء واسعة لتاريخ الجماعات اليهودية، أن نموذج الجماعات الوظيفية كان أكثر النماذج قدرة على تفسير واقع هذه الجماعات عبر تاريخها القديم والمعاصر وصولاً إلى إسرائيل، بما يكشف عن حالة استمرارية تاريخية متعيِّنة في تواريخ الجماعات اليهودية، وهي اضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية. كما رصدت الموسوعة عدة أسباب تفسر ظاهرة تَحَوَّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تتنوع بين التاريخي والاجتماعي والديني والسياسي، أهمها علاقتهم بالزراعة والطبيعة الإقطاعية للمجتمع الغربي[٢]. وقد اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بأدوار وظيفية عديدة أهمها: الوظيفية الاستيطانية القتالية، والوظيفية المالية الوسيطة في مجالات التجارة —الربا–جمع الضرائب–المتعهدون العسكريون —تجارة الرقيق —تجارة الخمور، إضافة إلى وظائف أخرى في مجالات الطب، والجاسوسية، وقطاع اللذة والبغاء، وتجارة الرقيق الأبيض[٣].

كما اكتشفت الموسوعة أن التحديث الفجائي وظهور الدولة المركزية الحديثة في شرق أوروبا التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعات الوظيفية، قد أسهما بشكل كبير في إسراع عملية تفكيك وتآكل مراكز الجماعات اليهودية في المجتمعات الأوروبية وخلق فائض بشري يهودي بلا وظائف، مما أدى إلى ظهور ما يسمى "المسألة اليهودية". ففي أواخر القرن التاسع عشر، كانت الغالبية الساحقة من يهود أوروبا من نسل يهود بولندا الذين كانوا يعملون داخل نظام (الأرندا)[٤] الذي وصفته الموسوعة

الجماعات اليهودية –بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية في المستوطن الإسرائيلي– من جهة وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات وتطرح مقولات تفسيرية تصلح لقضايا عامة مثل: علاقة الأقلية بالأغلبية، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية، وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الحلولية بالتوحيد، وعلاقة الفكر بالمادة. وأول هذه النماذج هو نموذج الجماعات الوظيفية. راجع: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: مدخل تفسيري جديد"**، المجلد الثاني، (القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩).

(١) "الجماعات اليهودية" مصطلح تستخدمه الموسوعة بدلاً من مصطلح "اليهود" للدلالة على أنهم جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة سياقهم التاريخي والإنساني العام، ومقارنتهم بأعضاء الأقليات (الدينية والإثنية) الأخرى، على عكس ما تميل إليه معظم الدراسات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم كيانًا واحدًا متجانسًا مستقلاً، له آلياته وحركياته وأنماط تطوره الخاصة به والمقصورة عليه، والتي يمكن فهمها من خلال إدراك ما يُسمَّى "الخصوصية اليهودية" ومن خلال دراسة ما يُسمَّى "التاريخ اليهودي". المرجع السابق، ص ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٣٤-٢٣٨

(٣) المرجع السابق، ص ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) «أرندا» كلمة بولندية تعني حرفياً «أجرة» تُدفَع مقابل استئجار. وهي، كمصطلح، تُستخدَم للإشارة إلى استئجار ممتلكات ثابتة، مثل الأرض والطواحين والفنادق الصغيرة ومصانع الجعة ومعامل تقطير الكحول، أو إلى امتيازات أو حقوق خاصة مثل تحصيل الجمارك والضرائب. وقد تم تَبَنِّي المصطلح بالمنطوق والمعنى المذكور في اليديشية والعبرية. وكان يُشار إلى المستأجر نفسه، خصوصاً الصغير، على أنه «أرندا»، كما كان يُقال له «الأرنداتور». وكان المصطلح ذائع الانتشار ويصف واحداً من أهم جوانب الاقتصاد البولندي الليتواني في أواخر العصور الوسطى. وقد ارتبط يهود بولندا بنظام الأرندا من بدايته. فهم، كجماعة وظيفية وسيطة عميلة، كانوا مهيأين للاضطلاع بهذا الدور، خصوصاً أن المؤسسة اليهودية الأرثوذكسية أحلت عمليات الإقراض بالربا بين اليهود من خلال التحلّة، وهو ما سهَّل لأي يهودي أن يُمَوِّل يهودياً آخر ويقرضه بربا، الأمر الذي وفر الاعتمادات اللازمة للاستثمارات. وكان الارتباط بين أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وهذا النظام من العمق بحيث أن كلمة «أرنداتور» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي». راجع: المرجع السابق، المجلد الاول: فهرس المصطلحات.

ب"الإقطاع الاستيطاني"، فكانوا يشكلون عنصرًا استيطانيًا يقوم بجمع الضرائب واستغلال الفلاحين الأوكرانيين لصالح طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) وفي حماية القوة العسكرية البولندية. ومع بدايات القرن التاسع عشر، ومع تزايد هيمنة الدولة القومية المركزية، فقد أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية دورهم وتحولوا إلى فائض بشري يهودي بدأ يهدد الأمن الاجتماعي في كثير من دول أوروبا الشرقية، وبدأ يتدفَّق على دول أوربا الغربية والولايات المتحدة فيهدِّد الأمن الاجتماعي فيها أيضًا، أو هكذا تصور كثيرٌ من أعضاء النخبة الحاكمة وأعضاء الجماعات اليهودية المندمجة في المجتمع الغربي(١).

ثالثًا– التطبيق على الحالة الصهيونية:

أ) التسكين على خريطة الجماعات الوظيفية:

تنتمي الدولة الصهيونية إلى نماذج الدول الاستيطانية الوظيفية، ويعتمد هذا النموذج على عنصر سكاني يتم نقله من وطنه الأصلي ليقوم على خدمة مصالح الدولة الإمبريالية الراعية التي أشرفت على عملية النقل السكاني وساهمت في عملية قمع السكان الأصليين (عن طريق الإبادة أو الطرد أو الإرهاب) وضمنت له الاستمرار والبقاء. وتقترح الموسوعة قراءة نموذج الدولة الصهيونية في إطار ثلاث نماذج للجمعات الوظيفية، اثنان منها في التاريخ الحديث، وهما نموذج الجماعات اليهودية في أواكرانيا ونموذج المماليك في مصر، والثالث في التاريخ المعاصر وهو نموذج الجماعة الوظيفية الاستيطانية في جنوب إفريقيا. وهذه النماذج يمكنها تفسير طبيعة علاقة التجمُّع الصهيوني بكل من الإمبريالية (مصدر المال) والدول العربية المجاورة (موضع القتال)، بل يُفسِّر أيضا طبيعة علاقته مع نفسه وسر إصراره على هويته المزعومة وانتمائه الغربي وعزلته الدائمة(٢).

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) راجع المقارنة بين الجيبين الاستيطانيين في إسرائيل وجنوب أفريقيا، المرجع السابق، المجلد السابع، ص ص ٧٠–٧٢.

وتستخدم الموسوعة مصطلح "الدولة المملوكية" لوصف ماهية "الدولة الصهيونية"؛ تشبيها بنموذج المماليك الانكشارية في مصر واضطلاعهم بدور الجماعات الوظيفية القتالية. وترى الموسوعة أن هذا الوصف له قيمة تفسيرية تصنيفية عالية على المستويين التاريخي والبنيوي. أما من الناحية التاريخية، فقد سبقت الإشارة إلى أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية من يهود الأرندا في أوكرانيا (وغيرهم من أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية الأخرى) باعتبارهم "مماليك مالية". وبناء عليه، تذهب الموسوعة إلى أن كل ما أنجزه المشروع الصهيوني هو تجنيد نموذج المماليك المالية تلك ثم نقلهم بمعونة الدول الغربية إلى الشرق العربي، حيث تحولوا إلى مماليك قتالية داخل إطار الدولة الوظيفية. وأصبحت الوظيفة المالية إما ثانوية أو غير مباشرة، فهي دولة وظيفية قتالية يمكن أن نسميها دولة مملوكية(٣).

ب) لماذا وقع الاختيار على اليهود ؟

تتنوع الأسباب التي ساقها المسيري لتفسير لجوء الاستعمار الغربي لاختيار عنصر اليهود ليكون المادة البشرية للدولة الصهيونية الجديدة، فقد نشأت حاجة داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي لتأسيس "جيب استيطاني" قتالي يُشكِّل قاعدة للاستعمار الغربي في فلسطين، وبخاصة مع تَوقُّع سقوط الدولة العثمانية، التي كانت فلسطين تقع في وسطها في مكان يبلغ الغاية في الأهمية من الناحية الاستراتيجية. ويرى المسيري أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مرشحين لأن يلعبوا دور المادة البشرية التي تفي بهذه الحاجة للأسباب التالية(٤):

– النزوع الصهيوني نحو نقل اليهود إلى فلسطين، نزوع متأصل في الحضارة الغربية، إذ أن هذه الحضارة كانت تنظر لليهود باعتبارهم وسيلة لا غاية، وباعتبارهم شعباً عضوياً لا ينتمي للحضارة الغربية.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص ص ٣٠–٣١

-كان اليهود، باعتبارهم شعبًا عضويًا، حسب التصور الغربي، مرتبطين بشكل عضوي بفلسطين. وكانت كل دولة تُصدر وعُودَها البلفورية، كما كان لكل دولة مشروعها الصهيوني الخاص الذي يرى اليهود باعتبارهم المادة البشرية المناسبة. ففكَّر "بسمارك" في توطين اليهود في منطقة حدودية محاذية لخط بغداد-برلين ليصبحوا جماعة وظيفية تصطدم بالسكان وتعتمد على ألمانيا لحمايتها، بل نجد الفاشيين تحت حكم "موسوليني" والنازيين تحت حكم "هتلر" كان لهم أكثر من مشروع. وبطبيعة الحال، كان هناك المشاريع الإنجليزية والفرنسية المختلفة. وقد رفضت أغلبية التشكيلات اليهودية في بداية الأمر فكرة الدولة الوظيفية. ومع تَعثُّر التحديث، طرحت مسألة يهود شرق أوروبا نفسها على أوروبا، وبدأت أعداد من اليهود تفكر في الانتقال. ثم ظهر "هرتزل" الذي طوَّر الخطاب الصهيوني، وقد أفرز هذا في نهاية الأمر المنظمة الصهيونية التي وقَّعت العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم، والذي تم بمقتضاه تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية التي هي إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية التي تحركت في إطاره الجماعات اليهودية في الغرب.

ومن هنا طُرحت الصيغة الصهيونية الأساسية التي تعتمد على فكرة توطين هذه الجماعات في فلسطين كحل للمسألة اليهودية في العالم الغربي يتلاقى في نفس الوقت مع الرغبة في غرس جماعة وظيفية جديدة في العالم العربي. وهذا ما حدث بالفعل حيث قام التشكيل الاستعماري الغربي بجَمَع بعض "المنفيين" (الشتات في تصورهم) الذين هم في واقع الأمر أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية التي فَقَدت وظائفها وتحوّلت إلي فائض بشري، وهي جماعات كانت تضطلع بمهام عديدة من أهمها الأعمال المالية التجارية والربوية في مجتمعات مختلفة. وقد قام هذا التشكيل الاستعماري بنقل أعضاء هذا الفائض إلى فلسطين وتحويله إلى جماعة وظيفية واحدة تأخذ شكل دولة تضطلع بدور أساسي: الاستيطان والقتال. وهو دور يصفه المسيري بـ "الدور المملوكي" -كما ذكرنا آنفا- على اعتبار أن المماليك جماعة وظيفية تم استيرداها إلى الشرق العربي للاضطلاع بدور القتال.

ج) لماذا وقع الاختيار على نموذج الدولة الاستيطانية؟

لماذا لجأت الدول الغربية إلى نموذج الدولة الوظيفية لتحقيق أهدافه دون غيرها من الأشكال الوظيفية التقليدية؟ ولماذا لم تلجأ الدول الغربية إلى فكرة الجماعة الوظيفية المباشرة وهي الأكثر شيوعًا في تاريخ الجماعات الوظيفية؟ لما لم يُوطِّن الاستعمار الغربي اليهود في فلسطين ليقوموا بدور الجماعة الوظيفية القتالية التي تعمل تحت إشرافه ولصالحه بشكل مباشر كما فعل الفرس والهيلينيون من قبل حيث وظفوا الجماعات اليهودية بهذا الشكل؟

يرصد المسيري مركب من الأسباب المفسرة لهذه الظاهرة، ولعل أهمها: طبيعة المجتمعات في العصر الحديث حيث تغلغلت فيها مُثُل الديموقراطية والعدالة الاجتماعية وهي مجتمعات تربطها وسائل الاتصال الحديثة من صحافة وتليفزيون ووسائل مواصلات واتصال، تجعل الاحتفاظ بطبقة منعزلة حضارياً، ومتميِّزة وظيفياً وطبقياً، أمراً عسيراً، بل مستحيلاً. ولكن إذا شكلت هذه الطبقة دولة قومية مستقلة، فيمكنها حينذاك أن تحتفظ بعزلتها وتَمَيُّزها بسهولة ويُسر، كما يمكن تسويغ وجودها وحقها في البقاء باللجوء إلى ديباجة حديثة، ويصبح الاستعمار الاستيطاني "حركة تحرر وطني"، ويتخذ اغتصاب فلسطين اسم إعلان استقلال إسرائيل، ويصبح الدور القتالي دفاعاً مشروعاً عن النفس، وتتخذ قوات الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية اسم "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وتصبح العزلة هي الهوية، وتصبح لغة المحاربين لا التركية أو الشركسية (كما هو الحال مع المماليك) وإنما العبرية، وهي لغة أهم كتب العالم الغربي المقدَّسة. ويعيش أعضاء الجماعة الوظيفية القتالية لا في "جيتو" خاص بهم أو ثكنات عسكرية مقصورة عليهم وإنما داخل الدولة (الشتتل/القلعة)، ويستمرون في تعميق هويتهم

(أي عزلتهم) وفي القتل والقتال نظير المال والمكافآت الاقتصادية وغير الاقتصادية السخية، متخفين خلف أكثر الديباجات رقياً وحداثة. لكل هذا، لجأ العالم الغربي لصيغة الدولة الوظيفية الاستيطانية القتالية (المملوكية) وذلك بدلاً من الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية. وهذا هو الترجمة الدقيقة للشعار الصهيوني: تحويل اليهود من طبقة (أي جماعة وظيفية) إلى أمة (أي دولة وظيفية)[١].

د) لماذا تبدو إسرائيل شبه مستقلة ؟

يلاحظ المسيري عددًا من المفارقات في علاقة الدولة الصهيونية بالدولة الراعية (أمريكا حاليًا)؛ فرغم اعتماد إسرائيل الكلي على الدولة الراعية، إلا أنها لاتزال تحتفظ بقدر من الاستقلال النسبي، وقد يبدو هذا لأول وهلة وكأنه تناقض، ولكنه تناقض مبني على فهم غير دقيق لطبيعة العلاقة بين الاستعمار الاستيطاني الصهيوني والاستعمار الغربي؛ فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني يشكل جزءًا عضويًا لا يتجزأ من الاستعمار الغربي، بل هو مجرد آلة في يد الغرب. ومن الملاحظ أن كل الدول والجيوب الاستيطانية عبر العالم تعتمد على إحدى الدول الغربية، في المراحل الأولية من تطورها. وتحدد مجموعة من الظروف التاريخية والسياسية مدى هذا الاعتماد ومدته والشكل الذي يأخذه: فبعض الجيوب الاستيطانية مثل أنجولا والجزائر تظل منفتحة تمامًا على الوطن الأم، وتحتفظ بروابط قوية بل وعضوية معه، وتستمد إحساسها بهويتها منه، ولذا فإن كل ما يقرره الوطن الأم يكون بمنزلة القانون الذي يجب أن ينفذ. ذلك لأن الجيب الاستيطاني، في هذه الحالة، مهما بلغ من قوة واستقلالية، لا يعدو أن يكون جزءًا عضويًا من الوطن المستعمر. وإذا تعارضت المصالح بين الوطن والجيب الاستيطاني، لسبب أو آخر، وثبت أن الأخير مكلف ومعوق، فإنه يتم تصفيته ويتم إعادة المستوطنين إلى أرضهم الأصلية التي نزحوا عنها، ويتم حسم الصراع لصالح الدولة الأم. ومن ناحية أخرى، توجد بعض الجيوب الاستيطانية التي تحصل على درجة من الحكم الذاتي والاستقلال النسبي عن الدولة الغربية التي ترعاها. ويستولي المستوطنون، إن عاجلًا أو آجلًا، على السلطة، ويقيمون دولة خاصة بهم، مقصورة عليهم، كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة ودولة جنوب أفريقيا العنصرية. وكان المخطط الصهيوني يهدف إلى أن تكوين الدولة الصهيونية الوظيفية من النمط المستقل. وحين سأل الاستعماري البريطاني سير "سيسل روديس" الزعيم الصهيوني "وايزمان" عن سبب اعتراضه على وجود سيطرة فرنسية محضة على الدولة الصهيونية، رد الأخير قائلاً: إن الفرنسيين ليسوا كالإنجليز، إذ أنهم يتدخلون دائمًا في شئون السكان (أي المستوطنين) ويحاولون أن يفرضوا عليهم الروح الفرنسية. وقد قام الصهاينة بطرد الفلسطينيين فعلاً، وأنشأوا دولتهم الصهيونية المستقلة، ولكن التطورات التاريخية أظهرت أن الجيب الصهيوني لا يندرج تحت أي نوع من أنواع الاستيطان المألوفة، فهو يعتمد على قوة غربية عظمى اعتمادًا كاملًا، ولكنه في الوقت نفسه يتمتع بدرجة كبيرة من الاستقلال، ومثل هذا الوضع الشاذ يمكن إرجاعه إلى خصوصية الحالة الصهيونية[٢].

خاتمة:

من خلال ما سبق، يمكننا **تلخيص رؤية المسيري للظاهرة الصهيونية في عدة نقاط مفتاحية سريعة** بعضها يتبلور في شكل انتقادات لما هو سائد من تصورات، والآخر يتبلور في شكل مقولات وفرضيات أكثر تحليلًا وتفسيرًا للظاهرة:

- الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية وما تستخدمه من شعارات ومقولات دينية لا تعدو مجرد ديباجات دعائية لإخفاء طابعها الاستعماري الاستيطاني الأصلي. ويعد مدخل "الجماعة الوظيفية" الأكثر تفسيرًا لماهية هذا

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق،ص ص ٤٩-٥٠.

الكيان وأسباب وجوده، وكذلك هو الأكثر تحديدًا لمعالم أو طريقة زواله، كما أنه الأفيد عمليًا للقضية.

- الدولة الصهيونية ما هي إلا امتداد للتشكيل الاستعماري الغربي، والتزام الغرب نحوها نفعي وظيفي وليس أخلاقيا، ومن ثم لا يمكن فهمها إلا من خلال استيعاب ثوابت ومنطلقات الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، كما لا يمكن الفصل بين مواجهة إسرائيل ومواجهة المصدر الذي يمدها بعناصر ومقومات البقاء، الأمر الذي يجعل من معاداة المصالح الأمريكية والغربية وإلحاق الضرر بها وتفكيكها أحد المحاور المركزية التي يجب أن تتأسس عليها أي استراتيجية عربية مقاومة لإسرائيل.

- استخدام مقولات اليهود واليهودية في الخطاب الإسلامي المعاصر أقل تفسيرًا وأكثر ضررًا لقضية الصراع مع إسرائيل، كما يتناقض مع القيم الكلية الإسلامية في العلاقة مع الآخر وعالمية الرسالة والقواعد الكلية الحاكمة لفلسفة الحرب في الإسلام. ومن ثم، فإن استدعاء خطاب الجهاد ضد الاستعمار بدلا من الجهاد ضد اليهود هو الأكثر تفسيرًا والأكثر اتساقًا مع القيم الإسلامية الكلية. وبالتالي، فإن مدخل "الجماعات الوظيفية" للمسيري في التعامل مع الظاهرة الصهيونية يمنع من وقوع الخطاب العربي والإسلامي في فخ تناقضات أخلاقية.

- وأخيرًا، ثمة تقصير عربي في الاستفادة من الأعمال التي أنجزها المسيري بخصوص الصهيونية (خاصة الموسوعة)، يظهر في مستويين، الأول: يتمثل في انقطاع التحليل التراكمي للظاهرة الصهيونية وتطوراتها المعاصرة من منظور المداخل التفسيرية التي طرحتها الموسوعة، والثاني: يتمثل في العجز عن تحويلها إلى استراتيجيات وسياسات عملية وخطط عمل عربية وإسلامية ضمن مشروع استراتيجي شامل لمقاومة إسرائيل والقوى الاستعمارية الراعية لها.

*****



قراءة في جهد حامد ربيع عن إسرائيل

عبده إبراهيم(*)

مقدمة:

أجمع تلاميذ حامد ربيع ودارسوه على أهمية هزيمة ١٩٦٧ وتأثيرها الكبير على مساره العلمي وإسهامه الفكري؛ فقد كان لها وقع كبير على نفسه، إلا أنه كان واحدًا ممن انفردوا بطريقة تعاملهم معها، فهي لم تجعله ينكفئ على نفسه، بل جعلته يفتش عن أسباب الهزيمة مع حرصه على بث الأمل في استعادة الأرض واسترداد الكرامة[١]، وقد مثَّلت الهزيمة نقطة تحول في حياته، فقد كان كل اهتمامه –قبل هذا التاريخ– ينصبُّ على كيفية التعامل مع السلطة الحاكمة وما يتصل بها من تنظيمات مثل الاتحاد الاشتراكي العربي[٢]، إلا أنه بدأ في أعقابها يهتم بالعالم العربي وبالصراع العربي–الإسرائيلي وكيفية التعامل مع هذا الصراع[٣]، وهكذا فتحت الهزيمة مجالات اهتمام واسعة أمامه. فكتاب "البترول" كانت بدايته محاضرة ألقاها في يناير ١٩٦٨ في بغداد، وكتاب "الدعاية الإسرائيلية" الذي طبع في عام ١٩٧٠ بدأ العمل فيه ١٩٦٨ وتطور عمله إلى النظام السياسي الإسرائيلي، أما كتاب "الدعاية الصهيونية" الذي طبع عام ١٩٧٥ بدأ الكتابة فيه عام ١٩٦٩م مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وتوالت كتاباته المعنية برصد وتحليل وتفكيك هذه القضية، وقد شغله في كل ذلك سؤال مركزي[٤]: ما هو مستقبل الأمة العربية بعد عام ١٩٦٧؟

وفي محاولة إجابته عن هذا السؤال لم ينكفئ على دراسة التأثيرات المباشرة والضيقة لهذه الحرب على المنطقة وإنما اعتبر أن حرب الأيام الستة كانت نقطة الفصل نحو انتقال الولايات المتحدة الأمريكية إلى التمركز في المحيط الهندي وأثر ذلك على الاستراتيجية الأمريكية تجاه آسيا، كما رصد تحوُّل الكيان الصهيوني ليكون ركنًا من أركان الاستراتيجة الشاملة للولايات المتحدة الأمريكية في المحيط الهندي بما يعني ذلك من مساندة لتوسُّع إقليمي معيَّن، ولو على الأقل بتأييد وحماية الأوضاع التي خلقتها الأيام الستة، أي قبل احتواء إسرائيل للأراضي المحتلة وبصفة خاصة الضفة الغربية وغزة والجولان، بل إن أحداث لبنان ١٩٨٢م تدعو للقناعة بأن السياسة الأمريكية قد حسمت هذا الافتراض لصالح الكيان الصهيوني، كما لم يستبعد حامد ربيع لجوء الولايات المتحدة الأمريكية للأوراق الصهيونية في احتلال آبار البترول[٥].

وفي إطار دراسته لهذه الحرب وأثرها على دول المنطقة فقد انتقد حال السياسة العربية في العديد من مؤلفاته مؤكدًا أنه ما كان للكيان الصهيوني ومن يدعمه من القوى الدولية تحقيق ما حققه إلا بسبب السياسة العربية.

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) كمال المنوفي، احتفالية أ. د. حامد ربيع، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، حسن نافعة، وعمرو حمزاوي (محرران)، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٤، ص ١٣.

(٢) عبد الخبير عطا، مقدمات أولية: الأبعاد الحضارية في منهاجية البحث في العلوم السياسية لدى الدكتور حامد ربيع، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) عبد الخبير عطا، مرجع سابق، ص٦٦.

(٤) عمرو كمال حمودة، إسهامات حامد ربيع في مجال الدراسات النفطية، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق، ص٤٨٣.

(٥) نادية مصطفى، قراءة في أعمال د. حامد ربيع في مجال العلاقات الدولية، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق ص٤١٦ – ٤١٨.

فقد أكَّد في أحد مؤلفاته[١] الذي صدر بعد مرور سبعة أعوام على هزيمة يونيو ١٩٦٧م، أن "التخبط والغوغائية لا تزال تسيطر على قياداتنا ولا تزال تتحكَّم فى حركتنا السياسية" ويتساءل "كيف يحدث أن أمة تصاب بمثل هزيمة عام ١٩٦٧ ولا تواجهها بعملية إعادة تشكيل كاملة للنظم السياسية وللقيادات الحاكمة؟ وكيف نستطيع أن نتصوَّر أن هذه الجماعات التى هُزمت ومُرِّغت فى الأوحال والتى فقدت من شبابها الكثير وأكثر من ذلك عرَّضت كيانها القومي وجسدها السياسي للتفتُّت والتمزُّق، وقفت رغم ذلك تعبِّر عن السلبية المطلقة، حتى إنها –وعقب تلك الهزيمة بسبعة أعوام– تتساءل عن مدى إمكانية تغيير النظم السياسية التى قادت إلى تلك الهزيمة؟ إن التاريخ لم يعرف حتى اليوم نموذجًا مماثلًا لهذه السلبية ولهذا الفشل"[٢].

يُعَدُّ اهتمام حامد ربيع بدراسة الكيان الصهيوني القضية المركزية والهم الرئيس والأساس له، لتقاطعها مع دوائر اهتماماته الثلاث (المصرية، والعربية، الإسلامية) من جانب، ولتزامن اشتعال هذه القضية –بوقوع حرب ١٩٦٧– مع تطوُّره الفكري ونضوجه العلمي والعقلي بعد رحلة علمية متميزة وفريدة في معظم الجامعات الكبرى في العالم، حيث حصل على ست درجات دكتوراه، وستة دبلومات ودرجتين علميتين فيما بعد الدكتوراه[٣]، وقد أجاد عدَّة لغات منها الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، واللاتينية، بالإضافة إلى العربية، وقد انعكست هذه الخبرة وتلك الإمكانات في معالجته لهذه القضية من مداخل ثلاثة، وهي: الدراسات الصهيونية، ودراسة المجتمع الإسرائيلي، والصراع العربي الإسرائيلي. وقد استحوذت هذه المداخل على ما يزيد عن ثلث إنتاجه العلمي والفكري الذي تجاوز أكثر من (٤٥ كتابًا)، و٣٥٠ دراسة، بالإضافة إلى آلاف المقالات في معظم الدوريات والصحف العربية والأجنبية[٤]، وفيما يلي استعراض لجهد حامد ربيع في دراسة إسرائيل والكيان الصهيوني من خلال هذه المداخل الثلاثة، وذلك على النحو التالي:

أولًا– اهتمام حامد ربيع بالصهيونية وتشابكاتها:

وضع حامد ربيع اللبنات الأولى والأساسية في بناء نظرية متكاملة الأبعاد لظاهرة الرأي العام من منطلق الوظيفة الاتصالية للدولة المعاصرة في القرن الواحد والعشرين[٥]، حيث ركز في إسهاماته على نموذجين، هما: إعادة تطويع الشخصية الوطنية والقومية والإسلامية من جانب، وتطبيقات الحرب النفسية والتسميم السياسي في المنطقة العربية والصراع مع الكيان الصهيوني[٦] من جانب آخر. وحاول توظيف هذه النظرية في القضية المركزية وهي الصراع مع الكيان الصهيوني، رافعًا رايته "أمتي والعالم" و"أمتي أمة القيم" و"سوف أظل عربيًّا"[٧].

تحدَّث حامد ربيع كثيرًا عن أسباب اهتمامه المبكر بالدولة اليهودية مشيرًا إلى أن ذلك يعود لسببين: الأول– الحاجة إلى بناء فقه سياسي عربي ينطلق من تصوُّر ذاتي للمشكلة اليهودية ولا يقنع بمجرد النقل عن الآخرين، لأن كل ما كتب عنها كان متحيزًا مختلطًا بالحسابات السياسية وهو إما معها أو ضدها، ولأن كلا الفقهين الأنجلوساكسوني والأمريكي تعامل مع المشكلة اليهودية بوصفها مشكلة تتعلَّق بالحريات تارة، وبحقوق الأقليات تارة أخرى، وبحقوق الإنسان تارة ثالثة، أي أنهما تناولاها بمعزل عن الصراع العربي–الإسرائيلي، ويرى ربيع أن خطورة ذلك

(١) حامد ربيع، تأملات فى الصراع العربى الإسرائيلى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، يناير ١٩٧٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) نصر محمد عارف، ثيوروس علم السياسة العربي: منهجية التحليل السياسي عند حامد ربيع . ورقة أولية، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٤) حامد عبد الماجد، في نظرية الرأي العام والاتصال السياسي: دراسة في إسهامات العلامة الراحل حامد ربيع، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق، ص٣٣٦.

(٥) المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٦) المرجع السابق، ص٣٢٦.

(٧) المرجع السابق، ص٣٣٥.

تتمثَّل في أنه يجرِّد الحقيقة العبرية من حقيقتها كظاهرة استيطانية، بل ويحول دون الإلمام بالتطور الذي لحق بمفهوم الاستيطان على يد الكيان الصهيوني، والسبب الثاني– هو الخصوصية التي تميز النظام الإسرائيلي ذاته، وانتقد القصور الأكاديمي العربي والمصري بكل ما يتعلق بإسرائيل(١).

حاول حامد ربيع، جبر هذا القصور بتركيز جزءٍ من جهده الفكري في كشف الرابطة بين العنصرية الصهيونية أو الصهيونية كدعوة عنصرية، وبين الفكر والحركة العنصرية في أوروبا، كما عمد إلى تحليل مصادر النزعة العنصرية المتأصِّلة في الصهيونية وحدَّدها بثلاثة مصادر: التعاليم الدينية، والتاريخ اليهودي، ومجتمع الجيتو(٢)، ورصد حامد ربيع – وكان من الرواد في ذلك– قيام الحركة الصهيونية بنقل واستعادة معظم مقولات وتفسيرات نظرية "تفوق العرق" الجرمانية الألمانية التي تعتبر أن محرك التاريخ أو القوة الفاعلة في السيرورة التاريخية هي الصراع العرقي(٣)، كما انشغل بالبحث المعمق في الدعامتين اليهودية والإسرائيلية وكان من أهم المحاور التي شغلت اهتمامه محور السعي الدائب من قبل الحركة الصهيونية لمخاطبة شرائح الرأي العام بغرض النفاذ إليه، ليس فقط لمحاولة التأثير العميق فيه، ولكن لعزل إن لم يكن لتحطيم شريحة الرأي العام المعادية للدعاية، وبث نوع من التسميم السياسي لديه حتى يشعر بالعجز عن مواجهة أو تفنيد دعاوى الدعاية الصهيونية(٤).

يعرف حامد ربيع الصهيونية بأنها تلك "العقيدة السياسية التي تقوم على أساس دعوة جميع اليهود للعودة إلى الأرض المقدسة لتكوين الدولة الإسرائيلية استجابة إلى الأمر الإلهي الذي فرض على تلك الجماعة أداء وظيفة حضارية في قيادة الإنسانية المعذبة نحو الكمال الروحي"، من هذا التعريف يحدد الخصائص العامة التي تميز الصهيونية كعقيدة ومذهب لا يقتصر على مجرد تفسير القائم أو تبريره، وإنما يسعى إلى ذلك التغيير الذي هو جوهر المذهب السياسي(٥)، ويؤكد أن الحصول على الشرعية السياسية التي تتمركز حول فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يمثل الهدف الرئيسي والثابت في الحركة الصهيونية(٦).

يشير حامد ربيع إلى أنه في أعقاب هزيمة (يونيو) اكتشف الرأي العام العربي فجأة أن أحد أبعاد المخطط الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط هو تشويه الصورة القومية للأمة العربية، فمخططوا المنظمة الصهيونية العالمية ومنذ مراحلها الأولى تنبهوا إلى عملية التوجيه والدعاية منذ تلك اللحظة، ورغم التطورات المتلاحقة التي أصابت الجهاز الصهيوني ظلَّت العملية النفسية المرتبطة بالإثارة والتوجيه تحتل موضعًا نظاميًّا مهمًّا في تشكيل عناصر المؤسسة الصهيونية، ومنذ بداية القرن التاسع عشر كان أحد أهداف الفكر اليهودي –وعن طريق الدعاية المنظمة– هو إزالة الصورة المشوَّهة لليهودي التي سيطرت على الفكر الغربي، على أن هذا لا يعنى أنه من الممكن تحليل الدعاية الإسرائيلية اليوم منفصلة عن المعركة التي تدور في الوطن العربي، الدعاية الإسرائيلية هي عنصر من عناصر المعركة السياسية، ويمكن القول إجمالًا بأن هذه المعركة السياسية تستند إلى دعائم ثلاث: صراع عسكري، تخطيط دعائي منظم، دبلوماسية نشطة(٧).

---

(١) نيفين مسعد، إسهام الدكتور حامد ربيع في مجال السياسة المقارنة، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق، ص٣٤١.

(٢) أحمد ثابت، رؤية حامد ربيع للصهيونية وطبيعة الصراع مع إسرائيل: قراءة في النموذج المنهاجي التفسيري، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، المرجع السابق، ص٤٥٩ – ٤٦١.

(٣) المرجع السابق، ص٤٦٤.

(٤) المرجع السابق، ص٤٧١.

(٥) ــــــــــ، دراسات أساسية حول الصهيونية وإسرائيل: منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي لجيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية (د. ت).

(٦) ــــــــــ، الدعاية الصهيونية: حول تأصيل نظرية التعامل النفسي في التقاليد السياسية اليهودية، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥، ص ٢٥٧.

(٧) حامد ربيع، فلسفة الدعاية الإسرائيلية، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٢.

وقد كان حامد ربيع يرى أن تحليله العلمي للدعاية الإسرائيلية لا تقتصر فائدته على مجرد المعرفة بالعدو ولكن الأهمية أبعد من ذلك وأكثر عمقًا، فالمعركة مع الوجود الإسرائيلي في الأمد الطويل هي أساسًا معركة سياسية وبالتالي معركة دعائية، مما يبرز أهمية السلاح النفسي، وكذلك التحليل الدعائي كأسلوب من أساليب اكتشاف الأوضاع السياسية المرتبطة بالمجتمع المعادي، فعن طريق تحليل المضمون، وهو الأسلوب الذي يجب أن يُتبع في تحليل الدعاية الإسرائيلية؛ يمكن الوصول إلى اكتشاف ما يسمى بالاستراتيجية الدعائية أو Propaganda Strategy، وحيث إن الاستراتيجية الدعائية هي أحد عناصر السياسة الخارجية فإن اكتشافها يساعد في فهم أبعاد السياسة الخارجية، والسياسة الخارجية هي امتداد للسياسة الداخلية ومن ثم فهي تسمح باكتشاف علاقة القوة التي تربط مختلف عناصر المجتمع السياسي، وهكذا يمكن الوصول عن طريق تحليل الدعاية بطريق التدرُّج المتتابع إلى التنبؤ بخصائص الموقف السياسي الذي يسود المجتمع الإسرائيلي من لحظة معينة Situational factor[١].

وخلص حامد ربيع إلى أن الفكر العربي الذي يتعرَّض لتحليل الظاهرة الصهيونية أو لدراسة الوجود الإسرائيلي في أيٍّ من أبعاده النظامية أو الحركية تسيطر عليه ظاهرة الخلط بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية، ويوضح أن اليهودية دين، والصهيونية نموذج حضاري، والإسرائيلية أداة سياسية[٢].

ثانيًا– اهتمام حامد ربيع بدراسة النظام الإسرائيلي:

لقد مثَّلت جهود ربيع في دراسة النظام السياسي الإسرائيلي اجتهادًا مبكرًا لدراسة إسرائيل من الداخل تأسيسًا على أن الصراع العربي–الإسرائيلي هو صراع حضاري ممتد يحتاج إلى التسلُّح في مواجهته بسلاح معرفة الخصم، وقد حرص ربيع في دراسته للمشروع الصهيوني بدولته وفكره وعقيدته على تأكيد أهمية الإطار القيمي الحضاري في تحليل المشكلة اليهودية، ومن إجادة توظيف الأدوات المنهاجية في مقاربتها مقاربة تجمع بين الجديد والقديم، بين القانوني والاجتماعي والنفسي والسلوكي، ومن الانتقال من أسطح الظواهر إلى أعماقها عبر إثارة القضايا الخلافية حول تماسك المجتمع الإسرائيلي وديمقراطيته واشتراكيته وعنصريته[٣]، وقد انطلق في ذلك من محورية دور الأحزاب السياسية، كما اهتم ربيع بتحليل التكوين الطبقي للمجتمع الإسرائيلي واعتبره مصدرًا رئيسيًّا من مصادر تفجير الصراعات الداخلية، كما حرص على دراسة المصادر الخارجية وأهميتها في تحديد اتجاهات السياسة الداخلية الإسرائيلية وأولوياتها والتطور المحتمل في علاقة الدولة العبرية بعناصر المساندة الغربية عمومًا والأوروبية على وجه التحديد[٤]، واعتبر أن وضعه مجتمع العدو تحت مجهر التحليل لاكتشاف عناصر القوة وعناصر الضعف هو جوهر عملية التحليل السياسي كأداة من أدوات التخطيط الاستراتيجي لاكتشاف عناصر القوة لمعرفة كيفية توجيهها، ولمعرفة نواحي الضعف لكيفية استغلالها[٥].

يؤكد حامد ربيع أن الدراسة الحقيقية للظاهرة العبرية في حاجة إلى الكثير من الأسلحة التي يكاد يستحيل توفرها في المجتمع العربي المعاصر بما هو عليه من تخلُّف فكري وعدم قدرة على الارتفاع بأدواته الأكاديمية إلى مستوى ليس فقط المجتمعات المتقدمة بل ومستوى الشعور بمسؤولية وظيفته الكفاحية إزاء القضايا المصيرية التي تطرحها مشكلة الصراع العربي–الإسرائيلي، رغم ذلك فإن جميع هذه

(١) المرجع السابق.

(٢) حامد ربيع، الدعاية الصهيونية: حول تأصيل نظرية التعامل النفسي في التقاليد السياسية اليهودية، مرجع سابق.

(٣) نيفين مسعد، مرجع سبق ذكره، ص٣٦٢ – ٣٦٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٥٨ – ٣٦١.

(٥) حامد ربيع، إطار الحركة السياسية في المجتمع الإسرائيلي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨.

الظروف لا تمنع من ضرورة البدء في سلوك هذا الطريق والذي لا يمكن أن يكون أساسه سوى الجمع بين محورين ثابتين في عملية الإعداد العلمي للخبير المتخصِّص: الوضعية من جانب، والتصور الذاتي من جانب آخر[١]، ويؤكد على أن إسرائيل هى عدو المنطقة وهى مصدر جميع المآسى التى يعيشها الوطن العربى منذ الحرب العالمية الثانية[٢]، كما أن سرَّ قوة إسرائيل هو ضعف خصومها، وأن القوة الحقيقية التي يكمن فيها نجاح الدولة العبرية هو تفكُّك ذلك المجتمع المتعفِّن الذى ظلَّت تضربه بقسوة وتركله باحتقار حتى قدر له أن يحاول أن يقف على قدميه[٣].

كما يرصد ما يميز السياسة القومية الإسرائيلية، ومنها الترابط بين الحاكم والمحكوم، ولو على مستوى الحركة في لحظات التكتل المصيري، وظاهرة التحالفات الحاكمة التي تسمح بها العلاقة الأيديولوجية المتراصَّة حول مفهوم الصهيونية الإسرائيلية، وحكومة الوحدة الوطنية وإمكانيات تحقيقها في لحظات الخطر الذي وصل إلى حد المخاطرة بالكيان القومي، ومبدأ توزيع الأدوار الذي يسيطر على التعامل الخارجي والدولي، والترابط بين الأداة الحاكمة الإسرائيلية والقوى اليهودية والصهيونية[٤].

ثالثًا– اهتمام حامد ربيع بقضية الصراع العربي الإسرائيلي:

يرى حامد ربيع حقيقة الصراع العربي–الإسرائيلي في أن المعركة ليست مجرد اقتطاع جزء من الأرض كما أن التحدي ليس مجرد مشكلة منع العالم العربي من تحقيق وحدته وإنما هي أكثر من ذلك، إنما السعي نحو تفتيت الحضارة العربية والقضاء على أي ذاتية مشتعلة للوجود العربي كمفهوم مجرَّد للسلوك والحياة، إن عملية التسميم المعنوي التي بدأت تشنُّها إسرائيل بدقَّة وصبر ونجاح لا تتَّجه إلى مجرد تفتيت الإرادة القتالية، وإنما تسعى إلى الاستيعاب الكلي والكامل للوجود الحضاري في تلك المنطقة[٥]، وقد حرص على وضع قضية الكيان الصهيوني في قلب المخاطر التي تواجه الأمن القومي العربي الذي اعتبر أنه في جوهره مفهوم عسكري ينبع من خصائص الأوضاع الدفاعية للإقليم القومي، وقد ساهمت الأجواء التي أحاطت بملابسات التوصُّل إلى معاهدة السلام المصرية–الإسرائيلية إلى صياغة رؤيته لنظرية الأمن القومي العربي[٦].

رصد حامد ربيع نزول إسرائيل في المنطقة كعامل منافس في أكثر من ناحية من نواحي الاستغلال للثورة البترولية، مؤكدًا أن مواجهتها في النطاق الدولي لابد أن يكون في إطار تكتُّل معين وتخطيط سياسي يفترض التنافس والتعاون الحقيقي والفعلي بين البلاد العربية، وقد اهتم حامد ربيع بتحليل وتفكيك ثم تركيب الدور الإسرائيلي في بترول المنطقة مع تحليل سياستها البترولية، ورصد كيف استطاعت إسرائيل القيام بغزو شامل للأسواق الأفريقية من خلال تدشينها للصناعات الملحقة على المواد البترولية، وتحدَّث أيضًا عن السياسة البترولية الإسرائيلية ومدى ثقلها بالنسبة للصراع العربي–الإسرائيلي، كما تحدَّث عن البترول العربي كاستراتيجية في تحرير الأرض المحتلة، وقد كان تقديره أنه سيتم الوصول إلى تحويل البترول العربي إلى سلاح سياسي عن طريق كونه أحد أدوات الضغط الاقتصادي في التعامل الخارجي، وقد انتقد التوظيف العربي لهذا السلاح

(١) ـــــــــ، النموذج الإسرائيلي للممارسة السياسية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥.

(٢) ـــــــــ، كيف تفكر إسرائيل والحرب القادمة فى منطقة الشرق الأوسط.

(٣) ـــــــــ، من يحكم في تل أبيب؟ حول تحليل علاقة التماسك في النظام الإسرائيلي ومتغيرات الحركة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص٤٦٣.

(٥) أحمد ثابت، مرجع سبق ذكره، ص٤٥٨.

(٦) أحمد يوسف أحمد، حامد ربيع، رسالة إلى الوطن والأمة في مطلع قرن جديد: تأملات في مساهمته في دراسة الأمن القومي العربي، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، مرجع سبق ذكره ص٣٦٩.

عام ١٩٧٣، مؤكدًا أن السلاح لم يوجَّه للخصم المباشر "إسرائيل" وإنما وُجِّهَ للخصم المساند وهو الولايات المتحدة الأمريكية ويصل في تقديره إلى أن هناك أيدٍ خفية من الجانب العربي أساءت استخدام ورقة البترول فتكسَّرت نصله، لأن الآثار التي ترتَّبت بعد ذلك كانت مخيفة، وهي ازدياد التناقض بين الدول العربية الغنية والدول العربية الفقيرة[١]، وقد كان جوهر كتابه "سلاح البترول والصراع العربي الإسرائيلي" هو سؤال: كيف نستطيع خلق الإرادة العربية الصافية المستقلة في المستقبل القريب بخصوص استخدام البترول كسلاح سياسي؟[٢]

رابعًا– القوى الدولية وموقفها من قضية الصراع العربي–الإسرائيلي:

لم يحدث أن اتفقت جميع مصالح القوى المرتبطة والمتحكمة في منطقة الشرق الأوسط –التي أعدت حوادث ١٩٦٧– على هدف واحد كما حدث خلال تلك الفترة وما أعقبها، فالولايات المتحدة تريد أن تحتفظ بهذا العالم على حالته من التجزئة لتستطيع أن تطمئن على الذهب الأسود الذي أضحى يمثل بالنسبة لها مادة استراتيجية لابد وأن تتحكَّم في أبعاد تخطيطها السياسي بعيد المدى، والاتحاد السوفيتي (روسيا) من جانب آخر يرفض أن يدع الحوادث تخلق في هذه المنطقة قوة قومية جديدة تخرج عن ولايته ولا تنصهر في إطار عقيدته انصهارًا يسمح له بالتحكُّم في أبعاد حركتها المحلية والإقليمية، فهو لا يستطيع أن ينسى خبرته مع الصين ولا يريد أن يجد نفسه وقد أضحى مهدَّدًا من قوة جديدة ذات كيان دولي ووضع استراتيجي معين[٣]، يكمل هذا الوضع الإقليمي المعادي للأمة العربية والإسلامية أزمةُ القانون الدولي والتي في جوهرها تعبير عن حقيقة التناقضات التي تعيشها الأسرة الدولية إذ تتحدَّث بلغة لا تتفق مع حقيقة الممارسة ومضمون التعامل، لغة الشرعية والعدالة هي حديث منمَّق لا يتفق مع الواقع المعاش وهو لغة الغالب ومنطق المجتمع الوحشي، وليس أدل على صدق هذه الحقيقة من أن استعراض تاريخ مشكلة الصراع العربي–الإسرائيلي ومنذ الحرب العالمية الثانية حتى هذه اللحظة، (رغم أن حامد ربيع كان يقصد بهذه اللحظة مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، إلا أنها ما تزال صالحة للاستخدام في بداية العقد الثالث من القرن الحالي). هل صدر قرار دولي قُدِّرَتْ له الفاعلية لمجرد أنه استمدَّ وجوده من الإرادة الشرعية صاحبة الحق في اتخاذ القرار؟ وهل حدث احترام لإرادة دولية لمجرد أنها عبَّرت عن العدالة السياسية بأي معنى من معانيها؟[٤]

وهكذا فإن الصراع العربي–الصهيوني بمختلف أبعاده ومستوياته ليس سوى أحد مظاهر التعبير عن حقيقة التفسُّخات والتقلُّصات التي تعيشها الأسرة الدولية المعاصرة، وهو ما يحتاج إلى نظرية القيم السياسية لتحليله، إلا أن هذه النظرية تتضمَّن في حقيقة الأمر مشاكل ثلاث: التحديد بالقيم التي تمثل جوهر وأهداف الحركة السياسية، ثم اختيار القيمة العليا بمعنى دفع إحدى القيم السياسية لتعلو وتسمو على غيرها من القيم التي تعتبر بالنسبة لها حتمًا تابعة، ثم تشكيل نظام الممارسة تبعًا لمنطلق تلك القيمة العليا بحيث تخلق التجانس بين الفكر والحركة، وبين التصوُّر والممارسة، إلا أنه لا يجب إغفال أزمة القانون الدولي[٥] التي تمَّت الإشارة إليها سابقًا، وانطلاقًا من هذه الرؤية كان حامد ربيع يؤمن إيمانًا كاملًا بأن حل المنازعات الإقليمية لم يعد يستند إلى لغة العدالة أو منطق الشرعية وإنما ينبع فقط من حقيقة واحدة: لغة القوة وأسلوب

---

(١) عمرو كمال حمودة، مرجع سبق ذكره، ص٤٨٨ – ٤٩٩.

(٢) حامد ربيع، سلاح البترول والصراع العربي الإسرائيلي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٤، ص٢١٦.

(٣) ــــــــــ، إطار الحركة السياسية في المجتمع الإسرائيلي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨.

(٤) حامد ربيع، العنصرية الصهيونية ومنطق التعامل السياسي في التقاليد الغربية، دمشق، منشورات الطلائع، طلائع حرب التحرير الشعبية، قوات الصاعقة، ١٩٧٦.

(٥) المرجع السابق.

العنف، وقد يتساءل البعض: هل يعني ذلك أن حل الصراعات الإقليمية لم يعد يقبل منطق التعامل السلمي؟ يوجز القول بتأكيده أن التعامل السلمي ليس له سوى تطبيق واحد: عندما تستطيع القوى المحلية أن تخلق الوفاق بين القوى الكبرى حول الدلالة التي تسعى إليها من منطلق التعامل السلمي، وهذا أيضًا في حقيقة الأمر هو تعبير عن قوة الإرادة وليس منطق العدالة، ولكنها في هذا التطبيق تصير قوة التعامل الدبلوماسي وقد ارتبطت بها ورغمتها قوتين مساندتين: قوة التعامل الاتصالي من جانب، وقوة السيطرة الإقليمية والأداة العسكرية من جانب آخر(١).

خامسًا- موقفه من رد الفعل العربي في قضية الصراع مع الكيان الصهيوني:

رصد حامد ربيع افتقاد السياسة العربية لمعاني وملامح وخصائص الأمن القومي العربي، فهي سياسة غير مخططة تفتقد لأبجديات تخطيط السياسة الداخلية والخارجية كما أنها تفتقر لمفهوم الأمن القومي حيث تخلط ما بين المشاكل المصيرية التي لا تقبل غير أسلوب القوة وغير المصيرية التي يمكن أن تقبل غير ذلك من أساليب، ورَصَدَ ما أسماه بالتدهور المتتالي للسياسة العربية المعاصرة مقارنًا برد فعل المنطقة العربية عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي ورد الفعل عام ١٩٨٢ إبان الغزو الإسرائيلي على لبنان(٢)، وكان يرى أن الوجود الإسرائيلي في المنطقة مشكلة مصيرية لا تقبل إلا القوة ولا يمكن أن تنتهي إلا من خلال العنف الدموي، وأن استخدام أسلوب الاتصال قد يكون مكملًا أو مؤقتًا ولكن لا يمكن أن يكون دائمًا ولا وحيدًا(٣).

كان يرى في اتفاقية كامب ديفيد، أنها تعبير عن أن الجانب العربي لا يزال -وقتها- يعيش في عالم مغلق من السذاجة، متناسيًا أن التعامل الدولي لا يخضع إلا لمنطق الغابة، في مقابل أن أحد عناصر قوة القيادة الحاكمة الإسرائيلية هو وضوح مفهوم الأمن القومي للدولة العبرية لا فقط في كلماته بل وفي جميع جزئياته، العالم العربي الذي يملك أربعة عشر قرنًا من الخبرة السياسية لم يستطع بعد أن يبلور عناصر ومقاطع محددة وواضحة لأمنه القومي. وهنا يبرز مرة أخرى مدى تقاعس الفكر السياسي عن أدائه لوظيفته، ومن وجهة نظره فإن من أسباب الانفصام بين الفكر والحركة في الواقع العربي: اختفاء التقاليد القومية - وعدم وجود مراكز معلومات عربية - وعدم احترام العلماء(٤)، ورغم أن هذه الاتفاقيات لا تعدو أن تكون تعاملاً بين مصر وإسرائيل إلا أنها تعبير عن مرحلة حاسمة من مراحل التطور للصراع العربي-الصهيوني، بهذا المعنى هي خاتمة لمراحل سابقة وبداية لمرحلة جديدة، وعلى المحلل السياسي ألا ينسى في فهمه لتلك الاتفاقية أنها تدخل في نطاق التصورات الصهيونية، حيث مفهوم إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات هو المحور الثابت لتقاليد اليهودية السياسية(٥).

اعتبر حامد ربيع أن كتابه "الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي" دعوة إلى القتال، مؤكدًا أنه ليس رفعًا لراية التحدِّي ضد أذناب الاستعمار، ولكن رفع راية التحدِّي ضدَّ الحكام والمسؤولين، مشيرًا إلى أن مصادر التغير والتغيير لابد من أن تتعامل وتتفاعل في إطار واحد من التأثير والتأثُّر والتكتُّل الإرادي: القيادة، الوعي الجماعي، الطبقة المثقَّفة، وأن الأخيرة هي التي تخلق علاقة الترابط بين الوعي الجماعي والقيادة، ويعرف الثقافة بأنها هي الحضارة وكلاهما إنما يتبع من نظام القيم، وهنا تبرز وظيفة الطبقة المثقَّفة، إن هذه الطبقة التي لم تؤدِّ وظيفتَها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أحمد يوسف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص٣٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص٣٨٨ - ٣٨٩.

(٤) حامد ربيع، اتفاقيات كامب ديفيد، قصة الحوار بين الثعلب والذئب، دمشق، منشورات الطلائع، منظمة طلائع حرب التحرير الشعبية، قوات الصاعقة، ١٩٧٩.

(٥) المرجع السابق.

الحقيقية طيلة أكثر من قرن كامل من الزمان آنَ لها أن تعرف مسؤولياتها التاريخية[(١)].

توصَّل ربيع إلى أن إسرائيل ليست هي الخطر الوحيد على العالم العربي، وإنما دُوَلُهُ خطيرةٌ عليه أيضا، وذلك بقوله: إذا كانت إسرائيل تشل القلب فإن القوى الجاذبة الجانبية تشد القوى الموجودة خارج دائرة القلب وهكذا تمنع المساندة، وأشار للعديد من النماذج في المنطقة العربية، وانطلاقا من ذلك كان يرى أن وظائف الفكر العربي يجب أن تتمثَّل في: أولاً- تبصير القيادات الحاكمة بخفايا الحقائق التي لا تملك تلك القيادات القدرة أو الصلاحية للمعرفة بها. فلم تعد السياسة الدولية صنعة الهواة، وثانيًا- بناء خطط التعامل مع الموقف، وثالثًا- تذكير الضمير الجامعي بضرورة الحذر والاستعداد لجميع الاحتمالات إزاء الأوضاع التي سوف تواجهها الأمة العربية، ورابعًا- الفكر السياسي العربي سوف يكون الأداة الوحيدة لخلق الترابط الجماعي والوعي المتكامل بالوحدة وقد تحطَّمت عناصر التجانس والتناسق في الحركة بين القيادات العربية[(٢)] وذلك للخروج من الوضع الحالي -في زمنه ولا يزال- لملامح السياسة العربية التي وصفها بأنها غير مخططة، وهي سياسة متخلفة، ولا تفهم مبدأ توزيع الأدوار، ولا تزال تعيش في عقدة الخوف من المستعمر الأجنبي، وتعاني من انفصام فعلي بين المشرق العربي والمغرب العربي وقد ترتب على هذه الأوضاع المختلفة أن السياسة العربية في تعاملها الدولي وبغض النظر عن المبادئ التي تسيطر على القيادات العربية أنها -أي هذه السياسة العربية- تسير دائمًا في مسالك أربعة ما كان يمكن أن تقود إلا إلى الفشل السريع: الإلقاء بالثقل على جانب واحد في التحرُّك الدولي، جعل التحرُّك من المنطق الرسمي دون فهم أو الاهتمام بالتعامل غير الرسمي، جعل مفهوم التعامل يدور حول عملية المساومة بالإعطاء دون الأخذ، سياسة الصوت الواحد[(٣)].

بالإضافة إلى انتقاده للسياسة العربية والفكر العربي والقيادة العربية لم يستثن الباحثَ العربيَّ من النقد، فقد أشار إلى هؤلاء الذين سقطوا في فخ الاستلاب الغربي والاستسلام للنظريات والرؤى الجاهزة التي لا تعبر عن المجتمع ولا القيم ولا الفكر ولا حتى مناصرة القضية العربية ولو شكليًّا، ومن ثم فقد أعطى مساحة كبيرة في حديثه عن موضوعات إسرائيل الثلاثة (الصهيونية، إسرائيل من الداخل، الصراع العربي-الإسرائيلي) لوظيفة المحلل السياسي بتأكيده على أن وظيفة المحلل السياسى التى ترتفع عندما يقدر له أن يتعامل ولو من منطلق الفكر المجرَّد مع عملية إدارة الصراع القومى، العامل الأول- يتعين على خبير السلطة المتخصص فى الثقافة السياسية أن يحدِّدَ تلك الخفايا والتى قد تخفى على الرجل العادي وأن يحيلها إلى متغيرات كل منها له موضعه من التطور العام المرتبط بالموقف موضع التعامل الحركي، العامل الثاني- يرجع إلى أحد خصائص الطابع القومي العربي، لقد تميز العربي في تاريخه الطويل ببلاغة الكلمة، ولكن هذه القدرة سلاح ذو حدين: إنها تزيد من قوة القويِّ بخلق القناعة والاستسلام من الطرف الآخر، ولكنها أيضا تزيد من ضعف الضعيف لأنها تخلق مسالك التبرير والتفسير للأوضاع المتعفنة، إن أي باحث يتتبَّع مشكلة الشرق الأوسط ويربطها بمجريات الأمور ومواقف صانع القرار وردود فعل الجماهير لا يملك إلا أن يتساءل: لماذا يبدو العالم العربي، قيادات وشعوبًا، صحافة وعلماء، مأخوذًا إزاء الأحداث وقد صدمته المفاجأة بين غير مصدق ومكذب، وما إن تقع الأحداث إلا وتتوالى

---

(١) حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي: نحو بناء نظرية سياسية عربية، القاهرة، دار الموقف العربي، ١٩٧٥.

(٢) ــــــــ، اتفاقيات كامب ديفيد، قصة الحوار بين الثعلب والذئب، مرجع سبق ذكره، ١٩٧٩.

(٣) المرجع السابق.

الانفعالات حيث تسيطر المبالغة والمهاترة دون النظرة المتأنية الهادئة(١).

ومن هنا تبرز وظيفة المحلِّل السياسي، إن كفاحية التحليل السياسي لا تصير حقيقة تبرز واضحة إلا عندما يشعر عالم السياسة بأن عليه أن يضع علمه وخبرته في عملية تشريح القوى السياسية وإبراز مواضع قوتها ومواضع ضعفها، وهكذا يرى أن ما قام به في دراسة إسرائيل من خلال المداخل الثلاثة أمر طبيعي لاكتشاف حقيقة القوة للحصول عليها من خلال تلك المعالجة التى تسمح بشلِّ مواطن الصلابة، وإبراز ملامح الضعف لفتحها أمام عملية التسلُّل فى جزئيَّات ذلك الجسد تمهيدًا لامتصاصه، كما وظَّف موقفَه من وظيفة المحلل السياسي في العالم العربي ليبحث موضوعًا أكثر أهمية، وهو: هل هناك سياسة عربية؟ بمعنى هل هناك حد أدنى من قواعد التعامل مع مشكلة الشرق الأوسط تتفق حولها القوى المسؤولة بحيث يمكن أن تستخلص منه حدًّا أدنى ولو في أبسط مفاهيمه لتشكِّل إطارًا عربيًّا للتعامل مع مشاكل المنطقة، ويطرح تساؤلا آخر: لماذا لا يساهم الفكر السياسي في مسؤوليته بخصوص وضع هذا الإطار العام للسياسة العربية المتجانسة؟ أليست السياسة حركة وهل يمكن للحركة أن توجد دون إطار متكامل من المدركات للتعامل مع الوقائع؟ ولماذا تعوَّد العالم العربي أنه يفاجأ بالأحداث، قيادة ومحكومين؟(٢)

وهكذا يعلن حامد ربيع الخلاصة في معالجته لهذا الملف من خلال كفاحيته في التحليل والفكر بأن الدولة العبرية هى سرطان قد زرعته يد أجنبية في قلب الوطن العربي ولابد من استئصاله، بالإضافة إلى أن النظام السياسي الإسرائيلي قد أثبت قوة وأثبت ضعفًا من خلال: الأولى- القوة، أبرزتها هزائم عام ١٩٦٧، والثانية- الضعف، قدَّمتها معارك وانتصارات عام ١٩٧٣، فلنتعلَّم من خلال الأولى كيف نتابع الخبرة التى قدَّمتها لنا انتصارات أكتوبر فى الأعوام القادمة(٣).

خاتمة:

يمكن القول إن النقلات النوعية في حياة حامد ربيع بدأت من الاهتمام بالدائرة المصرية قبل عام ١٩٦٧ إلى الدائرة العربية بعد عام ١٩٦٧ ثم إلى الدائرة الإسلامية بعد عام ١٩٧٥(٤)، ويكشف الإنتاج الفكري والمعرفي لحامد ربيع قدرته على إبداع نموذج تحليلي يقدِّم رؤى متكاملة للتفسير والتحليل، وهو ما يجعل البعض يصفه بالعالم الموسوعي وآخرون اعتبروه بالمفكر الملتزم بقضايا أمَّته المصرية والعربية والإسلامية، وقد استطاع حامد ربيع أن يقدِّم هذه الرؤية من خلال دقَّته العلمية وقدرته على صياغة مصطلحاته ومفاهيمه، وإمكاناته العقلية جعلته قادرًا على البحث باستمرار وعدم الوقوف على سطح الظاهرة بل الغوص الخلاق ليس فقط من أجل الحفر المعرفي وليس فقط تعمُّق الإيمان بالانتماء لقضايا الأمَّة المحورية، وإنما في إطار بحثه عن صياغة رؤية كلية شاملة عن منهاجية تفسيرية خلَّاقة لا تقع تحت مُسلَّمات النظريات التحليلية الغربية(٥).

كما أن معظم ما كتبه حامد ربيع من مقولات وأفكار وخلاصات ثبت -وما تزال- صحتها ودقتها بشأن قضايا الصهيونية والعنصرية والكيان الصهيوني والدعاية الصهيونية أو الإسرائيلية ولديناميات الحضارة المجتمعية المحرِّكة لأطراف الصراع -عربًا وصهاينةً وقوى خارجية- ومع أنه كان مدركًا للفروق إلا أنه كان مدركًا أكثر للارتباط بينها(٦)، وهو أمر محل اتفاق معظم تلامذته ودارسيه، وهو

---

(١) حامد ربيع، الصهيونية: بين الواقع الإقليمي والمتغيرات الدولية: نص المحاضرات التي ألقيت على طلبة قسم الدراسات العليا، بجامعة بغداد - كلية القانون والسياسة فى إبريل/مايو ١٩٧٩.

(٢) ـــــــــــ، اتفاقيات كامب ديفيد، قصة الحوار بين الثعلب والذئب، مرجع سبق ذكره.

(٣) ـــــــــــ، من يحكم في تل أبيب؟ حول تحليل علاقة التماسك في النظام الإسرائيلي ومتغيرات الحركة السياسية في منطقة الشرق الأوسط، مرجع سابق.

(٤) عبد الخبير عطا، مرجع سبق ذكره، ص٦٧.

(٥) أحمد ثابت، مرجع سابق، ص٤١٦ - ٤١٨.

(٦) المرجع السابق، ص٤٤٤.

لم يتعامل مع علم السياسة تعاملًا فنيًّا وظيفيًّا بل على العكس تمامًا فقد وظَّف كلَّ أدوات العلم وكل قيم الموضوعية والحياد العاطفي، من أجل وصف الظواهر وكشفِها من أجل غايةٍ أسمى لديه، لأنه يؤمن أن علم السياسة هو علم الفاعلية الحركية لتحقيق الصالح العام، ولا يمكن أن يكون هناك علم سياسة طبقًا لحامد ربيع، إلا إذا كانت له وظيفة حركية تتعلَّق بمستقبل الأمة وتحقيق مصالحها، فقد أدرك حامد ربيع وظيفة العلم الحقيقية واستوعب قيم الحياد والموضوعية التي تتعلق بتطبيق أقصى درجات الحياد العاطفي والقيمي عند وصف الظواهر وعند تحليلها وتفسيرها، ولكن عند استخلاص النتائج التي تترتَّب عليها حركة، فإن الحياد في ذاته يعني موقفا لأنه يرادف السلبية، وهي موقف، فلا يمكن أن يكون هناك حياد في عملية التفسير أو التنبؤ أو توظيف العلم لإصلاح المجتمع أو رسم مستقبله، فالعلم طبقًا لحامد ربيع وظيفة حضارية لابد من إدراك مدى خطورتها في مستقبل الأمم، ومن هنا فقد كان يرى أنه القاطرة التي تقود الأمم إمَّا إلى النهوض والمستقبل أو إلى الركود والتراجع[1].

وقد ساهم ذلك في بلورة رؤيته للعالم التي تنساح في جنبات نصوصه[2]، الممزوجة بكفاحيته المشهودة، وإدراكه لهموم أمته وانشغاله بها بالصورة التي هيمنت عليه في اهتماماته وكتاباته وأفكاره وإنتاجه العلمي والأكاديمي وما واكب ذلك من رحلة علمية وفكرية وعملية حيث زار وعمل في معظم دول العالم العربي الأمر الذي يتحقق فيه وصف أستاذنا الدكتور سيف الدين عبد الفتاح له بأنه "العالم الأمة" وكان يراه في الجماعة العلمية "العالم القطب"، ويراه أيضا "العالم الذي كوَّن مدرسة بحق وجب أن تُسَمَّى باسمه "المدرسة الربيعية" كما أن حامد ربيع لا بد أن يتحوَّل إلى مؤسسة بأفكاره وإنتاجه الفكري والبحثي[3].

*****

(١) نصر محمد عارف، مرجع سبق ذكره، ص١٤٧.

(٢) سيف الدين عبدالفتاح، إسهامات حامد ربيع في دراسة التراث السياسي الإسلامي، (في) تراث ربيع بين كفاحية العالم ومقتضيات المنهج، مرجع سبق ذكره، ص١٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٩.



القضية الفلسطينية في فكر إدورد سعيد

محمد كمال[١]

مقدمة

في حوار لإدورد سعيد مع القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، أجاب سؤال محاوره المتمكن عن المصداقية التى نالها فى الدوائر الغربية، فقال: كنت أتقن تاريخنا... أعرف ماذا حدث بالضبط.... ابن القضية وتعلَّمت... لا يكفي أن تكون ابن القضية بل يجب أن تكون تلميذها"[٢]، وقد كان ابنًا بارًّا للقضية الفلسطينية وتلميذًا نجيبًا لها فصار صوتها القوى، وضميرها النقدي، وسفيرها المعتمد على مستوى الفكر العالمي.

تمثل القضية الفلسطينة الشغل الشغل لإدوار سعيد –المولود في القدس وللمفارقة على يد قابلة يهودية استأمنتها الأسر المسيحية والمسلمة على نسائها الحوامل وما يلدنه– ومع ذلك لم تلق الاهتمام الكافي من دارسي فكر إدورد سعيد الغربيين لأسباب مفهومة. وقد يفاجأ البعض أن أول أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، هي دراسة لسعيد بعنوان "القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي" صدرت عام ١٩٨٠، ذهب فيها مبكرًا إلى أن ساحة كفاح القضية الفلسطينية في أمريكا هى المجتمع المدني لا المجتمع السياسي، وهو ما أثبتت الأيام صحته ودقَّته، كما عمل باحثًا زائرا فى مؤسسة الدراسات الفلسطينية لشهرين في بيروت عام ١٩٧٩.

إن سيرة ومسيرة إداورد سعيد مضفورة بالقضية الفلسطينية، ومهما اختلفنا في الأسس المعرفية والوجودية لرؤية سعيد لهذه القضية والحلول التى طرحها لها، ومهما اتفقنا مع معظم مواقفه السياسية وتقديرنا لها في تعاملها مع القيادات الفلسطسنية التى رأى أنها فرَّطت فى فلسطين، فإن الأمر الذي نخرج به من سيرته هو أنه أسهم بقوة وذكاء وبلاغة في صياغة عميقة وتأسيس نظري متماسك الأركان لبديهية يتناساها كثيرون من اليسار واليمين، وهى أن الصراعات الكبري والنزاعات الممتدة تعود جذورها وأصولها إلى الفكر والثقافة. نعم، "الأصول" مع معرفتنا أن سعيد يميِّز –ويفضل– البداية عن الأصل: الأولى علمانية ومُنتَجة على نحو إنساني مستديم خاضع للفحص والتدقيق، والثاني مقدَّس وأسطوري وثابت بحسب ما يرى.

يتناول هذا التقرير مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينة وخدمتها، ومسيرة حياته وموقفه الكلي منها، وما تميَّز به من كونه مثقفًا مسؤولا متسقًا فكره وفعله، مقاله وحاله، مع رصد لأهم ملامح فكره بخصوص القضية الفلسطينية، وهي: النقد الذاتي، والمشترك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، ومعضلة الجغرافيا والديموجرافيا، ويختتم التقرير بعرض ماذا يبقى من فكر إدورد سعيد، وسيرته للأجيال القادمة.

أولًا– مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينة وخدمتها:

اعتبره الشاعر الفلسطيني محمود درويش "ضميرنا وسفيرنا إلى الوعي الإنساني" ويؤكد "لو سُئل الفلسطيني عمَّا يتباهى به أمام العالم، لأجاب على الفور: إدورد سعيد، فلم ينجب التاريخ الثقافي الفلسطيني عبقرية تضاهي إدورد المتعدِّد المتفرِّد، ومن الآن (أي وفاته) وحتى إشعار آخر بعيد، سيكون له الدور الرياديُّ الأول في نقل اسم بلاده الأصلية من المستوى السياسي الدارج إلى: الوعي الثقافي العالمي. لقد أنجَبتهُ فلسطين، ولكنه –بوفائه لقيم

(١) باحث في العلوم السياسية
(٢) الحوار متاح على الرابط: https://goo.gl/G٦٢nt٣

العدالة المهدورة على أرضها، وبدفاعه عن حق أبنائها في الحياة والحرية– أصبح أحد الآباء الرمزيين لفلسطين الجديدة، إن منظوره إلى الصراع الدائر فيها هو منظور ثقافي وأخلاقي لا يبرّر فقط حقَّ الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال، بل ينظر إليه باعتباره واجبًا وطنيًّا وإنسانيًّا أيضًا".

ويقول عنه جلال أمين: "لا أعرف رجلًا أو امرأة كسب لقضية الفلسطينيين عطف المثقفين في مختلف أنحاء العالم الذين يتكلمون ويقرأون بمختلف اللغات، أكثر مما كسبه إدورد سعيد لهذه القضية".

ويرى فيصل دراج أن إدورد سعيد أعطى في مساره "درسًا نموذجيًّا في "الهُجنة الخصيبة"، فقد كان أميركيًّا يدافع عن القضية الفلسطينية، وكان فلسطينيًّا يندِّدُ بالسياسة الصهيونية، وكان ذلك الفلسطيني الأميركي الذي ينقد "المؤسسة العرفاتية" (إشارة إلى ياسر عرفات) ويرى فيها شرًّا وبيلًا يهدِّد الحق الفلسطيني".

احتفظ سعيد بموقف منهجي معرفي مسؤول من القضية الفلسطينية مؤكِّدًا على الوظيفة السياسية للثقافة "إدورد سعيد من قلة استعادت، بإصرار وبوعي عميق، واجتراح، وتجذر، الوظيفة السياسية للثقافة والإبداع والكتابة، من دون أن يقع، حتى في أكثر المراحل سخونة وانفعالًا وعاطفية وذاتية، لا في المباشرة، ولا في التبسيط، ولا في الخطاب التعبوي الآني، أو الدوغمائية المغلقة أو الدعائية الضيقة. كان لنضاله أفق. بل كانت كل الآفاق المشرعة على المعاصرة في خدمة نضاله: من الفكر الذي رفض أن يكون مرتبطًا بما يسمَّى "ما بعد الحداثة" بمضونه العدمي أو التدميري، أو المفرّغ من القيم والحقائق الكبرى، إلى السياسة التي جعل التزامه فيها التزامًا بالقضية الفلسطينية وبكل القضايا العالمية، والشعوب الخاضعة للكولونيالية، ومطامحها وآلياتها المتوحِّشة وجنونها"[(١)].

ثانيًا– حياته وموقفه الكلي من فلسطين:

ولد إدورد سعيد في الأول من نوفمبر ١٩٣٥ في القدس من والدة بروتستانتية تنتمي إلى عائلة ميسورة وتاجر فلسطيني مسيحي ثري حصل على الجنسية الأمريكية، وقد توفي الكاتب الكبير يوم الخميس الخامس والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٣ بعد صراع طويل مع مرض سرطان الدم – لوكيميا– الذي أصابه لمدة عشر سنوات وأوهن جسمه، لكنه لم يوهن عقله وإرادته وظل حتى وفاته يكتب ويقاوم كعادته التي عُرف بها كاتبا يتقدَّم الصفوف الأولى.

وصل إلى القاهرة مع أسرته في العام ١٩٤٧ ثم توجَّه في سن السابعة عشرة إلى الولايات المتحدة ليتابع تحصيله العلمي. وتخرج أولًا في جامعة برينستون، ثم حصل على شهادة دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة هارفرد، وفي ١٩٦٣ بدأ التدريس في جامعة كولومبيا في نيويورك.

بعد هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ انصرف إلى العمل على شرح قضية شعبه في الولايات المتحدة، وقد خاض مرَّات عدَّة مواجهات مع القيادة الفلسطينية، وأصبح إدورد سعيد عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني في ١٩٧٧ وحاول عبثًا إقناع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بأهمية الجاليات الفلسطينية المنتشرة في أنحاء العالم.

وصدر أبرز كتبه "الاستشراق" في العام ١٩٧٨، وقد تُرجم إلى ٢٦ لغة، واعتبارًا من ١٩٧٩ بدأ ينتقد أسلوب منظمة التحرير والدول العربية في التعامل مع القضية الفلسطينية، وظهر ذلك جليًّا في كتابه "مسألة فلسطين"، وقد صدرت له العديد من الكتب التي تناولت النزاع في الشرق الأوسط.

---

(١) هذه الشهادت متاحة على الرابط التالي:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?article١٠٣٦.

في ١٩٩١ استقال من المجلس الوطني الفلسطيني بسبب معارضته الشديدة لياسر عرفات وانتقاده له بسبب سعيه التقرب من "إسرائيل"، إلا أنه واصل النضال وبدأ يطالب منذ العام ١٩٩٤ باستقالة عرفات الذي وصفه بـ "بيتان الإسرائيليين" (نسبة إلى المارشال هنري بيتان الفرنسي الذي تعاون مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية). واعتبر سعيد أن عرفات وافق –من خلال اتفاقات أوسلو "١٩٩٣"– على التبرؤ من التاريخ الفلسطيني، وقد وصف اتفاقات أوسلو بين "إسرائيل" والفلسطينيين بأنها "أداة استسلام العرب" في وجه الدولة العبرية والولايات المتحدة، وبعد أن استقال إدورد سعيد من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩١٩، اشتدت مناهضته لما يسمَّى عملية السلام، وظل يمثل أحد الأصوات الهامة للمقاومة وسط جو يملؤه اليأس[١].

ثالثًا– المثقف المسؤول المتَّسِق

مسؤولية المثقف لدى إدورد سعيد تتمثل في: مواجهة الكاذبين الأقوياء بالحقيقة وعرض أكاذيبهم للتمحيص العام، وهي مسؤولية تستوجب ثمنًا غاليًا وقد تعرِّض حياته للخطر، وقد دفع سعيد الثمن، وهو الرجل الذي سمَّاه الصهاينة في مجلتهم النيويوركية Commentary في أغسطس ١٩٨٩ "أستاذ الإرهاب"، وهدَّدَ الصهاينةُ المتطرفون عائلتَه في فلسطين، ووضعته الرابطة الصهيونية على لائحة كبار المروِّجين للتأييد العربي في صفوف الطلاب والأساتذة الجامعيين في الولايات المتحدة الأمريكية، في بعض الأحيان كانت حياته عرضة للتهديد من مجموعات عنيفة، وكانت تلك التهديدات جدية إلى حد أن «إف. بي. آي» كانت تحذِّره بأن عليه أن يكون متنبهًا[٢].

العلمانية لدى إدورد سعيد –وهو يصف نفسه بأنه علماني متشدد– في عمله الأخير الذى نُشر بعد وفاته بعنوان "عن الأسلوب المتأخر"[٣] هي الحل للمسألة الفلسطينية على المستوى المعرفي والوجودي والفكرى والمستوى السياسي، فعلى المستوى المعرفي والوجودي يكتب تعليقًا على تمييز الفيلسوف الإيطالي فيكو بين الأممي واليهودي "أن تكون أمميًّا غير يهودي يعنى أن تخرج من الزمن المقدس والسرديات المقدسة، وأن تعيش بشكل دائم في التاريخ وبنظام غير نظام الله"[٤]، وعلى المستوى السياسي فإن الدولة الفلسطينة العلمانية الديمقراطية هى الحل للقضية الفلسطينية.

طالب سعيد دومًا بنزعة أنسنية ما بعد أوروبية عابرة للقارات، نزعة أنسنية تؤمن بالفعل الإنساني وتدين الإقصاء مع انفتاح شامل على منابع المعرفة الإنسانية... مفكر مرتحل بين عوالم المعرفة، مثقف يقاوم من داخل الحقل الأكاديمي الغربي بفكر نقدي وثوري لتكسير صنمية الآراء المسبقة[٥].

يرى وليام هارت أن الدين يجعل مشروع سعيد أكثر قابلية للفهم والإدراك، خصوصًا إشاراته المبعثرة –لكن المستمرة– إلى الدين، وهذا يسلط الضوء على معاني العلمانية وتعقيداتها الجمَّة، التى لم يعمل سعيد على تفسيرها البتة[٦]، فالدين كما يرى هارت "يعود أحيانًا وفي الأماكن غير المتوقعة بتاتًا"[٧] ومن ضمنها مشروع إدورد سعيد الفكري.

(١) المصدر السابق

(٢) إدورد سعيد.. مفكر عبر الحدود لتفسير العالم، متاح على الرابط التالى: https://goo.gl/fxz٤wS

(٣) إدورد سعيد، عن الأسلوب المتأخر: موسيقى وأدب عكس التيار، ترجمة: فواز طرابلسي، (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٥)، ص ٣٤.

(٧) Edward W.Said, Beginnings: Intention and Method, Basic books, New York,١٩٧٥, pp. ٣٤٩ – ٣٥٠.

(٥) https://goo.gl/MdQ٣qP

(٦) وليام د. هارت، "إدورد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة"، ترجمة: د. قصي أنور الذبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١١.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

ويواصل وليام هارت عرض وجهة نظر مفادها إمكانية التعايش بين العلمانية والتدين قائلًا: يمكن للمرء أن يكون متدينًا كليًّا وعلمانيًّا، أو علمانيًّا كليًّا ومتدينًا، وتعنى العلمانية عدم الاعتراف السياسي بالكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية والتقاليد، وتشير في بعض الأحيان إلى نقد المعتقدات الدينية التقليدية مثل الرواية الإنجليزية لمعركة أريحا التي وقفت الشمس ثابتة خلالها[١].

رابعًا– ملامح فكر إدورد سعيد في القضية الفلسطينية

من أهم محددات فكر إدورد سعيد فى النظر للقضية الفلسطينية النقد الذاتي للمشترك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، معضلة الجغرافيا والديموجرافيا.

١– النقد الذاتي

كعادة المثقف المسؤول يناضل على أكثر من جبهة ضد العدو الخارجي وأعوانه من المستبدين والفاسدين "كان سعيد من أقوى المناهضين للخطاب الصهيوني الأمريكي، لكنه كان مع ذلك من أشدِّ دعاة النقد الفلسطيني الذاتى، فلم يتردَّد عن الجهر بمطاوي الخلل المتفشِّي فى السلطة الفلسطينية، القائمة على السلطوية والقمع والفساد، وكان من أبرز منتقدى دكتاتورية الرئيس ياسر عرفات، ومقولة "ليس ثمة بديل آخر له"، و"جوقة المنتفعين المتحلِّقين من حوله"، التي وجد فيها بعضًا من "سمات المافيا" التى تستبعد ذوي الكفاءة والشرف لصالح دائرةٍ ضيقة من العملاء المُختَرَقين من قِبل الموساد والمخابرات الأمريكية، ومن الانتهازيين المنشغلين بعقد مختلف الصفقات التجارية على حساب الشعب الفلسطيني المعذَّب[٢].

وقد بذل إدورد سعيد غاية جهده "فى بيان دور المثقف فى مواجهة السلطة فى أزمنة الهزائم المتلاحقة"، فهو يقول: "تزداد أهمية الدور الذى يلعبه النقد والتذكير بالنواقص فى غياب نظام قانوني ودستوري متكامل، ولا يصح هذا الأمر فى حالة غزة والضفة الغربية فحسب، بل ينطبق على أي مكان في العالم العربي، فالنقد يرفع من مستوى الوعي ويعيد ارتباط القادة بشعوبهم، كما أن نقد السلطة واجب أخلاقي، إذ إن التزام الصمت أو الاكتفاء باللامبالاة أو الانصياع للسلطة الباغية كلها أمور تنمُّ عن انعدام الحسِّ الأخلاقي، إن شيئًا من النقد الذاتي كان كافيًا للوصول لدرجة من الصدق مع الذات، ولدرء كثير من الهزائم العربية التى ساقتنا إليها خطانا بعد أوسلو وقبلها"[٣].

ومن هذه الانتقادات ما ذكره بخصوص اتفاقية أوسلو "في أكثر من موضع، قرأتُ أن الكراسي المصفوفة في حديقة البيت الأبيض –يوم توقيع اتفاقية أوسلو– كانت من ذلك النوع الذى يمكن طيه وإزاحته بعد انقضاء المناسبة، لكن المؤسف هو ما تبدَّى عبر كل تلك الأعوام المنصرمة، من أن الاتفاقية بأسرها كانت هي أيضًا من ذلك النوع الذى يسهل طيُّه كطي السجل ليُقذف فى سلة المهملات، فلقد ذهب الذاهبون إلى أوسلو وهم يعلمون أنها لا تمثل معاهدة سلام، بل محض إطار لبيان ترتيبات سلطة عاجزة مؤقتة، وقناةٍ لتسهيل مفاوضات صورية كاذبة، ذهب الذاهبون وهم يعلمون أن الأمر لا يعدو أكثر من تمثيلية، وألا حديثَ سيكون عن أي من المشكلات الصعبة: القدس والاستيطان واللاجئين والحدود، ذهبوا وهم يظنون أنهم مُنحوا هِبة عظيمة لمجرد أن إسرائيل قد اعترفت بوجودهم. ذهبوا وفى نفوسهم عقدةُ نقص، وطمعٌ فى سلطة، واستعدادٌ لفساد، وافتقار لكفاءة، وبوادر انقسام، فبدوا أضعف شأنًا من حمل لواء قضيتهم العادلة وباؤوا بما باؤوا به اليوم، واستحقُّوا ضحكات رئيس وزراء الكيان الصهيوني"[٤].

ويؤكد سعيد على أهمية الإرادة الفكرية قبل السياسية فى المقاومة والتحرير، إذ يقول: "الخطوة الأولى

(١) المصدر السابق، ص٢٣٥.

(٢) داليا سعودي، ضحكات نتنياهو ونبوءة إدورد سعيد، الشروق، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/vkYMNk

(٣) المصدر السابق.

(٤) مقتبس في المصدر السابق نقلا عن إدورد سعيد.

لتحرير الأراضـي المحتلـة هـي أن نقـرِّر فكريًّـا أنهـا ستُحرَّر، فالوصول للهدف يتطلَّب تعبئة حقيقية واستعدادًا حقيقيًّا. في حين أن السير على الطريق الحالي بقيادة الأشخاص الحاليين لن يؤدِّي سوى إلى المزيد مما نجده الآن، أي الأوهام والخسارة والفساد".

٢- المشترك الإنساني

ويركـز إدورد سـعيد في تناولـه وعرضـه للقضـية الفلسطينية على المشترك الإنساني ويحيل إلى مرجعية حقوق الإنسان، وهو يقول: "بعد ١٩٦٧، أدَّى احتلال الضفة الغربية وغزة إلى نشوء نظام عسكري ومدني للفلسطينيين كان هدفه إخضاع الفلسطينيين وتحقيق الهيمنة الإسرائيلية، أي بمثابة امتداد للنموذج الذي قامت عليه إسرائيل، وأنشئت مستوطنات في أواخر صيف ١٩٦٧ (وجرى ضم القدس)، ولم تقم بذلك أحزاب يمينية، بل حزب العمل الذي كان عضوًا في الدولية الاشتراكية، ولم يكن تشريع المئات من «قوانين المحتلين» يخالف بشكل مباشر أسس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فحسب، بل مواثيق جنيف أيضًا، وتعددت هذه الانتهاكات لتمتد من الاعتقال الإداري إلى المصادرات الجماعية للأراضي وهدم المنازل والإجلاء القسري للسكان والتعذيب واقتلاع الأشجار والاغتيال وحظر الكتب وإغلاق المدارس والجامعات، لكن توسيع المستوطنات اللاشرعية استمر دائمًا، فيما شملت سياسة التطهير العرقي المزيد من أراضي العرب كي يمكن توطين اليهود القادمين من روسيا وإثيوبيا وكندا والولايات المتحدة وغيرها من البلدان، بعد توقيع اتفاقات أوسلو في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣، شهدت أوضاع الفلسطينيين تدهورًا مستمرًّا، وأصبح من المستحيل بالنسبة إلى الفلسطينيين أن يتنقلوا بحرية بين مكان وآخر، وحُظر عليهم الوصول إلى القدس، وأدَّت مشاريع بناء ضخمة إلى تغيير جغرافيا البلد، وفي كل شيء جرى الحرص بدقة على التمييز"(١).

٣- ضحية الضحية

ويُبرز سعيد ما يراه معضلة أخلاقية في القضية الفلسطينية، فالفلسيطنيون هم ضحية الضحية، باعتبار أن اليهود ضحايا الغرب المسيحي إذ يقول: "لا جدال أن المأزق الأخلاقي الذي يواجهه كل من يحاول أن يتناول النزاع الفلسطيني/الإسرائيلي هو مأزق عميق، فاليهود الإسرائيليون ليسوا مستوطنين بيضًا من الصنف الذي استعمر الجزائر أو جنوب أفريقيا، على الرغم من أن وسائل مماثلة استُخدمت، ويُنظر إليهم بحق كضحايا تاريخ طويل من الاضطهاد الغربي المسيحي المناهض للسامية بشكل أساسي، وقد توِّج بفظاعات المحرقة النازية التي تكاد تتجاوز حدود التصديق؛ لكن بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن دورهم هو دور ضحايا الضحايا، ويفسر هذا لماذا ينأى الليبراليون الغربيون بأنفسهم، وهم الذين أيَّدوا علنًا حركة مناهضة نظام التمييز العنصري، أو الحركة الساندينية في نيكاراغوا، أو البوسنة، أو تيمور الشرقية، أو الحقوق المدنية في أميركا، أو إحياء الأرمن لذكرى الإبادة التي نفذها الأتراك أو قضايا سياسية أخرى كثيرة من هذا النوع، عن التأييد العلني لحق تقرير المصير للفلسطينيين. أما بالنسبة إلى السياسة النووية لإسرائيل، أو حملة التعذيب المشرَّعة قانونيًّا، أو استخدامها للمدنيين كرهائن، أو رفضها إعطاء الفلسطينيين أذونات للبناء على أراضيهم في الضفة الغربية، فإن القضية لم تُطرح إطلاقًا في المجال العلني الليبرالي، ويرجع السبب في جانب منه إلى الخوف، وفي جانب آخر إلى الشعور بالذنب"(٢).

٤- معضلة الجغرافيا والديموجرافيا

ويلفت النظر إلى صعوبةٍ عمليةٍ تفرضها الجغرافيا والديموجرافيا على القضية الفلسطينية فيقول: "ثمة تحدٍّ أكبر

(١) إدورد سعيد، أوسلو وما بعدها، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٣PiqME

(٢) المرجع السابق.

مـن السـابق نفسـه، ويتمثـل في صـعوبة الفصـل مـا بـين المجموعتين السكانيتين الفلسطينية والإسرائيلية، وهما الآن متداخلتان من نواح تفوق الحصر، على رغم الهوة الكبيرة بينهما، ويدرك الكثيرون منًا، الذين نادوا سنين طويلة بإقامة الدولة الفلسطينية، أن «دولة» كهذه (المزدوجان هنا في مكانهما الصحيح!) إذا قُدِّر لها أن تولد من كارثة أوسلو، ستكون ضعيفة ومعتمدة اقتصاديًّا على إسرائيل، ومفتقرة تمامًا إلى أي قوة أو سيادة. فوق كل ذلك فإن خريطة الضفة الغربية حاليًّا تبيِّن أن مناطق الحكم الذاتي منفصلة بعضها عن بعض (مساحتها الآن لا تتجاوز ثلاثة في المئة من مساحة الضفة الغربية، فيما تواصل حكومة نتنياهو رفض إعطائها ١٣ في المئة إضافية) وهي بذلك ستكون بمثابة بانتوستانات تسيطر عليها إسرائيل من الخارج. الحل المعقول الوحيد، إذن، هو أن يجدِّد الفلسطينيون ومساندوهم الصراع ضد المبادئ الإسرائيلية الأساسية التي تضع غير اليهود موضع الهوان في أرض فلسطين التاريخية، يبدو لي أن هذا هو المطلب المنطقي لأي حملة لتحقيق العدالة للفلسطينيين، بدل المطالبة بالانفصال بين الطرفين، كما تفعل بين حين وآخر، وبتردُّدٍ وضعف، حركة «السلام الآن» الإسرائيلية، ليس هناك مبدأ لحقوق الإنسان، مهما كان مطَّاطًا، يمكن أن يتوافق مع التمييز الذي تمارسه إسرائيل ضد غير اليهود، أي ضد الفلسطينيين بالدرجة الأولى، وليس من أمل في مصالحة على أرض فلسطين (إسرائيل) ما لم تتم مواجهة التناقض بين عقيدة إسرائيل الانعزالية على الصعيدين الديني والإثني من جهة، ومتطلبات الديمقراطية الحقيقية من الجهة الثانية. أما التهرُّب من هذه القضية أو تغطيتها كلاميًّا أو اللجوء إلى تعريفات غائمة لـ«السلام» فلن تجلب للفلسطينيين، وللإسرائيليين على المدى الطويل، سوى المعاناة والقلق[١].

(١) المرجع السابق.

خاتمة: ماذا بقي من إدورد سعيد؟

بقي النضال والمثال والنموذج بالإضافة إلى الناتج العلمى الذى نافح فيه وبه دوائر الصهيونية الإعلامية والأكاديمية فى الولايات المتحدة وأوروبا وغيرها، حيث ترجمت أعماله هذه بالإضافة لباقي أعماله التأسيسية كالاستشراق والثقافة والإمبريالية إلى عشرات اللغات.

ومن كتبه التى تناولت بشكل مباشر القضية الفلسطينية: مسألة فلسطين (١٩٧٩)، ما بعد السماء الأخيرة: حياة الفلسطينيين (١٩٨٦)، سياسة التجريد: كفاح شعب فلسطين لتقرير المصير ١٩٦٩ – ١٩٩٤(١٩٩٤)، السلام والسخط عليه: مقالات عن فلسطين وعملية السلام في الشرق الأوسط (١٩٩٥)، نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها (٢٠٠٠)، تأملات من المنفى ومقالات أخرى (٢٠٠٠)، من أوسلو إلى العراق وخريطة الطريق (٢٠٠٤).

إن نضال إدورد سعيد فكرًا وبحثا ودراسة ومواقف سياسية من أجل القضية الفلسطينية هو دفاع عن الذات والهوية، ولعل رثاء الشاعر الفلسطيني محمود درويش لإدورد سعيد –وكانا صديقين– يكشف عن هذا المعنى، يقول درويش:

والهويَّةُ؟ قُلْتُ
فقال: دفاعٌ عن الذات...
إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها
لاوراثة ماضٍ
أنا المتعدِّد... في
داخلي خارجي المتجدِّدُ
لكنني
أنتمي لسؤال الضحية.

وصفوة القول أننا بحاجة إلى تمثُّل نضال سعيد، وقد نقول "جهاده" المدني، من أجل القضية الفلسطينة وما بث في مواقفه العملية وخلفيته المعرفية من اتساق فكري وأصالة

وعمق مع الاستعداد لدفع الثمن من حياته وصحّته. إن ما يحتاجه كل المدافعين والمناضلين والمجاهدين من أجل القضية الفلسطينية وهو نفس ما أعجب به إدورد سعيد من كلمات لقسطنطين رزيق، هو حاجتنا جميعًا إلى "معرفة شاملة قوية ممزوجة بإيمان متّقد"[1]، أي أن نكون أبناء قضايانا وتلاميذها، كما ذكر سعيد في حواره الذى أُشير إليه فى بداية التقرير.

*****

(١) إدورد سعيد، القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطسنية رقم (١)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨٠، ص٣٢.

ملف العدد– القرار الأمريكي بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة إليها ومقاومته:

المستوي الأول– القرار وردود الفعل الرسمية:



قرار "ترامب": الذاكرة والتوقيت والسياق الأمريكي والإقليمي

د. مروة فكري(*)

مقدمة:

"قررت أنه آن الأوان للاعتراف رسميا بالقدس عاصمة لإسرائيل"

هكذا أعلن الرئيس الأمريكي دونالد "ترامب" في السادس من ديسمبر ٢٠١٧ عن قراره الاعتراف بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، وأمره بالبدء في التحضيرات اللازمة لنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى مدينة المقدسة، معلنا بذلك "مقاربة جديدة" تجاه النزاع العربي الإسرائيلي. وهو القرار الذي تجنبه الرؤساء الأمريكيون منذ ١٩٩٥، حينما أصدر الكونجرس بأغلبية كبيرة من الحزبين قانون نقل السفارة الأمريكية إلى القدس(١). وهي النقطة التي شدد عليها "ترامب" في خطابه من خلال القول إنه يفي بوعد "فشل" سبقوه في الوفاء به.

وقد تصاعدت الانتقادات والاعتراضات على قرار "ترامب"—حتى من قبل إعلانه رسميًا— من قبل القوى الدولية والإقليمية المختلفة. فقد اعتبر الفلسطينيون أن قرار "ترامب" بمثابة "الصفعة" لعملية السلام وإجهاض لحل الدولتين، الأمر الذي يجعل من الولايات المتحدة وسيطا غير محايد ويقضي على دورها في عملية السلام، ويرمي بقرارات الشرعية الدولية عبر الحائط. كذلك حذر الملك عبد الله –ملك الأردن ومن الحلفاء الاستراتيجيين لواشنطن في المنطقة– من أن اتخاذ هذا القرار سيكون له انعكاسات خطيرة على الأمن والاستقرار في الشرق الأوسط، ويؤجج مشاعر المسلمين والمسيحيين، ويشجع على التطرف(٢). كما هدد الرئيس التركي رجب طيب أردوغان بأن القدس "خط أحمر" للمسلمين، وأوضح أن تلك الخطوة يمكن أن تؤدي إلى قطع تركيا علاقتها الدبلوماسية مع إسرائيل(٣). كما صدرت اعتراضات –وإن كانت على غير نفس الدرجة من القوة– من عواصم عربية أخرى.

لم يلق القرار أيضا قبولًا من قبل العواصم الأوروبية التي أعربت عن قلقها من تلك الخطوة لما قد يترتب عليها من تبعات خطيرة على الرأي العام في مناطق كبيرة من العالم، وضرورة أن يأتي أي قرار في هذا الشأن في إطار مفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين(٤). بل تناقلت وكالات الأنباء أيضا اعتراض كل من وزير الخارجية الأمريكي "ريكس تيليرسون" ووزير الدفاع "جيمس ماتيس" على القرار لأسباب أمنية تتعلق بتأمين المصالح الأمريكية والمواطنين الأمريكيين في المنطقة(٥).

(*) مدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة.

(١) نص القانون على ضرورة نقل السفارة الأمريكية إلى القدس في سقف زمني لا يتجاوز ٣١ مايو ١٩٩٩. إلا أن القانون تضمن بندًا يسمح للرئيس الأمريكي بتوقيع إعفاء لمدة ستة أشهر إذا ارتأى في ذلك ضرورة لحماية المصالح الأمنية القومية الأمريكية. ومنذ ذلك الوقت والإدارات الأمريكية المتعاقبة توقع الإعفاء تلقائيا كل ستة أشهر على الرغم من أن معظمهم كان قد وعد في حملاته الانتخابية بتنفيذ نقل السفارة.

(٢) قناة العالم، ملك الأردن يحذر "ترامب". ٢٠١٧. ٥ ديسمبر .تم الاطلاع: ١٦ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/mLNPrc

(٣) انظر موقع BBc عربي، تحذير أردوغان ل"ترامب" بشأن القدس، ٥. ٢٠١٧ فبراير. تم الاطلاع: ٢٠ يناير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/bxUxe٩

(٤) المرجع السابق

(٥) Ellen Mitchel, ٢٠١٧. *Mattis, Tillerson warned Trump of security concerns in Israel embassy move.* December ١٢. Accessed February ٥, ٢٠١٨: https://goo.gl/ATn٩u٥

وعلى الرغم من التحذيرات وافتقاد واشنطن للدعم، حتى من قبل حلفائها الغربيين، أصر "ترامب" على قراره الذي أعلنه عشية احتفال البيت الأبيض بعيد الأنوار لليهود. وهو الأمر الذي من شأنه إثارة التساؤل حول الأسباب التي دفعت الرئيس الأمريكي إلى اتخاذ مثل ذلك القرار رغم المؤشرات التي تدل على عدم خدمته بالضرورة للمصالح الأمريكية، وفي ظل القلق الذي عبر عنه حلفاء واشنطن سواء داخل الإقليم أو خارجه.

ويتفرع عن هذا التساؤل مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي:

- ما الجديد في الموقف الأمريكي في ظل إدارة دونالد "ترامب"؟
- هل يخالف قرار "ترامب" نموذج الاختيار العقلاني "rational choice"؟
- ما هي المحددات الداخلية لقرار "ترامب"؟
- ما هو السياق الإقليمي الذي أحاط بالقرار؟

وتتطلب الإجابة على هذه الأسئلة بداية التطرق بشكل سريع إلى القدس في السياسة الخارجية الأمريكية وصولًا إلى قرار "ترامب" الأخير، وذلك للوقوف على عناصر الاستمرارية والتغير في تلك السياسة، وفهم لماذا اعتبر الكثيرون خطوة "ترامب" هذه على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة في الوقت نفسه.

أولًا– السياسة الخارجية الأمريكية والقدس.... تاريخ من الخذلان:

يكشف تتبع قضية القدس في السياسة الخارجية الأمريكية عن مرورها بعدة مراحل أساسية، تشترك جميعها في أن تطور الموقف الأمريكي كان دائما في اتجاه المزيد من التقارب مع الرؤية الإسرائيلية حول وضع المدينة. ونظرا لتعدد الإدارات الأمريكية منذ قيام الكيان الصهيوني إلى الآن، سنتوقف عند المحطات الأساسية التي مثلت نقاط تحول مهمة في الاقتراب الأمريكي من القدس. وبناء على ذلك يمكن الحديث عن ستة مراحل محورية:

المرحلة الأولى: مرحلة "التدويل" (ما قبل ١٩٤٨): تمحور الموقف الأمريكي في هذه المرحلة حول الكيان المستقل للقدس (*corpus separatum*) باعتبارها مدينة لها مكانة خاصة لا تنتمي لأي طرف وينبغي أن تتمتع بمكانة وإشراف دوليين، وهي تقريبا النظرة التي تبناها قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود[١].

المرحلة الثانية: التراجع النسبي عن التدويل والغموض حول مستقبل المدينة (١٩٤٨-١٩٦٢): بدأ في هذه المرحلة الحديث الأمريكي عن تدويل "محدود" للقدس واعتبارها مدينة واحدة موحدة دولية. وأعربت واشنطن عن اعتقادها بأن فكرة الكيان المستقل للقدس هي غير واقعية ولا يمكن تنفيذها من قبل الأمم المتحدة ضد رغبة الأطراف المعنية وهي إسرائيل والأردن، إلا باستخدام القوة. ويلاحظ في هذه المرحلة أن الاهتمام الأمريكي بالقدس قد تراجع بشكل كبير إدراكًا من الحكومة الأمريكية للتعقيدات الخاصة بهذا الملف، وعدم تمكنها من إثناء إسرائيل عن المضي في مخططاتها الخاصة بالتوسع في الجزء الغربي من المدينة تمهيدًا للسيطرة عليها فيما بعد. ووقعت واشنطن في هذه المرحلة بين مطرقة جماعات الضغط اليهودية وسندان اعتبارات الحرب الباردة وما ارتبط بها من تخوفات أمريكية من أن تؤدي السياسات الإسرائيلية التوسعية والمستفزة للعرب إلى استدراج الاتحاد السوفيتي[٢] بعضهم إلى منطقة نفوذه[١].

---

(١) Donald Neff, ١٩٩٣. "Jerusalem in US Policy." *Journal of Palestinian Studeis* ٢٣ (١): ٢٠-٤٥.

(٢) على سبيل المثال اعترضت الخارجية الأمريكية بقيادة دالاس في ١٩٥٣ على قرار إسرائيل بنقل مقر وزارة الخارجية من تل أبيب إلى القدس وامتناعها فيما بعد على الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل. ومع ذلك، لم

المرحلة الثالثة (١٩٦٣-١٩٦٩): مرحلة القدس الموحدة "الدينية": اتخذ الرئيس الأمريكي "ليندن جونسون" سياسة خارجية أكثر محاباة لإسرائيل، والتي يرجعها البعض إلى المستنقع الفيتنامي الذي وقع فيه ومحاولته الحصول على الدعم اليهودي لإدارته. فلم تعد الولايات المتحدة تؤيد الوضع الدولي للمدينة، وأعلنت في المقابل عن دعمها لفكرة بقاء المدينة موحدة على أن يحدد مستقبلها من قبل الأطراف ذاتهم في محاولة لإبعاد أي تسوية عن قرارات الشرعية الدولية الممثلة في الأمم المتحدة. كذلك ابتعد الحديث عن القدس عن كونها قضية سياسية من ضمن قضايا الصراع، ولكن باعتبارها قضية دينية يتمحور الاهتمام فيها حول الأماكن المقدسة وتأمين حرية الوصول إليها من قبل أصحاب الديانات الثلاث[٢]. ولكن اعتبارات الحرب الباردة مرة أخرى جعلت واشنطن تستمر في موقفها الخاص باعتبار قرار إسرائيل القدس الغربية عاصمة لها بأنه غير قانوني، واعتبار القدس الشرقية من الأماكن المحتلة[٣].

المرحلة الرابعة: مرحلة إرجاء مصير القدس (١٩٧٧-١٩٩٢): انتقلت الدبلوماسية الأمريكية إلى سياسة التسوية الشاملة للنزاع الإسرائيلي العربي مع دخول كارتر إلى البيت الأبيض، ولكن دون التطرق إلى قضية القدس والتي تم إرجائها إلى "مفاوضات الوضع النهائي". كما انتقل ملف القضية الفلسطينية من الأمم المتحدة إلى إطار المفاوضات الثنائية، واستمر التركيز على الجانب الروحي للقدس وتجاهل حتى الإشارة إلى قرارات الشرعية الدولية المتعلقة بالمدينة [٤] . ويلاحظ من السلوك التصويتي لإدارة "كارتر" في الأمم المتحدة ارتباطها الشديد بالاعتبارات السياسية الداخلية أكثر من كونها عاكسة لسياسة واضحة تجاه القدس. على سبيل المثال، امتنعت الولايات المتحدة في ٢٢ مارس ١٩٧٩ عن التصويت على قرار مجلس الأمن القاضي بأن المستوطنات الإسرائيلية على الأراضي العربية بما فيها القدس الشرقية ليس لها وضع قانوني وتمثل عائقًا أساسيًا في سبيل تحقيق سلام شامل وعادل ومستمر في الشرق الأوسط. ويرجع تفسير هذا الموقف إلى توقيت القرار، حيث جاء قبل خمسة أيام من توقيع اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل، وهو بالطبع الإنجاز الذي لم يرد "كارتر" أن يتأثر بالتصويت في الأمم المتحدة. فقد كان "كارتر" يستعد للترشح مرة أخرى ويهمه التقارب مع اليهود[٥] لتعزيز فرصته في الانتخابات[٦].

مع رئاسة ريجان (١٩٨١-١٩٨٨) ركزت الولايات المتحدة على دور إسرائيل في مكافحة المد الشيوعي، ومن هنا كان التحالف الاستراتيجي بينهما، مع الاستمرار في الحديث عن القدس موحدة وإرجاء وضعها إلى مفاوضات الوضع النهائي. وهي الأبعاد التي أصبحت من ثوابت السياسة الخارجية الأمريكية ليضيف إليها "جورج بوش" الأب (١٩٨٨-١٩٩٣) التركيز على أولوية أمن إسرائيل باعتباره المفتاح لدفع السلام إلى الأمام وذلك للالتفاف حول الانتفاضة الفلسطينية الأولى. كما تراجعت الولايات

تمارس واشنطن أية ضغوط قوية على الكيان الصهيوني ولا على الدول التي اعترفت بالقدس عاصمة لإسرائيل، انظر المرجع السابق.

(١) فاروق الشناق . ٢٠١١ ."سياسة الولايات المتحدة تجاه القدس في ميزان الشرعية الدولية : قرارات الأمم المتحدة ".(*مؤتمر القدس الدولي*) . الدوحة :اللجنة الملكية لشئون القدس :الأمانة العامة.٨٥-١ .

(٢) Donald Neff,Op. Cit.

(٣) Ibid.

(٤) فاروق الشناق، مرجع سبق ذكره.

(٥) مثال آخر على تأثير السياسة الداخلية على قرارات كارتر الخارجية جاء في ١٩٨٠ عندما صوتت الولايات المتحدة في مجلس الأمن على قرار (٤٦٥) والذي يعتبر المستوطنات الإسرائيلية غير قانونية بما فيها القدس ومطالبة إسرائيل بالتوقف عن بناء مستوطنات جديدة وتفكك تلك الموجودة. جاء رد الفعل اليهود وإسرائيل قوي بشكل أدركت من خلاله حملة كارتر أن هذا التصويت سيضر بفرصه في الانتخابات. ومن هنا كانت المسارعة بإعلان كارتر في الثالث من مارس أن التصويت كان غلطة ناتجة عن خطأ في الاتصالات بين البيت الأبيض والأمم المتحدة، للمزيد انظر: Donald Neff,Op. Cit.

(٦) Ibid.

المتحدة عن سياستها الرافضة للاستيطان في الضفة الغربية والقدس، والتجاهل الكبير لدور الأمم المتحدة كمصدر للشرعية الدولية، بل والعمل على التحرر من قراراتها كإطار مرجعي لأية مفاوضات وإعادة التفاوض عليها[1]. وكان هذا بالطبع استغلالا لظروف إقليمية ودولية معينة تمثلت في انتهاء الحرب الباردة وتفرد الولايات المتحدة بالزعامة الدولية، والتمزق والضعف العربي الذي أعقب حرب الخليج الثانية.

المرحلة الخامسة: الإقرار بالقدس عاصمة إسرائيل (١٩٩٥-٢٠١٦): انتقلت السياسة الأمريكية خطوة أخرى مع "بيل كلينتون" (١٩٩٣-٢٠٠٢). فأصبح التركيز على سياسة احتفاظ إسرائيل بالقدس عاصمة موحدة لها. وهو الموقف الذي عبر عنه "كلينتون" في برنامجه الانتخابي من خلال القول بأن "القدس هي عاصمة إسرائيل ويجب أن تظل مدينة موحدة غير مقسمة متاحة للناس مهما كانت معتقداتهم الدينية"[2]. ولتحقيق ذلك، قامت واشنطن أولاً بمعارضة شمول القدس بالقرار ٢٤٢ واعتبارها أراض متنازع عليها يجري حسم السيادة عليها في المفاوضات، وليس من خلال مؤسسات الشرعية الدولية. ثانياً، عدم الممانعة الأمريكية لمواصلة إسرائيل بناء المستوطنات، بما في ذلك في القدس، تحت دعاوي "النمو الطبيعي للسكان" وتبني وجهة النظر الإسرائيلية التي تميز بين مستوطنات أمنية غير قابلة للتفاوض، ومستوطنات ذات طابع سياسي يمكن التفاوض حولها [3].

إلا إن التطور الأهم في عهد "كلينتون" كان اعتماد الكونجرس سنة ١٩٩٥ القرار الخاص بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس السابق الإشارة إليه. ووجه الكونجرس رسالة لوزير الخارجية يعرب فيها عن معارضته لأن تكون القدس محل مفاوضات، حيث إنه -وفقا للكونجرس- أمر المدينة "محسوم تماما". وجاءت الترجمة لذلك التوجه في مفاوضات كامب ديفيد الثانية التي حاولت فيها الولايات المتحدة الضغط على عرفات لقبول تسوية تعطيه دويلة وتبقي على القدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل مع سيادة رمزية وشكلية للدولة الفلسطينية على الحرم القدسي مقابل سيادة "تحت-أرضية" لإسرائيل عليه[4].

تحول الصراع على يد "جورج بوش" الابن (٢٠٠٢- ٢٠٠٨) إلى صراع إسرائيلي-فلسطيني. وتحت ضغط الانتفاضة الفلسطينية الثانية، بدأت جولة جديدة من المفاوضات. وقدمت اللجنة الرباعية للشرق الأوسط والتي تضم الولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة خارطة طريق تنص على إقامة دولة فلسطينية بحلول ٢٠٠٥ مقابل إنهاء الانتفاضة وتجميد الاستيطان اليهودي في الأراضي الفلسطينية، فيما عرف بحل الدولتين[5]، وغابت القدس مرة أخرى سواء على مستوى المبادرات أو الخطاب.

المرحلة السادسة: نقل السفارة (٢٠١٧): وأخيرا جاء "ترامب" ليحسم الغموض "المتعمد" من قبل الإدارات الأمريكية المتعاقبة حول مصير المدينة، ويكشف القناع تماما عن الوجه الحقيقي للسياسة الأمريكية إزاء القدس والقضية الفلسطينية بشكل عام، وذلك عندما أعلن عن تنفيذه لقانون الكونجرس واعتباره القدس العاصمة الموحدة والأبدية لإسرائيل.

ثانيًا- "ترامب" والمباراة المزدوجة:

كما هو موضح في العرض السابق، صاغ الرؤساء الأمريكيون سياستهم الخارجية تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام بناء على عاملين أساسيين: *العامل الداخلي*

---

(١) فاروق الشناق، مرجع سبق ذكره.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) فرانس ٢٤ .ما هو حل الدولتين وما هي البدائل التي قد تحل مكانه؟ .١٥ فبراير٢٠١٧ .. تم الاطلاع: ١٥ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط:

https://goo.gl/٤SLXu٦

والمتعلق بضغط جماعات المصالح اليهودية من جهة، والحسابات الخاصة بالمعركة الانتخابية من جهة أخرى، *وعامل خارجي* يرتبط بالسياق الإقليمي والدولي المحيطين، والمصالح الأمريكية في المنطقة. أي أنهم كانوا دائما منخرطين في مباراة مزدوجة: مباراة السياسة الداخلية ومواءماتها، ومباراة السياسة الخارجية واستراتيجياتها المتعلقة بالمصالح الأمريكية. وهذا تحديدًا ما يفسر قرار "ترامب" الخاص بالقدس والذي يبدو للوهلة الأولى متناقضًا مع نموذج الاختيار العقلاني لصانع القرار. فقد أوضح "ترامب" في كلمته كيف أنه يرى اتخاذ هذا القرار "يصب في مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية، وفي مصلحة السعي إلى تحقيق السلام بين إسرائيل والفلسطينيين"[١]. في الوقت الذي رأى فيه كثيرون أن القرار لا يتوافق مع المصالح الأمريكية في المنطقتين العربية والإسلامية لما قد يترتب عليه من عدم استقرار وتوتر في منطقة مشحونة بالفعل، ويقوض من استئناف عملية السلام. كما تؤدي الإهانة التي يحملها القرار واستهانته بمشاعر المسلمين إلى تأكيد فكرة صراع الحضارات، ومن ثم خلق بيئة مناسبة للإرهاب. وأخيراً، يؤدي القرار إلى عزلة الولايات المتحدة عن باقي الجماعة الدولية[٢]. فكيف كانت إذن حسابات "ترامب" في المزدوجة؟

ثالثًا– المحددات الداخلية للقرار:

يرتبط تحديد العوامل الداخلية بمعرفة الكتلة الانتخابية التي صوتت ل"ترامب" من ناحية، ومن ناحية أخرى السياق الداخلي للقرار. على رأس قائمة المؤيدين تأتي الجماعات الإنجيلية والتي مثلت في انتخابات ٢٠١٦ حوالي ٢٦% من الهيئة الناخبة والتي صوت ٨١% منهم لصالح "ترامب" على حساب هيلاري كلينتون[٣]. وهم يمثلون، على العكس من اليهود أنفسهم، نسبة معتبرة من ناخبي الحزب الجمهوري. ويرى هؤلاء أن نقل السفارة إلى القدس هي خطوة ضرورية في طريق عودة المسيح لقيادة معركة نهاية التاريخ في "مجيدو"، إضافة إلى اتباع بعضهم تفسيرا حرفيا للإنجيل والذي ذكر فيه أن "الله يبارك من يبارك إسرائيل ويلعن من يلعن إسرائيل". ومن هنا، فإن موضوع نقل السفارة لديهم يتعلق بأسباب دينية وليست سياسية. ومن هنا يمكن فهم ضغط الكثير منهم على "ترامب" للتعجيل بهذه الخطوة التي وعدهم بها أثناء حملته الانتخابية، ويبرز هنا على وجه الخصوص "جون هاجي" الراعي لمنظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل"[Christian United for Israel] ذات الثلاثة ملايين عضوا والذي مارس ضغوطا على "ترامب" منذ انتخابه لينقل السفارة حتى يثبت التزامه بالقيم الإنجيلية[٤].

يأتي تأثير آخر من اللوبي الصهيوني والدور الكبير الذي يلعبه في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط. ويعمل هذا اللوبي تحت مظلة واسعة تسمى "مؤتمر الرؤساء" (the Conference of the Presidents)، ويضم عددا من الجماعات واللجان الفرعية. وتعتبر لجنة الشئون العامة الأمريكية–الإسرائيلية (إيباك) هي المحور الأساسي للمنظمة، كما أن قدرتها على التأثير على الأحداث والسياسات في واشنطن من خلال شبكة علاقاتها في الهيئات الحكومية والكونجرس لم يسبق لها

---

(١) قناة العربية .نص اعتراف "ترامب" بالقدس عاصمة لإسرائيل. ٧ ديسمبر ٢٠١٧.تم الاطلاع: ٢٠ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط:
https://goo.gl/vKdpNu

(٢) Nicos Panayiotides, *The history and politics behind Trump's Jerusalem decision.* January ١٢. ٢٠١٨. Accessed February ١٥, ٢٠١٨:
https://goo.gl/DDAeuu

(٣) Rebecca Shimoni Stoil, *How the GOP became a 'Pro-Israel' party.* December ٨. ٢٠١٧. Accessed February ٢٤, ٢٠١٨:
https://goo.gl/qVvjt٨

(٤) Idem.

مثيل[١]. ويكفي هنا ذكر ما صرح به "جون فوستر دالاس" –وزير الخارجية الأمريكي الأسبق– لأحد أصدقائه يوما بأنه " من شبه المستحيل في هذه الدولة أن تضطلع بسياسة خارجية لا يوافق عليها اليهود"[٢] للوقوف على حجم النفوذ الذي يتمتع به هذا اللوبي. ومن هنا كان حرص المرشحين للرئاسة جميعهم على الحصول على دعم هذه المجموعة. ولم يختلف "ترامب" عمن سبقوه، فقد ألقى خطابًا في مارس ٢٠١٦ أمام "إيباك" –واصفا نفسه بأنه داعم دائم وصديق حقيقي لإسرائيل– تعهد فيه بنقل السفارة الأمريكية إلى "العاصمة الأبدية للشعب اليهودي، القدس"[٣].

وتشير تقارير كثيرة إلى أن هذا الخطاب كان السبب في دعم الملياردير اليهودي، "شيلدون أديلسون"، حملة "ترامب" للرئاسة بالملايين من الدولارات. وبعد دخول "ترامب" بالفعل البيت الأبيض، ظل "أديلسون" يذكره بضرورة تنفيذ وعده. وهو الأمر الذي أضاف المزيد من الضغوط على الرئيس[٤].

ويمكننا بالطبع إضافة تأثير الفريق المحيط بالرئيس وتوجهاته المتشددة ودعمه المعروف لإسرائيل، وتبنيه في معظمه قرار النقل، "فريكس تليرسون" –وزير الخارجية– يرى أن إسرائيل هي الحليف الأكثر أهمية. أما السفير "ديفيد فريدمان" فهو من أكثر الشخصيات الأمريكية المساندة لنقل السفارة، وسبق وأن صرح أن "ترامب" "سينفذ النقل" وأعرب عن أمله في أن ينفذ مهمته: "من سفارة الولايات المتحدة في عاصمة إسرائيل الأبدية"[٥]. أما نائب الرئيس –"مايك بنس"– فقد حرص أثناء الحملة الانتخابية أن يتوجه بالحديث مباشرة إلى الشعب الإسرائيلي ليؤكد لهم أن "كفاح إسرائيل هو كفاحنا" و"قضيتها هي قضيتنا، وقيمها هي قيمنا"، معبرًا عن فخره بأنه يقف إلى جانب إسرائيل[٦]. ناهيك بالطبع عن دور "جاريد كوشنر"، صهر الرئيس وكبير مستشاري البيت الأبيض، صاحب التأثير والنفوذ الكبيرين على "ترامب"، والذي يقال إنه عمل كمدير مشارك لمؤسسة في الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠١٥، والتي بدورها قامت بتمويل مستوطنات إسرائيلية في الضفة[٧].

إلا أن هذه الاعتبارات وحدها لا تفسر اتخاذ "ترامب" للقرار في هذا التوقيت. فقد توافرت هذه الاعتبارات أيضا في يونيو ٢٠١٧، ومع ذلك قرر "ترامب" توقيع إعفاء نقل السفارة. ولهذا ينبغي النظر في السياق الداخلي الأكبر الذي ربما عجل باتخاذ هذه الخطوة. بداية، القرار جاء قبل حوالي شهر من إتمام "ترامب" عامه الأول في الرئاسة والتي شهدت القليل من الانجازات خاصة على المستوى التشريعي، كما وصلت معدلات القبول العام ل"ترامب" مستوى متدني غير مسبوق. وكلها عوامل قد تكون ساهمت في قراره حول القدس لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من شعبيته، خاصة أن القرار من الناحية السياسية يعتبر سهلا لما يتمتع به من دعم من قبل الحزبين. كذلك فإن نتائج انتخابات حكام كل من "نيو جيرسي" و"فيرجينيا" في نوفمبر ٢٠١٧ أثارت القلق داخل الحزب الجمهوري

---

(١) John Newhouse,"Diplomacy, Inc.: The Influence of Lobbies on U.S. Foreign Policy." *Foreign Affairs*,. May/June٢٠٠٩: pp٧٣-٩٢.

(٢) Cited in: Donald Neff,Op. Cit

(٣) Sarah Begley, *Donald Trump's Speech to AIPAC*. March ٢١. ٢٠١٦. Accessed February ٢٢, ٢٠١٨: https://goo.gl/JTURi١

(٤) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قرار "ترامب" *إعلان القدس* عاصمة لإسرائيل. ١٢ ديسمبر٢٠١٧ . تم الاطلاع: ١٢ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/Svw٦٧n

(٥) ميرفت عوف "إسرائيل من تل أبيب إلى القدس؟ ". *ساسة بوست*. ٢٣ يناير.٢٠١٧ . تم الاطلاع: ٢ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/CaQkHi

(٦) لمشاهدة الرسالة انظر الرابط التالي: https://goo.gl/rMci٣N

(٧) أحمد حسن. "كوشنر أخفى دعمه لمنظمة مولت المستوطنات غير الشرعية في الضفة". عربي ٢١ . ٤ ديسمبر ٢٠١٧. تم الاطلاع: ٢٠/٠١/٢٠١٧. متاح على الرابط: https://goo.gl/bkm٩٩K

حول حظه في انتخابات التجديد النصفي للكونجرس في ٢٠١٨[١]، بل وفي فرص "ترامب" نفسه في إعادة انتخابه في ٢٠٢٠. وبالتالي القرار قد يكون موجها للقاعدة الإنجيلية المسيحية للحزب الجمهوري وكذلك تحسين فرص الحزب لدى الناخبين الداعمين لإسرائيل في الولايات المهمة التي أصبحت تشهد تنافسا كبيرا بين الديمقراطيين والجمهوريين نظرا للتغيرات الديموغرافية الحادثة[٢].

ولكن القضية التي قد تكون أكثر تأثيرا من الناحية الداخلية على قرار "ترامب" هي العلاقة مع روسيا؛ حيث تدور الشكوك حول تواطؤ "ترامب" وأعضاء من حملته مع الحكومة الروسية للتأثير على الانتخابات الرئاسية الأمريكية، ولاحقا العمل على عرقلة العدالة من قبل "ترامب" ومساعديه[٣]. وهي الشكوك التي نالت رئاسته منذ البداية، والتي تخضع الآن للتحقيق من قبل المستشار الخاص "روبرت مولر". وما يهم هنا هو تطوران مهمان حدثا في الأسبوع السابق لإعلان "ترامب" نقل السفارة: يتعلق التطور الأول بطلب "مولر" من أحد البنوك الألمانية الاطلاع على سجلات مالية تخص الرئيس الأمريكي. أما التطور الثاني فهو خاص بإقرار "مايكل فلين"–مستشار "ترامب" السابق للأمن القومي– بالذنب فيما يتعلق باتهامات جنائية وجهها له "مولر"[٤]. وبهذا يصبح الشخص الثاني في فريق "ترامب" الذي يعترف بالذنب.

ولذلك يرى الكثير من المحللين أن قرار "ترامب" ينطبق عليه كل سمات القرارات التي تتخذ لتحويل الانتباه عن القضية الأكثر أهمية[٥]، والتي هي في هذه الحالة الاتصالات مع روسيا. كذلك قد تكون مغازلة للوبي اليهودي، صاحب التأثير النافذ في الكونجرس، لدعمه في مواجهة خصومه الذين يسعون لإدانته تمهيدا للإطاحة به[٦]. وقد سهل من مهمة "ترامب" هذه السياق الإقليمي للمنطقة وعملية إعادة تشكيل التحالفات الجارية حاليا.

رابعًا– المحددات الإقليمية:

يتضح من العرض التاريخي لتطور السياسة الخارجية الأمريكية تجاه القدس أن الموقف الأمريكي غالبا ما اتخذ خطوات أقرب للموقف الإسرائيلي كلما ازدادت حالة الانقسام العربي ودخلت المنطقة عملية إعادة تشكيل. ويزداد هذا وضوحا في القرار الأخير الخاص بنقل السفارة.

---

(١) John. McCormik, Republican Governors Seek to Avoid ٢٠١٨ Election Damage From Trump, Moore. November ١٦/٢٠١٧. Accessed January ١٦, ٢٠١٨. https://goo.gl/oJME٦M

(٢) Osamah Khalil, Imposing Peace: Trump and the Palestinians. December ١٨. ٢٠١٧. Accessed January ٤, ٢٠١٨. https://goo.gl/uaFYhZ

(٣) للمزيد حول هذا الموضوع:
Andrew Prokop. February ٢٠١٨. "All of Robert Mueller's indictments and plea deals in the Russia investigation so far." *VOX*. (Access: ٢٢/٠٢/٢٠١٨) Available at: https://goo.gl/NsFfD٣
أيضا:
Michael Crowley. March/ April ٢٠١٧. "All of Trump's Russia Ties in ٧ Charts." *Politico Magazine*. (Access: ٢٢/٠١/٢٠١٨).Available at: https://goo.gl/uZbyXc

(٤) Alex Ward,. *Mueller appears to be looking deep into Trump's finances*. December ٥. ٢٠١٧. Accessed February ١٣, ٢٠١٨ :https://goo.gl/ceMJn٤

(٥) من أهم ما يميز مثل هذه القرارات: أولا: أنها تأتي في وقت يواجه فيه الرئيس مشكلات سياسية، ثانيا: يتعلق القرار بشأن خارجي لما لدى الرئيس من حرية أكثر للتصرف في الشئون الخارجية، وأخيرا: أنها تنطوي على منافع سياسية عظيمة، انظر إلى:
David Graham, *Wag the Embassy*. December ٦. ٢٠١٧ Accessed February ١٩, ٢٠١٨: https://goo.gl/srAEHr

(٦) سعيد عكاشة" نقل السفارة الأمريكية إلى القدس ...حرق مراحل وسيناريوهات محتملة" مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.٥ ديسمبر. ٢٠١٧ . تم الاطلاع: ١٠ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/GQuePa

فمع ثورات "الربيع العربي" تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية لصالح القضايا والتحديات والاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية التي شهدتها دول المنطقة من ناحية(١)، أو بالتوازن الإقليمي من ناحية أخرى(٢). ويضاف لذلك بالطبع استمرار حالة الانقسام الفلسطيني ومن ثم غياب رؤية موحدة للفلسطينيين يتوجهون بها للمجتمع الدولي(٣). باختصار، فإن العالم العربي الآن أكثر انقساما وضعفا وتشتتا، وهي حالة مغرية للانقضاض على ما تبقى له من حقوق.

ووفقا لما يُتداول من معلومات حتى الآن، يبدو أن عملية إعادة تشكيل المنطقة يتم تسويقها تحت مسمى "صفقة القرن"، والتي بدأت خيوطها تتكشف شيئا فشيئا من خلال تسريب بعض تفاصيلها لوسائل الإعلام حيث إن الإعلان الرسمي عنها لم يتم بعد. وظهر مصطلح "صفقة القرن" مع تولي "ترامب" الرئاسة وتكليفه لصهره ومستشاره الخاص–جاريد كوشنر– برئاسة فريقه لعملية السلام(٤). وتتلخص الصفقة في بعدين أساسيين: تصفية القضية الفلسطينية فعليا، وتشكيل حلف إقليمي ضد إيران في المنطقة بمشاركة إسرائيل(٥).

ووفقا لما تم كشفه، فإن الصفقة تتضمن البنود التالية:

أولا: إقامة دولة فلسطينية تشمل حدودها قطاع غزة والمناطق (أ، وب) وأجزاء من المنطقة (ج) في الضفة الغربية.

ثانيا: توفر الدول المانحة ١٠ مليارات دولار لإقامة الدولة وبنيتها التحتية بما في ذلك مطار وميناء بحري في غزة والإسكان والزراعة والمناطق الصناعية والمدن الجديدة.

ثالثا: تأجيل وضع القدس وقضية عودة اللاجئين لمفاوضات لاحقة.

رابعا: مفاوضات سلام إقليمية بين إسرائيل والدول العربية، بقيادة المملكة العربية السعودية(٦).

وقد وضح التقارب بين الموقف الأمريكي والسعودي منذ القمة الإسلامية– الأمريكية التي عقدت في الرياض في مايو ٢٠١٧، وتم ترجمه هذا التقارب من خلال مجموعة غير مسبوقة من الصفقات الاقتصادية الضخمة بين البلدين، إضافة إلى الاستقبال التاريخي للرئيس الأمريكي وأسرته(٧). وكشفت التطورات اللاحقة عن الصفقات السياسية التي فيما يبدو تم الاتفاق عليها بين الجانبين ذات الصلة بتوارث العرش في المملكة، ومصير القضية الفلسطينية.

كان واضحا طموح محمد بن سلمان في تولي الحكم منذ تولي الملك سلمان العرش. فقد اتخذت قرارات تدريجية للتقريب بينه وبين الحكم. وهي الخطوات التي توالت بعد لقاء "ترامب" وإغداق أموال الصفقات عليه، وتكللت بتصعيد محمد بن سلمان لولاية العهد في يونيو ٢٠١٧. فقد رأى حكام المملكة حاجتهم للدعم الأمريكي لاستتباب عملية نقل الحكم، وكان المدخل لهذا الدعم هو المال من جهة، والتقرب من إسرائيل من جهة أخرى. وهي الصفقة التي ذكرها مايكل وولف في كتابه "النار والغضب" والتي–وفقا للكاتب– أبلغ "ترامب" أصدقائه عليها وكيف

---

(١) مرفت عوف، مرجع سبق ذكره.

(٢) سلوي الزغبي، *البوابة الإليكترونية للوطن* . ٦ ديسمبر.٢٠١٧. تم الاطلاع: ١٥ فبراير ٢٠١٨.متاح على الرابط: https://goo.gl/٣tC١٣٢

(٣) مركز الزيتونة، *آفاق السياسة الأمريكية تجاه فلسطين في عهد "ترامب"* . ١٥ نوفمبر.٢٠١٦ . ١٥تم الاطلاع: ٣ فبراير ٢٠١٨ متاح على الرابط: https://goo.gl/gLCXHg

(٤) يضم هذا الفريق عددا محدودا من الأعضاء من بينهم جيسون غرينبلات—المبعوث الأمريكي لعملية السلام في الشرق الأوسط—وهو يهودي أرثوذكسي عمل بالمحاماة في مجال العقارات ومقربا من "ترامب" من فترة طويلة، للمزيد انظر: أمين محمد *هكذا يرى ترمب حل القضية الفلسطينية* . ٤ فبراير٢٠١٨ . تم الاطلاع: ٢٨ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط: https://goo.gl/XZbhqR

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق.

(٧) عماد عنان، *القمة الإسلامية الأمريكية في الرياض : اللقاء من طرف واحد*. ٢١ مايو.٢٠١٧ . تم الاطلاع ١٥ فبراير ٢٠١٨ .متاح على الرابط: https://goo.gl/pH٨du٧

أنه هو و"جاريد كوشنر" قاما بهندسة انقلاب سعودي قائلا: "لقد وضعنا الرجل الذي يخصنا على القمة"[1].

العامل الآخر الحاسم في موقف المملكة من الترتيبات الإقليمية هي انخراطها في صراعات متعددة مع إيران: في اليمن ولبنان وسوريا والعراق. ولذلك رأت المملكة أن السبيل الوحيد لمواجهة التهديد الإيراني هو التحالف مع إسرائيل، فالأخيرة هي الوحيدة القادرة على التصدي لإيران. وبالطبع لا يمكن أن يتشكل هذا التحالف إلا بعد التوصل إلى اتفاق سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين أولا. ويبدو أن محمد بن سلمان –ولي ولي العهد السعودي ووزير الدفاع آنذاك– كان داعما شخصيا لهذه الخطة وأخذ يعمل على تنفيذها. وجاءت أولى خطوات التنفيذ في اتفاقية ترسيم الحدود البحرية بين السعودية ومصر والتي أسفرت عن تنازل مصر عن جزيرتي تيران وصنافير للسعودية، لتصبح للمملكة حدودا بحرية مشتركة مع إسرائيل، ومن ثم يكون من حقها الدخول في مفاوضات مباشرة في أي صفقة سلام ستشهدها المنطقة في المستقبل[2].

طرف آخر في التحالف الجاري تشكيله، هي مصر، والتي في ظل الظروف التي تولى فيها عبد الفتاح السيسي الرئاسة، كان هناك سعيًا دائما للحصول على الدعم الخارجي لتعزيز شرعية نظام ٣٠ يونيو ٢٠١٣. ولعبت الظروف التي تمر بها المنطقة وظهور داعش دورها في تعزيز وضع الرئيس المصري وتسويق نظامه على أنه الوكيل الإقليمي في محاربة "الإرهاب". وبهذا تلاقت المصالح بينه وبين "ترامب" من جهة، وبينه وبين إسرائيل من جهة أخرى ووصل التنسيق الأمني والعسكري بين الطرفين في سيناء لدرجات غير مسبوقة، لدرجة أن إسرائيل كانت تمارس نفوذها على الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى لدعم النظام المصري[3].

تنضم إلى هذا التحالف أيضا الإمارات العربية المتحدة، والتي مارست دورًا محوريًا في إجهاض ثورات الربيع العربي بسبب توجسها وعدائها الشديد للإسلاميين، ورؤيتها لأي صعود إسلامي على أنه تهديد وجودي لنظام الحكم[4]. جعل هذا الموقف أبوظبي أقرب إلى ذلك المصري ولذلك دعمت بشدة نظام ما بعد ٣٠ يونيو، إن لم تكن قد ساهمت بالفعل في تمهيد الطريق له. وأخذت الإمارات في التدخل في كل دولة يحتمل أن يلعب فيها الإسلاميون دورا في الحياة السياسية، وهنا يكمن مفتاح فهم تدخلها في مصر وليبيا وسوريا واليمن والعراق وسوريا، ونوعية الأطراف المحلية التي تساندها في كل حالة. يتناقض هذا التوجه بشدة مع ذلك الخاص بقطر، حيث راهنت الأخيرة على الصعود الإسلامي لتمكين نفوذها في المنطقة، وهذا لب الأزمة الخليجية الراهنة[5].

وهكذا يمكن فهم قرار "ترامب" من منظور رهانه على حالة الانقسام العربي من ناحية. ومن ناحية أخرى، الافتراض –عن صدق– أن المواجهة بين إيران والمملكة العربية السعودية سوف تكون عاملا مساعدا لإنهاء الصراع الفلسطيني– الإسرائيلي، من خلال قبول الدول العربية المنخرطة في منافسة مع إيران بالوضع الجديد للقدس في

---

(١) Michael Wolff, *Fire and Furry: Inside the Trump White House*. London: Little, Brown ٢٠١٨.

(٢) عبد الرحمن يوسف، *تيران وصنافير مفتاح صفقة القرن* . ١يونيو . ٢٠١٧ تم الاطلاع: ٢٣ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط:
https://goo.gl/٤iNUzo

(٣) قسم الأرشيف والعلومات، *الموقف الإسرائيلي من الأحداث والتغيرات في مصر في عام: منتصف يونيو ٢٠١٣ – منتصف يوليو ٢٠١٤*. ملف معلومات . بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٤ . ص٦٠

(٤) فريق العمل، *كيف أجهضت الإمارات الربيع العربي؟* .١٢ مارس. ٢٠١٥ تم الاطلاع/ ٢٠ يناير ٢٠١٨. متاح على الرابط:
https://goo.gl/٤Xsmps

(٥) Giorgio Cafiero, *Doha and Abu Dhabi's Incompatible Visions for the Arab World*. December ٨. ٢٠١٧. Accessed February ٢٥, ٢٠١٨.
https://goo.gl/zNV٣hd

مقابل مساعدة واشنطن في مواجهة واضعاف إيران(١)وأنه- وفقا لافتراضات الإدارة الأمريكية- على الرغم من الاعتراضات الصادرة من الدول العربية، إلا أن الحلفاء الرئيسيين الممثلين في المملكة ومصر والإمارات ستكون اعتراضاتهم فقط للاستهلاك المحلي، وسرعان ما ستخف حدتها لاعتماد حكام هذه الدول شخصيا على "ترامب" لمواجهة قضايا أكثر إلحاحا بالنسبة لهم كإيران ومحاربة الإسلاميين بشكل عام(٢).

وبناء على ذلك، يمكن فهم التقارير التي صدرت والخاصة بضغوط كل من السعودية ومصر على كل من ملك الأردن والرئيس الفلسطيني لكيلا يحضرا مؤتمر القمة الإسلامي الذي دعت إليه تركيا لمناقشة قضية القدس، وذلك حتى تقل أهمية المؤتمر بدرجة كبيرة. وكذلك فهم الضغط السعودي على القيادة الفلسطينية للقبول باتفاق سلام، والذي في جوهره اتفاق بشروط إسرائيلية، تكون فيه ضاحية أبو ديس المجاورة لمدينة القدس المحتلة عاصمة "لدولة" الفلسطينية بدلا من القدس الشرقية(٣). فوفقا لمصادر "نيويورك تايمز"، وضع محمد بن سلمان عباس بين خيارين: إما قبول شروط الاتفاق وعلى رأسها التنازل عن القدس وحق العودة، أو أن يتنحى ويفسح الطريق أمام من سيقوم بذلك(٤).

وهكذا جاء كل من السياق الداخلي الأمريكي والإقليمي العربي مواتيا لقرار "ترامب" الخاص بالقدس. إذا ما أضفنا لذلك الطبيعة النرجسية لشخصية مثل "ترامب" وخلفيته كرجل أعمال، تزداد الصورة وضوحا. فالرجل دائما ما يصور نفسه وكل ما يخصه بأنه غير مسبوق، وبالتالي هناك رغبة قوية لديه في تحقيق مجد شخصي من خلال خطوة لم يسبقه إليها أحد، وتصوير نفسه بمظهر الرئيس الجاد صاحب المصداقية. كما أن الرجل معتاد على عقد "الصفقات" والتي تتخذ في عالم الأعمال شكل ضغوطات كبيرة من طرف قوي على طرف آخر للفوز بأفضل الشروط. وهو تحديدا ما سعى إليه "ترامب" من خلال عزل الفلسطينيين عن بيئتهم الإقليمية التقليدية مما يضعف موقفهم التفاوضي، وكذلك تضييق الخناق عليهم من خلال إغلاق مكتب منظمة التحرير في واشنطن، والتهديد بـ -أو بالفعل- حجب الدعم عن وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)(٥). وبالتالي، وهذا هو رهان إدارة "ترامب"، حتى لو ابتعد الفلسطينيون عن طاولة المفاوضات فترة، إلا أنهم سيضطرون للعودة إليها مرة أخرى بالنظر إلى المعطيات الجديدة(٦).

(١) For more, look at:

- Nicos Panayiotides. "The history and politics behind Trump's Jerusalem decision". *Asia Times*. ١٢ January ٢٠١٨. Accessed: February ١٥, ٢٠١٨. Available at: https://goo.gl/aqb٤i٧

(٢) Shibley Telhami,. "Why is Trump undoing decades of U.S. policy on Jerusalem?". Brookings, December ٥. ٢٠١٧Accessed February ٣, ٢٠١٨. https://goo.gl/Xycvoh

(٣) بلال ياسين، صحيفة *:ابن سلمان عرض على عباس أبو ديس بدلا من القدس*. ٤ ديسمبر.٢٠١٧ . تم الاطلاع: ٥ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط:https://goo.gl/vnmVHL

(٤) David Hearst. The axis of Arab autocrats who are standing behind Donald Trump.*Middle East Eye*. December ٧. ٢٠١٧. Accessed January ٢٦, ٢٠١٨.: https://goo.gl/xR١٥B٥

(٥) جيمس راينل، ما الأسباب التي تدفع "ترامب" لنقل سفارة الكيان الإسرائيلي إلى القدس؟ .٦, ديسمبر.٢٠١٧ . تم الاطلاع: ١٠ فبراير ٢٠١٨. متاح على الرابط:https://goo.gl/bxLJ٦u

(٦) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مرجع سبق ذكره.

خاتمة:

يمكن القول، بناء على التحليل السابق، أن قرار "ترامب" الخاص بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس إذا ما نظر إليه من منظور اللعبة المزدوجة، ليس بالضرورة قرارا غير عقلاني كما فهمه البعض. فمن وجهة نظر رجل الأعمال –لا السياسي– الذي أضحى رئيسًا، تفوق حسابات المكسب تلك المتعلقة بالخسارة في هذه اللعبة المزدوجة. على المستوى الداخلي، القرار لم يلق معارضة قوية؛ حيث إن التحيز لصالح إسرائيل هو قضية مفروغ منها لدى الحزبين الجمهوري والديمقراطي. على العكس، يعزز القرار من شعبية "ترامب" لدى القطاعات الانتخابية التي اعتمد –وسيعتمد– عليها في الانتخابات. كما أنه يحول الانتباه عما يتصل باتصالات حملته مع روسيا، على الأقل لبعض الوقت.

خارجيًا، ضمن "ترامب" محدودية رد الفعل لدى الدول المحورية في المنطقة (السعودية ومصر) نظرًا لطبيعة "الصفقات" التي توصل إليها "ترامب" معهما كل على حسب أولوياته. ولحد ما كانت ردود الفعل أقل من المتوقع بشكل كبير، وهو ما ألمحت إليه "نيكي هالي" –سفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة – بعد يومين من القرار بقولها "السماء لا تزال موجودة... السماء لم تسقط"[1]. حتى ما قد يقال عن استفزاز مشاعر المسلمين وتوليد مشاعر الكراهية تجاه الولايات المتحدة لا يعتبر خسارة كبيرة. حيث تدرك الإدارة الأمريكية جيدا وجود هذه المشاعر بالفعل وكيف ينظر إليها كطرف منحاز دائما للجانب الإسرائيلي. ومن ثم فإن مثل هذا القرار لا يخلق صورة غير موجودة أو مشاعر مختلفة، هو فقط يعزز منهما. بل أنه في حالة ما إذا كان "ترامب" على دراية بصعوبة–إن لم يكن استحالة– استكمال الصفقة المقترحة، فإن قراره بنقل السفارة سيعطيه الفرصة لالصاق الفشل بطرف آخر وهو الفلسطينيين[2] على اعتبار أنهم هم الطرف الذي يرفض التفاوض. وهو السيناريو الذي سبق وحدث مع "ياسر عرفات" من قبل.

أما ما يتعلق بتسبب القرار في عزلة الولايات المتحدة دوليا والذي كان أبرز تجلياته تصويت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على رفض القرار في ٢١ ديسمبر ٢٠١٧، يمكن القول إن واشنطن بالفعل في عزلة عن حلفائها التقليديين منذ دخول "ترامب" البيت الأبيض وذلك نتيجة لنمط السياسة التي ينتهجها القائمة على الإثارة واللعب على الخطوط التي تمايز بين الأفراد والمجتمعات والدول، حتى تظل القاعدة التي تدعمه في حالة تخوف من "الآخر" وأكثر اعتمادا عليه في منع "الهمج" من تهديدهم[3].

كما أن التشديد على مبدأ "الولايات المتحدة أولا" قد أثار حلفاء واشنطن في أوروبا، خاصة في ظل تنصل "ترامب" من بعض الاتفاقيات الدولية وعلى رأسها اتفاقية باريس للمناخ التي أولتها أوروبا اهتمامًا خاصًا، وإفصاحه في أكثر من مناسبة عن تذمره من الكلفة المالية التي تتحملها الولايات المتحدة داخل حلف الناتو. ويمكن القول بشكل عام أن الولايات المتحدة في عهد "ترامب" انتقلت –فيما يبدو عن عمد– من قوة النموذج إلى نموذج القوة المتغطرسة. ولعل الأسلوب الذي خاطبت به ممثلة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة "نيكي هالي" ممثلي الدول الآخري قبل وبعد التصويت على القرار المتعلق بالقدس هو أكبر

---

(١) Alan Yuhas, *US seeks to quell global outrage over Jerusalem: 'The sky hasn't fallen'.* December ١٠. ٢٠١٧. Accessed February ٢٥, ٢٠١٨. https://goo.gl/Qo٣Vca

(٢) Shibley Telhami, Op. Cit.

(٣)Ishaan Tharoor, *For Trump, Jerusalem is an extension of a global culture war.* December ٧. ٢٠١٧. Accessed February ٢, ٢٠١٨. https://goo.gl/j٢hQ٩N

تجسيد على هذا النموذج المتغطرس الذي انكشف القناع عنه تماما تحت إدارة "ترامب"[١]

على كل الأحوال، لا ينبغي التعامل مع قرار "ترامب" على أنه صادم أو مفاجأة؛ حيث يكشف تاريخ السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام، والقدس بشكل خاص، عن أن واشنطن لم تكن يومًا جادة أوصادقة أو وسيطًا نزيها في المبادرات التي سبق وقدمتها لحل القضية الفلسطينية. ويتبين الآن أن مثل هذه المبادرات هدفت إلى إدارة الصراع وليس حله، ووفرت المزيد من الوقت لصالح إسرائيل لفرض حقائق على أرض الواقع يُجبر العرب والفلسطينيين على قبولها فيما بعد. ولذلك، فإن السؤال الأصح لا يتعلق بمدى عقلانية قرار "ترامب"، ولكن مدى عقلانية أن يظل العرب يراهنون على الدور الأمريكي؟!

*****

(١) Nicole Gaouette, Richard Roth, Michelle Kosinski, *Haley's vow to 'take names'upsets diplomatic norms at UN.* December ٢١. ٢٠١٧. Accessed February ٢٧, ٢٠١٨.
https://goo.gl/٢ZCgof



ردود الأفعال حول قرار ترامب.. محاولة للرصد والفهم

محمد الديب(*)

مقدمة

صدقت التوقعات التي وصفت ترامب بأن موقفه هو الأكثر وضوحًا بشأن نقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس(١)، فقد سبقه رؤساء أمريكيون –جمهوريون وديموقراطيون– أعلنوا عن عزمهم على نقل السفارة أثناء حملاتهم الانتخابية، لكنهم لم ينفذوا هذه الوعود، حتى أعلن ترامب ذلك واصفًا نفسه بأنه وعد فأوفى على عكس من سبقوه. ونحاول في السطور التالية رصد مواقف الدول العربية والإسلامية والمواقف الدولية تجاه القرار الأمريكي، وسينصب التركيز بالأساس على المواقف الرسمية للدول، وتوجهات المنظمات الإقليمية والدولية، باعتبار القرار الأمريكي تسبب في اندلاع أزمة دولية جديدة يتعدد فيها الفاعلون المؤثرون، وعلى رأسها الدول والمنظمات الإقليمية والدولية.

أولًا– المواقف الرسمية العربية:

١– فلسطين

أدانت كافة الأطياف الفلسطينية القرار الأمريكي، وأكَّدت حكومة الوفاق الوطني الفلسطيني في بيان لها، رفض واستنكار الإجراءات الأميركية التي أعلن عنها ترامب، إذ قال المتحدث الرسمي باسم الحكومة، يوسف المحمود، إن "الشرعية الدولية تتحدث عن مدينة تحت الاحتلال وهي عاصمة دولة فلسطين، ولا تتحدث عن جواز منحها للآخرين بواسطة خطاب يلقيه ترامب، هذا أمر لم يحدث في تاريخ الدول ولا في تاريخ البشرية إلا في الفترات الأشد ظلامًا"(٢).

ووصف خطاب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس إسماعيل هنية(٣) أن القرار يؤسس لنهاية مرحلة سياسية وبداية أخرى، وذكر فيه أن " الانحياز السافر من الإدارة الأمريكية للعدو الصهيوني، وهذا التحالف الشيطاني الذي يقرر وحده مصير القدس ومكانة القدس، يستوجب منا وضوحًا كالشمس وقولًا لا لبس فيه ولا تأويل ولا غموض، ليؤكِّد اليوم بأن القدس موحدة لا شرقية ولا غربية، هي فلسطينية عربية إسلامية، وهي عاصمة دولة فلسطين كل فلسطين"، ودعا إلى اتخاذ عدَّة مواقف وقرارات، منها التحلل من اتفاقية أوسلو وإعلان وفاة عملية التسوية، والإسراع في خطوات المصالحة الفلسطينية، وإطلاق شرارة انتفاضة ضد الاحتلال، ورفع العقوبات عن غزة، وإيقاف التنسيق الأمني مع الاحتلال في الضفة الغربية.

٢– مصر

قبل إعلان ترامب بيومين أجرى سامح شكري وزير الخارجية المصري اتصالًا هاتفيًّا(٤) بوزير الخارجية الأمريكي السابق "ريكس تيلرسون"، تناول مسار العلاقات الثنائية بين البلدين، وتطورات الاوضاع الإقليمية على خلفية ما تردَّد إعلاميًّا وقتها بشأن احتمالات إعلان اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، وصرح أحمد أبو زيد –المتحدث الرسمي باسم الوزارة– بأن شكري تناول خلال الاتصال التعقيدات

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) انظر تقدير موقف بعنوان "سيناريوهات ترامب لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس"، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، الرابط: https://goo.gl/EuprxJ

(٢) ردود أفعال فلسطينية رافضة ومندِّدة بإعلان القدس عاصمة إسرائيل، موقع العربي الجديد، الرابط https://goo.gl/JXtVVf

(٣) الخطاب بالكامل متاح على الرابط: https://goo.gl/qpnGQw

(٤) موقع وزارة الخارجية المصرية، الرابط : https://goo.gl/ma١WzF

المرتبطة باتخاذ الولايات المتحدة مثل هذا القرار، وتأثيراته السلبية المحتملة على الجهود الأمريكية لاستئناف عملية السلام.

عقب إعلان ترامب رسميًّا؛ صدر بيان عن وزارة الخارجية عبَّرت فيه عن استنكارها لقرار الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة إسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها، ورفضها لأية آثار تترتب على ذلك.

٣- الأردن

أصدرت الحكومة الأردنية[١] بيانًا على لسان الناطق الرسمي باسم الحكومة أعلن فيه رفض بلاده للقرار الذي يزيد التوتر ويكرِّس الاحتلال، ونبَّه إلى أن القرار الذي يستبق نتائج مفاوضات الوضع النهائي يؤجج الغضب، ويستفز مشاعر المسلمين والمسيحيين على امتداد العالمين العربي والإسلامي.

٤- السعودية

أصدر الديوان الملكي[٢] في السابع من ديسمبر بيانًا ردًّا على القرار، جاء فيه: "تابعت حكومة المملكة العربية السعودية -بأسف شديد- إعلان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارتها إليها. وقد سبق لحكومة المملكة أن حذَّرت من العواقب الخطيرة لمثل هذه الخطوة غير المبررة وغير المسؤولة، وتعرب عن استنكارها وأسفها الشديد لقيام الإدارة الأمريكية باتخاذها، بما تمثله من انحياز كبير ضد حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية والثابتة في القدس والتي كفلتها القرارات الدولية ذات الصلة وحظيت باعتراف وتأييد المجتمع الدولي".

٥- المغرب[٣]

قبيل القرار بعث ملك المغرب -بصفته رئيسًا للجنة القدس المنبثقة عن منظمة التعاون الإسلامي- رسالةً إلى ترامب، جاء فيها: "أودُّ أن أنقل إلى فخامتكم انشغالي الشخصي العميق، والقلق البالغ الذي ينتاب الدول والشعوب العربية والإسلامية، إزاء الأخبار المتواترة بشأن نية إدارتكم الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، ونقل سفارة الولايات المتحدة الأمريكية إليها، ولا يخفى على فخامتكم ما تشكِّله مدينة القدس من أهمية قصوى، ليس فقط بالنسبة لأطراف النزاع، بل ولدى أتباع الديانات السماوية الثلاث، فمدينة القدس، بخصوصيَّتها الدينية الفريدة، وهويتها التاريخية العريقة، ورمزيتها السياسية الوازنة، يجب أن تبقى أرضًا للتعايش، وعَلَمًا للتساكن والتسامح بين الجميع"، مبينًا أن هذه الخطوة ستؤثر سلبا على آفاق إيجاد تسوية عادلة وشاملة للنزاع الفلسطيني-الإسرائيلي، وذلك اعتبارًا لكون الولايات المتحدة الأمريكية -على حد قوله- أحد الرعاة الأساسيين لعملية السلام وتحظى بثقة جميع الأطراف.

أعقب ذلك استدعاء وزير الشؤون الخارجية والتعاون الدولي[٤] القائمةَ بأعمال السفارة الأمريكية وتسليمها رسالة عاهل المغرب إلى ترامب، واستدعى كذلك سفراء كل من روسيا والصين وفرنسا والمملكة المتحدة المعتمدين في الرباط، باعتبارهم أعضاء دائمين بمجلس الأمن للأمم المتحدة، وذلك بحضور السفير الفلسطيني بالرباط جمال الشوبكي.

٦- الجزائر[٥]

جاء في بيان لوزارة الشؤون الخارجية الجزائرية: "لقد اطَّلعت الجزائر بانشغال كبير على قرار الإدارة الأمريكية

---

(١) الأردن: قرار أميركا بشأن القدس انتهاك للشرعية الدولية، موقع الجزيرة نت، الرابط https://goo.gl/e٩xEhp

(٢) بيان من الديوان الملكي السعودي حول القرار الأميركي، موقع البيان الإلكتروني، الرابط https://goo.gl/nrRsDT

(٣) رسالة الملك محمد السادس إلى ترامب بخصوص القدس، الرابط: https://goo.gl/mH١SA٤

(٤) موقع رأي اليوم، الرابط https://goo.gl/SfT٨Lf

(٥) موقع وزارة الشؤون الخارجية الجزائرية، الرابط : https://goo.gl/iuwnn٩

المتضمن الاعتراف بالقدس الشريف عاصمة لإسرائيل"، وأضاف البيان أن الجزائر "تندِّد بشدة هذا القرار الخطير باعتباره انتهاكًا صارخًا للوائح مجلس الأمن ذات الصلة والشرعية الدولية، وباعتباره يقوِّض إمكانيةَ بعث مسار السلام المتوقف منذ مدَّة طويلة".

٧- تونس

أصدرت وزارة الشئون الخارجية التونسية بيانًا[١] أعربت فيه عن عميق انشغالها لما يمثله القرار من مساس جوهري بالوضع القانوني والتاريخي للمدينة وخرقٍ لقرارات الأمم المتَّحدة ذات الصلة وللاتِّفاقات بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي التي تمَّت برعاية أمريكية، والتي تنص على أنَّ وضع مدينة القدس يتمُّ تقريره في مفاوضات الحل النهائي.

واستدعى الرئيس التونسي، الباجي قائد السبسي، السفير الأميركي في تونس، لإبلاغه رفض القرار[٢].

٨- موريتانيا[٣]

أصدرت الخارجية الموريتانية بيانًا استنكرت فيه القرار وعبَّرت عن رفضها المطلق لكل الآثار المترتبة على هذا القرار وما يعنيه من انتهاك للمشاعر باعتبار مكانة القدس الروحية والتاريخية لدى الشعوب العربية والإسلامية ومحبي السلام في العالم. وقالت إن "انتهاج الأحادية بواسطة القرارات المخالفة للشرعية الدولية لا يمكن أبدًا أن يغيِّر الوضعية القانونية لمدينة القدس الشريف التي تستند إلى جملة من القرارات الصادرة عن مجلس الأمن".

٩- السودان[٤]

صرح السفير قريب الله خضر -الناطق الرسمي باسم الخارجية السودانية- بأن اعتراف ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل يعد استفزازًا لجميع أهل الديانات ويشكِّل تهديدًا للأمن والسلم الدوليين، وستكون له تداعيات خطيرة على أمن واستقرار المنطقة، وأن السودان يدين هذا القرار ويؤكد التزاماته وتضامنه الثابت مع الشعب الفلسطيني الشقيق في قضيته العادلة وحقه الشرعي في إقامة دولته الفلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

١٠- الكويت

اعتبرت وزارة الخارجية الكويتية اعتراف الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارتها إليها مخالفة للقرارات الدولية، وأعرب مصدر رسمي عن قلقه من التداعيات الخطيرة لهذا القرار بما يؤدِّيه من تقويض لمسيرة السلام، فضلًا عما يمثله من تهديد مباشر للأمن والاستقرار في المنطقة، التي تعيش وضعًا أمنيًّا صعبًا ودقيقًا.

١١- البحرين

أصدرت وزارة الخارجية البحرينية بيانًا[٥] أكَّدت فيه على أن قرار الإدارة الأمريكية الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل يهدِّد عملية السلام في الشرق الأوسط ويعطِّل جميع المبادرات والمفاوضات للتوصُّل إلى الحل النهائي المأمول، ويُعَدُّ مخالفة واضحة للقرارات الدولية التي تؤكِّد على الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني وعدم المساس بها، وعلى أن القدس الشرقية هي أرض محتلة يجب إنهاء احتلالها.

(١) الصفحة الرسمية للوزارة على موقع فيس بوك، يمكن الاطلاع على البيان من الرابط https://goo.gl/zs٨XGG

(٢) الرئيس التونسي يستدعي السفير الأمريكي بشأن القدس، موقع القدس العربي، الرابط http://www.alquds.co.uk/?p=٨٤٠٩٥٨

(٣) موريتانيا ترفض قرار ترامب حول القدس وترفض ما يترتب عليه، موقع مصراوي، الرابط https://goo.gl/m٢vSLa

(٤) رفض واسع في السودان لقرار ترامب جعل القدس عاصمة إسرائيل، موقع القدس العربي، الرابط: https://goo.gl/tCd٩C٤

(٥) موقع وزارة الخارجية البحرينية، الرابط: https://goo.gl/BmceF١

١٢- قطر

ذكر موقع وزارة الخارجية القطرية[(١)] رفض قطر التام لأي إجراءات تدعو للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وأكَّد مصدر مسؤول بوزارة الخارجية، في تصريح لوكالة الأنباء القطرية، أن من شأن مثل هذه الإجراءات تقويض الجهود الدولية الرامية إلى تنفيذ حل الدولتين، وجدَّد المصدر موقف دولة قطر الداعم للقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني الشقيق وفي مقدمتها إقامة دولته المستقلة ذات السيادة على حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ وعاصمتها القدس الشريف.

١٣- العراق

أصدرت الخارجية العراقية بيانًا[(٢)] أكَّدت فيه موقف العراق الدائم والداعم للقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطيني الشقيق وفي مقدمتها إقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشريف، وتُبين رفض العراق حكومة وشعبًا للقرار، لما فيه من تَعَدٍّ على هوية المدينة وقيمتها الدينية والعقائدية لدى أبناء الديانات كافَّة والمسلمين خاصَّة، أعقب ذلك استدعاء السفير الأمريكي لتسليمه مذكرة احتجاج على القرار.

١٤- الإمارات

صرحت وزارة الخارجية والتعاون الدولي في بيان[(٣)] لها أن مثل هذه القرارات الأحادية تعد مخالفة لقرارات الشرعية الدولية ولن تغير من الوضعية القانونية لمدينة القدس باعتبارها واقعة تحت الاحتلال ويعتبر انحيازًا كاملا ضد حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية والثابتة في القدس والتي كفلتها القرارات الدولية ذات الصلة وحظيت باعتراف وتأييد المجتمع الدولي، وأعربت الوزارة عن بالغ القلق من التداعيات المترتبة على هذا القرار على استقرار المنطقة لما ينطوي عليه من تأجيج مشاعر الشعوب العربية والإسلامية نظرًا لمكانة القدس في الوجدان العربي والإسلامي.

١٥- عُمان

عقب صدور القرار أعربت الحكومة العمانية[(٤)] عن أسفها الشديد، وذكرت وكالة الأنباء العمانية أن سلطنة عمان تؤكد أن مثل هذا القرار لا قيمة له، وأن هذه المسائل يجب أن تُترك للأطراف الفلسطينية والإسرائيلية للتفاوض عليها في إطار مفاوضات الحل النهائي.

١٦- لبنان

أصدرت وزارة الخارجية والمغتربين[(٥)] بيانًا صرَّحت فيه بأن إعلان الرئيس الأميركي دونالد ترامب الاعتراف بمدينة القدس عاصمة لإسرائيل، والإذن بنقل سفارة بلاده إليها خطوة مدانة ومرفوضة تتنافى ومبادىء القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة التي اعتبرت القدس الشرقية جزءًا من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، ورفضت وأدانت بشدَّة كل السياسات والإجراءات التي تؤدِّي إلى إجهاض حل الدولتين وإلى تشويه هوية مدينة القدس العربية وكل محاولات تغيير الوضع التاريخي والقانوني للأراضي المقدسة، كما حذَّرَتْ من مخاطر ضرب قيم المحبة والتسامح بين أتباع الديانات السماوية.

بناءً على رصد المواقف السابقة يتَّضح أن ردود الأفعال لم تخرج عن الآتي:

- بيانات رسمية للتنديد بالقرار، والتحذير من عواقبه على عملية السلام، والتذكير بكونه مخالفًا للقرارت الدولية، ومعيقًا لحل الدولتين، وهذا ما اشتركت فيه كل الدول العربية بلا استثناء،

---

(١) دولة قطر ترفض أي إجراءات تدعو للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، موقع وزارة الخارجية القطرية، الرابط:
https://goo.gl/ZfnBsm

(٢) موقع وزارة الخارجية العراقية، الرابط https://goo.gl/CxsfKx

(٣) دولة الإمارات تستنكر بشدة القرار الأمريكي الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، موقع وزارة الخارجية الإماراتية، الرابط:
https://goo.gl/HGNtrq

(٤) السلطنة تعرب عن أسفها لقرار ترامب حول القدس، موقع الرؤية الإلكترونية، الرابط https://goo.gl/vDRBZw

(٥) الخارجية تُدين إعلان ترامب القدس عاصمة لإسرائيل، موقع وزارة الخارجية والمغتربين اللبنانية، الرابط https://goo.gl/uvPhpq

وتشابهت الخطابات إلى حدٍّ كبير في التعبير عن مشاعر"الاستياء" و"الأسف" و"القلق".

- استدعاء السفير الأمريكي وإبلاغه التنديد بالقرار،كما حدث في دول المغرب وتونس والعراق.
- طلب انعقاد جلسة استثنائية للمجلس الوزاري لجامعة الدول العربية، كما فعلت فلسطين والأردن وجيبوتي.
- الدعوة إلى انتفاضة جديدة والإعلان صراحةً عن انتهاء عملية التسوية، وهو ما أعلنته حركة حماس وحدها، خلافًا لباقي البيانات الرسمية التي جعلت قرارات عملية التسوية -التي لم يلتزم بها الجانب الإسرائيلي- معيارًا على عدم مشروعية قرار ترامب.

لعل مراجعة السياقات التي سبقت إعلان القرار تقودنا إلى أن الظروف الإقليمية أصبحت مواتية ومُهيِّئة لمثل هذا القرار، ومن ثم فردود الأفعال الباهتة ليست بالغريبة، وإنما هي امتداد طبيعي لسياسات الأنظمة العربية في الفترة الأخيرة، لاسيما الدول الفاعلة التي يناط بها قيادة المنطقة كمصر والسعودية.

فعلى صعيد العلاقات المصرية مع إسرائيل[١] ليس من المبالغة القول أنها تشهد تعاونًا غير مسبوق، والأدلة تكثر على ذلك، منها تصريحات السيسي في الأمم المتحدة التي وجَّهها للشعب الإسرائيلي والقيادة الإسرائيلية بأهمية إيجاد حل للقضية الفلسطينية، وسحب مصر للقرار المقدَّم إلى مجلس الأمن الذي يدين الاستيطان الإسرائيلي للأراضي العربية المحتلة، ومنها على مستوى العلاقات الدبلوماسية لقاء السيسي بنتنياهو في سبتمبر ٢٠١٧، واللقاءات المتعدِّدة التي جمعت السيسي ووزير خارجيته بقيادات اللجنة الأمريكية اليهودية، بالإضافة إلى استقبال شكري لوفد الصندوق اليهودي المتحد من الولايات المتحدة الأمريكية، وهي منظمة أمريكية غير حكومية يتشكل أغلب أعضائها من مسئولين أمريكيين سابقين وأعضاء بالكونجرس ورجال أعمال في مجالات مختلفة.

وفي المقابل فلم يَدَعِ الجانبُ الإسرائيليُ فرصة إلا أكَّد فيها دعمَه للنظام المصري ضد "الإرهاب" بعد كل عملية تخريبية، في ظل الحديث عن تنسيق مصري إسرائيلي، مكَّن طيران الأخير من شَنِّ ما يقارب من مئة ضربة جوية داخل سيناء متخطيًا الحدود المصرية، ولم يعد هناك داع لوساطة أمريكية للتنسيق بين البلدين، بل العكس، فقد تساعد إسرائيل في تبرير المواقف المصرية لدى الإدارة الأمريكية.

ومن ناحية السياسات السعودية[٢] فقد صار التهديد الإيراني مبرِّرًا لتحوُّل السياسات الإقليمية، بدايةً من التحالف السُّني الذي يعتبر إيران وأذرعتها في المنطقة -كحزب الله والحوثيين- الخطرَ الأكبر، وتسعى المملكة لتقود عملية السلام مع إسرائيل بدلًا من مصر أو بالتنسيق معها، سعيًا للحصول على رضا القيادة الأمريكية الجديدة، خاصَّة مع التغيرات الداخلية الجذرية التي يقودها ولي العهد محمد بن سلمان، وذلك في إطار تكوين تحالف في المنطقة -ولا بأس أن يضم الكيان الصهيوني- في مواجهة إيران والحركات الإسلامية كذلك، من أجل الحصول على شرعية داخلية وإقليمية.

الفارق الكبير الذي نلمسه بين التصريحات الرسمية للحكومات والأنظمة العربية يجعلنا نستعير طرح أستاذ العلاقات الدولية جون ميرشايمر وهو يتحدث عن "الكذب

(١)انظر: د. ناهد عز الدين، التحول في السياسة المصرية تجاه إسرائيل، **قضايا ونظرات**، العدد الثامن، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، يناير ٢٠١٨).

(٢) انظر: عمر سمير، التحول في مواقف السعودية والإمارات تجاه إسرائيل، **قضايا ونظرات**، العدد الثامن، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، يناير ٢٠١٨).

في العلاقات الدولية"[1]، ويفرق بين نوعين: أولهما يُعرف بـ"الكذبة الاستراتيجية" والتي يستخدمها القادة ذريعة للحفاظ على مصلحة بلدانهم في وجه التقلُّبات السياسية مع الغير، وثانيهما يُعرف بـ"الأكاذيب الشخصية الأنانية" التي لا علاقة لها بمصلحة الدولة، ويزعم ميرشايمر الذي ركَّز في كتابه على الأكاذيب الاستراتيجية أن القادة –ويركِّز بالطبع على رؤساء أمريكا– لا يكذبون لأنهم ضعفاء أو فاسدون، بل لأن الكذب أحيانًا يكون وسيلة مفيدة للدول في عالم تتجاذبه المخاطر، والسؤال الذي نطرحه في سياق عرض مواقف الدول العربية ولن نجيب عليه؛ هل حقًّا يَصْدُقُ قادةُ الدول العربية وحكوماتها الرسمية في التصريحات والمواقف التي لم تثمر شيئًا منذ عشرات السنين، أم أنهم يلجؤون للأكاذيب الشخصية وهم يَعون جيدًا أن هذه المواقف لن تؤتي ثمارها!

يجب التأكيد هنا أن تلك الردود الرسمية بالإضافة إلى الأزمات الداخلية التي تعصف بشعوب المنطقة لم تمنعهم من التعبير عن تضامنهم الكامل والصادق أيضًا تجاه القضية الفلسطينية وتنديدهم بالقرار. ظهر ذلك في المظاهرات التي خرجت في شوارع القاهرة[2] بعد صلاة الجمعة من الجامع الأزهر، وعلى سلالم نقابة الصحفيين المصرية، رافعين لافتات وهاتفين بشعارات تندِّد بالقرار، ولعل هتاف "عيش.. حرية.. القدس عربية" يوضِّح أن حل القضية الفلسطينية يرتبط بالضرورة بنيل شعوب المنطقة العربية حريتها وتخلُّصها من الاستبداد.

كانت بداية التحرُّكات الشعبية بالتأكيد في فلسطين المحتلة، فقد تدفَّقت المظاهرات في رام الله وبيت لحم والخليل، واندلعت مواجهات مع قوات الاحتلال التي استخدمت فيها الغاز المسيل للدموع والرصاص الحي والمطاطي في مواجهة شُبَّان يرمون حجارة ويشعلون الإطارات المطاطية.

كذلك خرجت مظاهرات في الأردن والسودان والمغرب وتركيا، وكذلك إندونيسيا وماليزيا، وتظاهر مئات الفلسطينيين والعرب والأتراك وسط مدينة شتوتجارت الألمانية، ونظم محتجُّون اعتصامًا أمام السفارة الفلسطينية في موسكو احتجاجًا على القرار، وهتف بعض الحضور بشعارات المقاومة والكفاح المسلح.

ثانيًا– ردود فعل دول الجوار:

١– تركيا

صرح[3] المتحدث الرسمي باسم رئاسة الجمهورية التركية أن اعتراف الرئيس الأمريكي بالقدس لإسرائيل، يعتبر في حكم الملغي بالنسبة لأنقرة، وأنه تصرف غير مسئول، وصرَّح أردوغان[4] قائلًا: "القدس تعتبر مكانًا لعبادة المسلمين والمسيحيين واليهود بشكل عام، إلا أن الطابع الإسلامي هو الأكثر ظهورًا، حيث إن الأقصى كان القبلة الأولى للمسلمين، وإن اعتراف الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل يُلقي بالمنطقة والعالم داخل حلقة من نار، لافتًا إلى أن القادة السياسيين يعملون لأجل الإصلاح، وليس لإثارة الفوضى"، ودعا أردوغان لعقد قمة استثنائية لمنظمة التعاون الإسلامي في إسطنبول لبحث تداعيات القرار الأمريكي وكيفية مجابهته.

٢– إيران

أصدرت الخارجية الإيرانية بيانًا[5] ردًّا على القرار أكَّدت فيه أن القدس "جزء لايتجزَّأ من فلسطين، وإحدى

---

(١) جون ميرشايمر، **لماذا يكذب القادة: حقيقة الكذب في السياسة الدولية**، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٤٣، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ٢٠١٦).

(٢) مظاهرات بالقاهرة تنديدا برد فعل السيسي والأنظمة العربية على قرار ترامب بشأن القدس، موقع القدس العربي، الرابط: https://goo.gl/iBiCiw

(٣) الرئاسة التركية: قرار ترامب بشأن القدس في حكم الملغي بالنسبة لنا والعالم، ترك برس، الرابط https://goo.gl/yj٢aw٢

(٤) أردوغان: اعتراف ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل يلقي المنطقة في حلقة من نار، ترك برس، الرابطhttps://goo.gl/ojPEUF

(٥) إيران ترد على قرار ترامب بتحويل القدس عاصمة لإسرائيل، قناة العالم، الرابط https://goo.gl/٩nwAVZ

أهم الأماكن الإسلامية الثلاثة المقدسة وتتمتَّع بمكانة وأهمية خاصَّة لدى المسلمين"، ووصف البيان قرار ترامب بأنه "تحريضي وغير حكيم، وأنه لا يهدد فقط الأمن والاستقرار بالمنطقة بل يفضح النوايا الأمريكية السيئة".

ثالثًا- ردود فعل الدول الأوربية[١]

أحدث قرار ترامب شرخًا في التحالف المعتاد بين ضفتي الأطلسي، فقد كان رفض القرار والتنديد به هو الموقف السائد بين الدول الأوربية منفردة أو مجتمعة في الاتحاد الأوربي، فقد صرَّحت ميركل قائلة: "لا نوافق على قرار ترامب بشأن القدس"، وذكرت أنها تتمسَّك بقرارات الأمم المتحدة التي "توضِّح أنه يتعيَّن التفاوض على وضع القدس ضمن مفاوضات حلِّ الدولتين، ولهذا نريد إعادة إحياء عملية السلام على هذا الأساس"، وكذلك وصفت رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي قرار ترامب بأنه "لا يساعد آفاق السلام في المنطقة"، وأن "السفارة البريطانية ستظل في تل أبيب، وليست لدينا خطط لنقلها إلى مكان آخر".

الجدير بالذكر أن وزير خارجية ليتوانيا كان قد دعا رئيس الوزراء الإسرائلي نتنياهو إلى زيارة الاتحاد الأوربي في بروكسل بشكل منفرد، وهي الزيارة الأولى لرئيس وزراء إسرائيلي منذ ٢٢ عامًا، وهو ما أثار الغضب داخل المنظمة، مما دفع مسؤولة السياسة الخارجية الأوروبية إلى دعوة الرئيس الفلسطيني محمود عباس إلى زيارة مماثلة في يناير، وكانت فيديريكا موغيريني قد أعلنت معارضتها للقرار وأن موقفها يحظى بتأييد جميع وزراء الخارجية في الدول الثماني والعشرين الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، وشدَّدَتْ على أن "السياق العام هش للغاية وأن إعلان القرار ينطوي على احتمال العودة بالمنطقة إلى حقبة أكثر ظلامية مما عايشناها من قبل، وقد أبلغت موغيريني وزير الخارجية الأميركي، ريكس تيلرسون، خلال اجتماعهما في بروكسل عشية خطاب ترامب "بأننا نؤمن أن الحل الواقعي الوحيد للنزاع بين إسرائيل وفلسطين يقوم على أساس وجود دولتين مع اعتبار القدس عاصمة لدولة إسرائيل وعاصمة لفلسطين"، وحذَّرت من مغبَّة "تصعيد التوترات في المناطق القريبة من المواقع المقدسة وفي المنطقة أيضًا بسبب أن ما يحدث للقدس يهم كل المنطقة وكل العالم".

رابعًا – ردود أفعال المنظمات الإقليمية والدولية

١) جامعة الدول العربية

كانت تصريحات[٢] أحمد أبو الغيط، الأمين العام لجامعة الدول العربية هي أول رد فعل رسمي للجامعة عقب قرار ترامب، وحملت تصريحاته عدَّة رسائل تحمل استنكارًا لقرار ترامب، وتأكيدًا على مكانة مدينة القدس في قلوب العرب جميعًا مسلمين ومسيحيين، مذكرًا بمخالفة تلك الخطوة لقرارات مجلس الأمن والقانون الدولي، مناشدًا كافَّة زعماء العالم المحبِّين للسلام الإسراع بالتواصل مع الولايات المتحدة لتجميد تطبيق هذه الخطوة المشؤومة.

رافق ذلك اجتماع لمجلس الجامعة على المستوى الوزاري في التاسع من الشهر ذاته بمقر الأمانة العامة في القاهرة بناءً على طلب من دولتي الأردن وفلسطين لبحث تداعيات القرار الأمريكي، أكَّد فيه على التمسُّك بقرارات مجلس الأمن التي تجعل القرارت أحادية الجانب لن تُوجد حقًّا ولن تُنشئ التزامًا، وقرَّر البيان ما أبرزه:

١- رفض القرار الأمريكي باعتباره خرقًا للقانون الدولي وقرارات مجلس الأمن، وهو ما يؤدِّي إلى تعويق جهود تحقيق السلام، ويهدد بدفع المنطقة إلى هاوية المزيد من العنف والفوضى وإراقة الدماء.

---

(١) محمد الشرقاوي: ما بعد قرار ترامب بشأن القدس.. مستقبل عملية السلام في الشرق الأوسط، مركز الجزيرة للدراسات، الرابط:
https://goo.gl/٢KXHF١

(٢) الموقع الرسمي لجامعة الدول العربية، الرابط :
https://goo.gl/G٧kf٤Z

٢- التحذير من المحاولات الإسرائيلية العبث بالقدس ومحاولة تغيير الهوية العربية للمدينة، والاعتداء على مقدساتها الإسلامية والمسيحية.

٣- مطالبة الولايات المتحدة بإلغاء القرار، والعمل مع المجتمع الدولي على إلزام إسرائيل تنفيذ قرارات الشرعية الدولية وإنهاء احتلالها للأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة منذ الرابع من يونيو ١٩٦٧.

٤- العمل على استصدار قرار من مجلس الأمن يؤكِّد على بطلان القرار الأمريكي، وانعدام أثره القانوني.

٥- تكليف لجنة مبادرة السلام العربية بتشكيل وفد من أعضائها للتواصل مع المجتمع الدولي والمؤسسات الدولية للحدِّ من التَّبِعات السلبية للقرار الأمريكي، والعمل على إطلاق جهد فاعل ومنهجي للضغط على إسرائيل لالتزام قرارات الشرعية الدولية.

٦- التنسيق في ضوء هذا القرار مع منظمة التعاون الإسلامي والاتحاد الإفريقي والاتحاد الأوروبي ودول عدم الانحياز والدول الصديقة.

٧- الالتزام بالقرارات السابقة بزيادة موارد صندوقي القدس والأقصى دعمًا لصمود الشعب الفلسطيني.

استأنف المجلس اجتماعه على المستوى الوزاري في دورته غير العادية في الأول من فبراير بالقاهرة، لمتابعة القرارات السابق ذكرها، بالإضافة إلى عدَّة نقاط، منها الترحيب بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة[١] الذي أكَّد على أن أي قرارات أو إجراءات تهدف إلى تغيير طابع مدينة القدس الشريف أو مركزها أو تركيبتها الديموجرافية ليس لها أثر قانوني، وأنها لاغية أو باطلة، والإشادة بمؤتمر الأزهر العالمي لنصرة القدس، ودعوة الفصائل والقوى الفلسطينية لسرعة إتمام المصالحة الوطنية.

١) منظمة التعاون الإسلامي

كانت منظمة التعاون الإسلامي أسبق بخطوة بخصوص قرار ترامب بتهويد القدس، فقد بادرت بعقد اجتماع استثنائي[٢] على مستوى المندوبين الدائمين للدول الأعضاء في مقر المنظمة بجدة في الرابع من ديسمبر، أعربت فيه عن قلقها من محاولات تغيير الوضع التاريخي والقانوني لمدينة القدس المحتلة، وأدانت المواقف والتصريحات الرامية لذلك، مؤكدةً على الطابع المركزي للقضية الفلسطينية وفي القلب منها القدس، باعتبارها المقر الدائم والنهائي للمنظمة، كما دعا إلى التنسيق مع جامعة الدول العربية، وسفراء المجموعة الإسلامية في الأمم المتحدة لاسيما مجلس الأمن لاتخاذ التدابير اللازمة للتحرُّك في الوقت المناسب لمواجهة الإجراءات الرامية لتغيير وضع القدس.

أوصى البيان كذلك بعقد اجتماع استثنائي للمنظمة في حال اتخاذ الولايات المتحدة هذه الخطوة، وهو ما حدث بالفعل في الثاني عشر والثالث عشر من ديسمبر في إسطنبول بناءً على دعوة تركية، وحمَّلت القمة في بيانها الختامي الإدارة الأمريكية المسؤولية الكاملة عن جميع تداعيات عدم التراجع عن هذا القرار غير القانوني واعتبرته بمثابة إعلان عن انسحاب الإدارة الأمريكية من ممارسة الدور الذي كانت تضطلع به في رعاية السلام، كما اعتبرته مكافأة لإسرائيل على تنكُّرها للاتفاقات وتحدِّيها للشرعية الدولية.

وفي دعوة لتدويل رعاية السلام، دعا البيان[٣] الأطراف الدولية الفاعلة إلى رعاية مسار سياسي متعدِّد الأطراف، يهدف إلى إطلاق عملية سلام ذات مصداقية

(١) سيأتي ذكره عند الحديث عن موقف الأمم المتحدة.

(٢) اجتماع مندوبي "التعاون الإسلامي" يوصي بعقد اجتماع وزاري طارئ وقمة إسلامية في حال الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، الموقع الرسمي للمنظمة، الرابط: https://goo.gl/afyx٥X

(٣) انظر البيان الختامي على الرابط https://goo.gl/n٤nhyJ

برعاية دولية تهدف كذلك إلى تحقيق السلام القائم على حل الدولتين، وقال الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، الدكتور يوسف بن أحمد العثيمين: "إن انعقاد القمة يعد دليلا قاطعا على المركزية التي تتحلى بها قضية فلسطين والقدس بين الأمة الإسلامية، خاصة وأنها تنعقد بعد أن تم المساس بقدسية وعروبة مدينة القدس الشريف نتيجة الإعلان الأحادي، للإدارة الأمريكية".

بعد عرض موقفي كل من جامعة الدول العربية ومنظمة التعاون الإسلامي، وهما الدائرتان الأقرب لتأييد واحتضان القضية الفلسطينية والدفاع عنها، ثمة نقاط مهمة تعليقًا على هذه المواقف:

- شهد العالم العربي والإسلامي في السنوات السبع الماضية عدة أزمات واضطرابات أثرت سلبًا على أداء كلا المنظمتين، فالمنطقة العربية شهدت انقسامات حادَّة مع اندلاع ثورات الربيع العربي، وزاد الأمر سوءًا الأزمة الخليجية التي بدأت مع مقاطعة الدول الأربع (مصر والسعودية والإمارات والبحرين) لدولة قطر في الخامس من يونيو من العام المنصرم، وهو ما أحدث أزمة في النظام الإقليمي العربي فوق أزماته المزمنة، وانعكس ذلك على مجلس دول التعاون الخليجي الذي أصبح مهددًا بالتفكك نتيجة لهذه الأزمة.
- بخصوص منظمة التعاون الإسلامي فقد تضرَّر أداؤها كثيرًا بسبب الخلافات بين أعضائها، لاسيما العلاقات بين تركيا من جهة ومصر والسعودية والإمارات من جهة أخرى، وهو ما يظهر في القمة الاستثنائية التي عقدت في إسطنبول، فاكتفت مصر بحضور وزير الخارجية وكذلك الإمارات، وحضر عن السعودية وزير الدولة للشئون الإسلامية والدعوة.
- كذلك ثمة من يرى أن مشروع القرار التي تقدَّمت به مصر –كما سيأتي– في مجلس الأمن كان هدفه الرئيسي ألا تنفرد تركيا بمشهد التنديد بالقرار، لكون الأخيرة طالبت بانعقاد جلسة عاجلة للجمعية العمومية للأمم المتحدة تدين القرار الأمريكي، في حلقة جديدة من سلسلة الخلافات المصرية–التركية التي بدأت منذ الثالث من يوليو.

٢) الأمم المتحدة

أولى خطوات التحرُّك(١) داخل أروقة الأمم المتحدة كانت تقديم السلطة الفلسطينية لدى الأمم المتحدة في نيويورك شكوى لدى مجلس الأمن من القرار، وصرح السفير رياض منصور المراقب الدائم لفلسطين أن الشكوى تعترض على الإجراء الأمريكي ضد القدس وتدعو مجلس الأمن إلى معالجة هذه المسألة الحرجة دون تأخير والعمل بسرعة على الوفاء بمسؤولياته.

وتقدَّمت مصر باعتبارها عضوًا غير دائم في مجلس الأمن بمشروع قرار ينصُّ على أن "القدس مسألة يجب حلُّها عبر المفاوضات، وأن أي قرارات وأعمال تبدو وكأنها تغيِّر طابعَ أو وضعَ أو التركيبةَ الديموغرافية للقدس، ليس لها أي مفعول قانوني، وهي باطلة ويجب إلغاؤها"، ودعمت ١٤ دولة القرار إلا أن الولايات المتحدة استخدمت حق النقض "الفيتو" لتعطيل المشروع.

أعقب ذلك انعقاد جلسة طارئة(٢) للجمعية العامة للأمم المتحدة بناءً على طلب عدَّة دول عربية وإسلامية، قدَّمت فيها تركيا واليمن مشروع قرار ينص على أن "أي قرارات وإجراءات تهدف إلى تغيير طابع مدينة القدس الشريف أو مركزها أو تركيبتها الديمغرافية ليس لها أي أثر قانوني، وأنها لاغية وباطلة ويجب إلغاؤها امتثالا لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة"، وجاء التصويت بموافقة ١٢٨

(١) موقع القدس العربي، الرابط : https://goo.gl/jpejdA

(٢) الجمعية العامة تصوت بأغلبية كبيرة ضد قرار ترامب بشأن القدس، بي بي سي عربي، الرابط: https://goo.gl/JSJU١w

دولة في مقابل رفض ٩ دول وامتناع ٣٥ دولة عن التصويت.

لفهم الحدود التي يقف عندها دور الأمم المتحدة في القضية الفلسطينية وغيرها من القضايا سنتطرق لجدال نظري بين أنصار مدرستين من مدارس نظريات السياسة الدولية، "الواقعية الجديدة" و"الليبرالية المؤسسية"[(١)]، حول مدى تأثير المؤسسات الدولية في سلوك الدول، وقدرتها على الحدِّ من الصراعات والنزاعات بين الوحدات السياسية في النظام الدولي، فالواقعيون يرون أن المؤسسات الدولية لا تستطيع أن تتعدَّى حدود الدولة القومية وسلطاتها، في حين يرى الليبراليون أن التعاون والاعتماد المتبادل بين الدول يقلِّلان من الصراعات، وأن المؤسسات الدولية قادرة على تحقيق السلام والتعاون بالتأثير على سلوك واتجاه الدول القومية، سنتناول فيما يلي بعض المشاهد التي وقعت في أروقة الأمم المتحدة لنرى أي الفريقين أقرب لفهم حقائق الواقع الدولي.

يكفينا أن نتوقف مع تصريحات ومواقف نيكي هايلي سفيرة أمريكا لدى الأمم المتحدة، والتي استخدمت حق النقض "الفيتو" لإبطال القرار الذي تقدَّمت به مصر، وكانت قد صرَّحت قبلها في جلسة للجمعية العمومية التي أقيمت في السابع من ديسمبر الماضي قائلةً: "لن أدع هذه اللحظة الختامية تمر دون تعليق عن الأمم المتحدة نفسها، لقد ظلَّت الأمم المتحدة على مدى سنوات عديدة واحدة من أكبر المراكز في العالم التي تناصب العداء لإسرائيل، لقد أَضرت الأمم المتحدة بآفاق السلام في الشرق الأوسط أكثر مما نفعت، ولن نكون طرفًا في ذلك، فالولايات المتحدة لن تقف موقف المتفرج بعد الآن عندما تتعرَّض إسرائيل لهجوم غير عادل في الأمم المتحدة، ولن تستمع للمحاضرات من قبل الدول التي تفتقر إلى أي مصداقية عندما يتعلق الأمر بمعاملة الإسرائيليين والفلسطينيين على حدٍّ سواء".

ثم عادت وصرَّحت تصريحًا فجًّا بأنها ستدوِّن أسماء كل الدول التي ستصوِّت ضد الولايات المتحدة بناء على طلب ترامب، الذي أخبرها أن التصويت ضد الولايات المتحدة هو تصويت ضدَّه شخصيًّا، ثم جاء التصويت باكتساح بإدانة أمريكا، قامت لتهاجم المنظمة بأكملها بأنها لطالما ناصبت إسرائيل العداء، وعلى الرغم من ذلك فقد صبرت إسرائيل على ذلك وتمسَّكت بعضويتها لتمارس حقها الشرعي في الدفاع عن نفسها، وقالت إنها تذكِّر الجميع بأن الولايات المتحدة هي أكبر مساهم في ميزانية المنظمة والوكالات التابعة لها، وأننا نطعم الفقراء، ونساهم في تعزيز السلام، ونعاقب الأنظمة المارقة، ثم أنهت كلمتها بأنه "ما من صوت في الأمم المتحدة قادر على أن يحدث فرقًا في القرار الذي تم اتخاذه بنقل السفارة، وفي المقابل فإن قرار التصويت ضد الولايات المتحدة سيحدث فرقًا في وجهة نظر الشعب الأمريكي وحكومته تجاه المنظمة".

تؤكد التصريحات والمواقف السابقة على صحة مقولات المدرسة الواقعية بشأن فعالية المنظمات الدولية، وأنها "في حقيقة الأمر انعكاس لحسابات الدول لمصالحها الذاتية، التي تعتمد بصورة رئيسية على عمليات توزيع القوى الدولية، فالقوى الدولية تُنشئ المنظمات من أجل الحفاظ على حصَّتها ونصيبها من القوة في النظام الدولي، فالمنظمات الدولية ما هي إلا ساحة لممارسة علاقات القوة"، وعلى هذا الأساس تتصرَّف الولايات المتحدة وكأنها شرطي العالم بأكمله، تستغل الأمم المتحدة إن وافَقَت سياساتها، وتضرب بقراراتها عرض الحائط إن خالَفَتها.

ختامًا فقد صدقت هايلي عندما قالت بعد يومين من قرار ترامب "عندما أدلى الرئيس بالتعليق يوم الأربعاء قال الجميع إن السماء ستطبق على الأرض، ولكن مر الخميس والجمعة والسبت والأحد والسماء في مكانها.. لم تسقط"[(٢)]، فلم يُحدث العرب شيئًا غير الإنكار اللفظي أو

(١) أحمد محمد أبو زيد: تأثير المنظمات الدولية في سلوك الدول القومية: دراسة نظرية، المجلة العربية للعلوم السياسية العدد ٣٣، شتاء ٢٠١٢.

(٢) سفيرة أمريكا الأممية: توقعنا سقوط السماء بعد قرار ترامب.. ولكن، موقع عربي ٢١، الرابط https://goo.gl/L٩f١c٣

اللجوء إلى المنظمات الدولية، فزيادة على الأزمات التي تمر بها المنطقة العربية غابت الإرادة التي تستطيع أن تتبنَّى مواقف تتلائم مع الحدث الجلل، كما لا يظهر أن المستقبل القريب يحمل لنا واقعًا أفضل من اللحظة الراهنة، ويا ليت العرب يفهمون أن العالم يعيش بمنطق "ساعد نفسك بنفسك"، ومن ثم فإن عليهم توظيف متغيرات القوة (المادية والمعنوية) المتاحة، والسعي لرسم استراتيجية تُوظَّف للحصول على أكبر مكاسب ممكنة في الوقت الحالي، والسعي لتضخيم تلك المكاسب في المستقبل.

*****



أزمة القدس الأخيرة والخلاف الفلسطيني– الفلسطيني

طارق جلال(*)

مقدمة:

مثَّل قرار ترامب إعلان القدس عاصمة للدولة الصهيونية صدمة كبيرة لكافة أنصار القضية الفلسطينية، وهذا القرار يأتي استكمالًا لسياسات إجهاض مشاريع التغيير، فقد أضحى القضاء على مقاومة الصهيونية والإمبريالية العالمية قائمًا على قدم وساق مع سقوط نسمات الربيع العربي.

إن الناظر لقرار ترامب من بوابة أنه لم يقدم جديدًا يغفل عددًا من الحقائق، ليس أقلها خروج القدس من دائرة التفاوض، وقد ظهر موقفه جليًّا عندما خالف التقاليد الأميركية المتعارف عليها بإعلانه في ديسمبر ٢٠١٦ إدانة قرار إدارة الرئيس السابق باراك أوباما بالامتناع عن نقض قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٣٣٤ الذي أدان التوسُّع الاستيطاني الإسرائيلي في الضفة الغربية والقدس الشرقية، واعتبر الأراضي المحتلة بعد الرابع من يونيو ١٩٦٧ أراضٍ محتلة، وكل المستوطنات التي بُنيت فيها غير شرعية(١).

اتَّجهت الأنظار إلى مستقبل الانقسام الفلسطيني، مع تزايد ضرورة الخروج بموقف موحَّد واستراتيجية متكاملة تجهض هذا القرار السافر، ومن هنا ضرورة التساؤل حول رؤية الفصائل الفلسطينية لكيفية مواجهة المرحلة الجديدة من العدوان الإسرائيلي–الأمريكي.

ولكن قبل ذلك، لماذا حدث الانقسام؟ وكيف السبيل إلى المصالحة والوئام؟ تساؤلات محيرة أضحت تضع بكاهلها عبئًا على أنصار القضية الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا. وما بين متربِّص يخشى المصالحة الوطنية، ومناصر لفلسطين يبكي حال أبنائها المتحاربين، دارت أحاديث حول إمكانية نجاح المفاوضات الجارية بين فتح وحماس برعاية القاهرة، للتخلُّص من سنوات الانقسام.

والانقسام درجات ومنازل، أحيانا يكون ظاهريًّا، مثلما كان كذلك حتى مرحلة ما قبل الحرب الأهلية في ٢٠٠٧، وآحيانا أخرى يكون بنيويًّا وهيكليًّا، وربما يكون استراتيجيًّا وإجرائيًّا، لذا تتوقَّف درجة معالجته على تحديد ماهيَّته، وبالتالي إمكانية التنبؤ بمآله.

على مدار تاريخها الحديث، لم تتخلَّص فلسطين من صراعاتها الداخلية، حتى قبل إعلان دولة إسرائيل، ولكن لم يكن الخلاف غالبًا يدور حول الأهداف الاستراتيجية، بل عادة ما تكون حول التكتيكات والخطط التنفيذية، أمَّا الآن فقد أضحى الخلاف حول الأهداف الغائية من مشروع التحرير برمَّته.

تعتقد فتح أنها صاحبة السبق في الدفاع عن القضية، ولها الحق في منح الشرعية لمن تريد، بينما ترى حماس أن الأولى قد انحرفت عن أهداف التحرر، نتيجة وقوعها تحت أيدي مجموعة من المنتفعين بتواجد الاحتلال، الذين يجدون من استمرار الأوضاع توافقًا مع مصالحهم.

كما تستشعر فتح خطرًا وجوديًّا على كيانها الذي تماهي مع مصلحة القضية الفلسطينية، وشعورها أن حماس قد سحبت البساط الشعبي من تحت قدميها، إذ وجدت

(*) باحث في العلوم السياسية.

(١) تقدير موقف، **"السياسة المتوقعة لإدارة ترامب نحو الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي"**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧/١/٣٠، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/gDMyae

من يتحدَّث عن الفلسطينيين بجانبها، بعد سنوات كانت هي الممثل الوحيد للشعب.

أما حماس فقد سقطت في فخ التناقضات، التي كلَّفتها في النهاية عبء إدارة القطاع في ظروف صعبة، ورغم التقدُّم الذي حدث في ترسانتها العسكرية والذي ظهرت ذروته في ٢٠١٤، إلا أن ذلك لم يمنع من نشأة طبقة منتفعة من هذا الوضع، وهو ما فُهِم من تصريح السنوار عندما قال بأنه سيكسر رقبة من يعترض على المصالحة، ونقل إدارة القطاع للسلطة[(١)].

ومن هنا يمكن موضعة الانقسام تحت مفردة تحول التنظيم لدى الكثيرين من وسيلة إلى غاية، مقدمة على مصلحة القضية التي أنشئ لأجلها. ونستخلص من ذلك أن لدى التنظيمين مشاكل وأزمات أضحت تؤثر على مصلحة القضية ذاتها، بداية من طبيعة النخب، مرورًا بالرؤى التي ترسَّخت لدى القواعد حول شيطنة كل طرف للآخر، وانتهاءً بغياب المتَّفق حوله في مشروع التحرير الذي دخل نتيجة ما سبق مرحلة الاختلاف، واعتماد كل طرف على أداة القوة للاستعلاء على طاولة التفاوض، فبينما تستدعي حماس خبرتها في الحروب مع إسرائيل وقوتها العسكرية، تعتمد فتح على علاقاتها الإقليمية العربية والدولية، وكلها قضايا تؤثر بشكل كبير على طبيعة ومخرجات المصالحة في حالة حدوثها.

تعدَّدت أسباب تفسير حالة الصراع الراهنة، وإلى أي مدى يمكن أن يسهم قرار ترامب بعدول أطرافه عن حالة الانشقاق، والدخول في مرحلة جدية من المفاوضات حول إنهاء هذا الوضع المأساوي.

هناك من يرى أن الأيديولوجيا تحول دون تحقيق مصالحة حقيقية، وآخر يعتقد أن المصالح الضيقة أضحت سيدة الموقف في حسم النزاع، وثالث يرى أن العوامل الخارجية -العربية والإقليمية والدولية- ستمنع حتمًا حدوث هذا التوافق.

ستبحث هذه الدراسة جملة من الأسباب التي شكّلت هذا الواقع، وآفاق تحقيق مصالحة حقيقة بين طرفي النزاع الفلسطيني من أجل رؤية واحدة حول القدس إن كان ذلك ممكنًا وما هي مقومات نجاحه أو فشله؟

أولًا- الصراعات الداخلية في الخبرة الفلسطينية:

لم تكن الخلافات حدثًا جديدًا على الساحة الفلسطينية، إلا أن حدَّته ارتفعت بشدَّة في صيف ٢٠٠٧، حتى تحوَّل لاحتراب أهلي، وانفصال جغرافي وسياسي، ففي الثلاثينيات والأربعينات، حدثت الصراعات الداخلية مع فترة الانتداب البريطاني لفلسطين، حيث تبنَّى الانتدابُ سياسةَ "فرِّق تسُد" بين قطبي عائلات فلسطين في القدس (عائلتا الحسيني والنشاشيبي)، بغرض تفريغ قوة التلاحم الوطني في تحقيق نتائج فعَّالة في مواجهة الاحتلال البريطاني، بل إن الكيان الصهيوني لم يجد من يواجهه بالقوة المتواضعة التي يحتاجها، وهو ما نجحت فيه كتائب جماعة الإخوان المسلمين في الأربعينيات.

وقد استمر هذا الأمر في الخمسينيات والستينيات، ولكن بأشكال مختلفة، فمع نشأة حركة فتح من تحالف ضمَّ الإخوان المسلمين والبعثيين الفلسطينين، في الفترة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥؛ حيث بدأت كجماعة سرية ثم ما فتأت أن أعلنت عن نفسها، بعد تشكُّل خلاياها وأجنحتها التي تُوِّجَتْ في الأخير بتشكيل اللجنة المركزية صاحبة كافة قرارات الحركة.

تعرَّضت الحركة لمنعطف حاد بعد الحرب التي حدثت بينها وبين الجيش الأردني على خلفية العمليات العسكرية التي كانت تشنها على الاحتلال من داخل الأراضي الأردنية، رغم احتضانها من قبل الدول العربية بعد نكسة ١٩٦٧، فقد شهدت مرحلة السبعينيات ذروة العمل الفدائي لفتح، وقد تزامن ذلك، في مساهمة القومية العربية

(١) الشرق الأوسط، "السنوار: نريد عباساً قوياً... وسأكسر عنق من يعطل المصالحة"، ٢٠١٧/٩/٢٩، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/U٣YL٢J

في دعم حركة القوميين العرب التي أسَّسَها المناضل القومي جورج حبش، التي تطوَّرت بعد ذلك إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، فقد حاول استغلال زخم الناصرية والقومية التي تصدَّرت مواجهة إسرائيل لصالح القضية الفلسطينية.

انفجرت الخلافات داخل الجسم الفلسطيني بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، حينما أدركت المقاومة الفلسطينية أن غاية الحرب كان إجراء تسوية سياسية للانسحاب من الأراضي التي احتلَّتها إسرائيل من مصر وسوريا.

حاولت الأنظمة العربية إقناع حركة فتح التي كانت تسيطر على منظمة التحرير الفلسطينية بضرورة ترك العمل المسلح، والتوجُّه نحو العمل الدبلوماسي برعاية دولية تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، وبرزت ذروة هذه التحول عندما أصدرت منظمة التحرير في دورة المجلس الوطني التاسعة عشرة في الجزائر عام ١٩٨٨ وثيقة الاستقلال للدولة الفلسطينية على أساس الإقرار الفلسطيني بقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، اللذين يعتبران أن الأراضي الفلسطينية المحتلة هي فقط تلك التي احتُلَّتْ عام ١٩٦٧، ودعت الحركة في ذلك المؤتمر إلى مواصلة الحوار مع القوى الديمقراطية الإسرائيلية التي تعترف بالمنظمة، وهو ما عارضَتْه بشدة "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، ورفضت ترك العمل المسلح؛ إذ حدث شرخ كبير بين المنظمة والجبهة، أدَّى إلى انسحاب الأخيرة من المكتب التنفيذي.

وعليه عجزت الحركة السياسية الفلسطينية عن تضميد جراحها ومعالجة خلافاتها سريعًا، ثم كانت الضربة التي حدثت في الثمانينات عندما اجتاحت إسرائيلُ لبنانَ، وقامت بضرب معاقل المقاومة هناك، ممَّا أفقد الفصائل المسلحة القدرة على المناورة والفاعلية، ما نتج عنه تقارب منظمة التحرير من مواقف الأنظمة العربية، بهدف تحقيق نتائج إيجابية تفيد مشروع الدولة الفلسطينية، كما خرجت الجبهة الشعبية من مسرح الأحداث، لتظهر حركة جديدة بثوب إسلامي عقدي سميت بحركة المقاومة الإسلامية (حماس).

ولم تغب العوائق الخارجية عن تعزيز حدَّة الانقسام، من تدخُّلات للنظام البعثي في سوريا، والهاشمي في الأردن والناصري في مصر والملكي في الخليج، علاوة على التدخُّلات الغربية التي قادتها الولايات المتحدة.

وفي التسعينيات، بعد سنوات من اندلاع الانتفاضة الأولى، قرَّرت "فتح" منفردة من خلال منظمة التحرير عقد اتفاق أوسلو مع إسرائيل برعاية عربية ودولية، واعتبرت السلام هدفها الاستراتيجي، بعد أن كان تحرير كامل فلسطين[1]. فقد ساهم استبداد ياسر عرفات بالقرارات – وإن حسنت نيَّته– في انسلاخ المنظمة عن قطاعات كبيرة من الفلسطينيين، بجانب عدم تطوير المنظَّمة لآليات مؤسَّسية وديمقراطية لعملية اتخاذ القرارات التي تخصُّ الشعب، فضلًا عن تنوُّع أجنداته وأيديولوجياته، بدلًا من الاكتفاء بفئة دون أخرى، وهو الأمر الذي ستبرز حدَّته فيما بعد.

استهلَّت "حماس" مشروعَها بالاختلاف مع مشروع منظمة التحرير الفلسطينية الذي تقوده "فتح"، عندما قادت الانتفاضة منعزلة عن الأخيرة، وبإدارة ذاتية منفصلة مع باقي الفصائل. إلا أن لحظة الذروة تمثلت في رفضها الاعتراف بشرعية اتفاق أوسلو، وإعلانها المفاصلة مع مشروع "فتح" القائم على التفاوض السياسي مع غياب مبرِّرات وشروط نجاحه.

ثانيًا– ماهية الصراع بين حماس وفتح

تبدأ الأزمات في الحل عندما يحسن تعريفها وتشريحها وفهمها في ديناميكيتها لا في ثباتها وركودها.

---

(١) سنية الحسيني، "«فتح» من «التحرر الوطني» الى السلطة الوطنية"، موقع الحياة، ٢٠١٦/١٢/٩، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/ivnWa٣

"أسئلة كثيرة ومهمةُ تطرح حول هذين الموضوعين؛ الانقسام والمصالحة، من حيث مسببات الأول وتداعياته، ومعوقات تحقيق الثاني. من بين هذه الأسئلة: ما الأسباب التي قادَت إلى الانقسام في صيف ٢٠٠٧ وهل هي أسباب عابرة وإجرائية أم أنها بنيوية عميقة الجذور؟ هل الانقسام سبب أم نتيجة؟ بمعنى، هل الانقسام هو سبب التمزق الراهن في الحالة الفلسطينية أم العكس؟ ثم، هل هناك من مشترك بين حركتي فتح وحماس من شأنه أن يكون أساسًا للتصالح بينهما؟ ما هو؟ وما المطلوب لترجمته على الأرض إنْ وجد؟"[(١)].

تبدأ ماهية الصراع بين "فتح" و"حماس" عند لحظة تأسيس وعمل كلٍّ منهما. حيث اعتمدت "فتح" على التنوع الفكري والسياسي داخل مكوناتها، فضمَّت اليساري والقومي والإخواني، بينما ارتكزت "حماس" على أرضية التماسك العقدي ووحدة الأيديولوجيا، وبالتالي أثَّر ذلك على طبيعة الكوادر والنخب التي قادت كل حركة من جهة، وعلاقة هذه النخب بالقواعد داخليًّا والداعمين خارجيًّا من جهة أخرى. أضف لذلك أن هذا التشتُّت الفكري والسياسي داخل "فتح" أدَّى إلى حدوث انشقاقات عديدة داخل كيانها، نتيجة تعدُّد البوصلة وعدم تحديد الوجهة، عكس "حماس" التي لم يحدث داخلها أي انشقاق تقريبًا منذ تأسيسها عام ١٩٨٧.

على الجانب الآخر، انطلقت "فتح" من مركزية العمل الخارجي المقاوم للضغط على الداخل الإسرائيلي المسيطر على الأراضي المحتلة، وهى القضية التي انتقدها بشدة الشيخ أحمد ياسين، مؤكدًا على ضرورة ومحورية العمل الجهادي من داخل فلسطين، حتى لا يتم تحميل دول الجوار تكاليف المواجهة التي لن تستطيع تحمُّلها وهو ما تكرَّر مع لبنان بعد الأردن. وقد كان لهذا الأمر تأثيره على توجُّه حركة فتح للعمل التفاوضي السياسي الكامل بعد تأسُّس السلطة الفلسطينية، فلم تخُض الحركة حروبًا من داخل فلسطين، وعليه لم تؤهِّل نخبتها لذلك، وهو ما يفسر حاليًّا طبيعة استجابة "فتح" لقرار ترامب، وعدم ترجمة رؤية استراتيجية أو تكتيكية لسبل إسقاط القرار، وهو نابع من خبرة وعوامل تكوُّن الشخصية الفتحاوية، لاسيما أن الجيل الحالي لفتح لم يخُض حروبًا أو مقاومة عسكرية ضد إسرائيل، عكس جيل عرفات.

ومن جانبها، لم تَخْلُ "حماس" هى الأخرى من تأثيرات شبيهة بتلك التي تعرَّضت لها "فتح"، فقد خرجت قيادة الجيل الجديد لحماس من الداخل الفلسطيني لتقود مقاومة خارجية أسسها الدبلوماسية والعمل السياسي التي قادها السيد خالد مشعل، كما أن تأثر حماس بالحروب الثلاثة التي خاضتها ضد إسرائيل في ٢٠٠٨ و٢٠١٢ و٢٠١٤، قد دفع الأخيرة للرضوخ للحل الدبلوماسي، مثلما رضخت "فتح" بعد حروب ١٩٦٧ و١٩٧٠ و١٩٨٢.

إلا أنه رغم هذا التشابه في النتيجة التي وصلت لها الخبرتين، إلا أن هناك عوامل عديدة أخرى ستصعب من وصولهما لنقطة اتفاق، أبرز هذه العوامل، هو الموقف من اتفاق أوسلو، وطبيعة النخب في الحركتين، وسلاح المقاومة الذي تطوَّر بشدَّة على أيدى مهندسي وقادة "حماس"، وأخيرًا بالإرادة العربية والدولية في حدوث هذه المصالحة.

ثالثًا– اتفاق أوسلو: أرضية الصراع الصلبة:

وفَّر اتفاق أوسلو –الذي تم بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل برعاية دولية– الأرضية التي استقر عليها الصراع الفلسطيني – الفلسطيني، بل وقام بمأسسته بما يجعل له عنوانًا ومضمونًا؛ إذ دخلت الخلافات إلى الثوابت، وسادت لغة التخوين، وتحوَّلت وسائلُ المقاومة أدوات تضرب بعضها البعض.

---

(١) باسم الزبيدي، "الانقسام الفلسطيني: جذور التشظِّي ومتطلبات التخطِّي"، المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٤٤٦، أبريل ٢٠١٦، ص٧٧، تاريخ قراءة التقرير من الموقع، ١٠/١/٢٠١٨، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/D١RPJb

رأت قيادة حركة فتح بالتحديد في الانتفاضة الفلسطينية الأولى (١٩٨٧ – ١٩٩٣م) الفرصة التي قد لا تتكرَّر لاستثمار الانتفاضة الشعبية والتضحيات العزيزة في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، في وقت كان هاجس الشرعية والتمثيل الفلسطيني ضمن أولويات القيادة الفلسطينية بعد بروز حركة المقاومة الإسلامية "حماس" كفصيل وطني إسلامي ينافس فصائل المنظمة[١].

خرجت "فتح" من أوسلو مستشعرة جلال الانتصار ومحتفلة بنشوة بداية تحوُّل حلم الشتات إلى دولة، بعد أن تم الحصول على استحقاق تأسيس سلطة فلسطينية مستقلة، وحق الدولة في ترسيخ هويتها الوطنية، من خلال الإشراف على التعليم والإعلام، والتوسُّع في تأسيس المدارس والصحف والقنوات، فضلا عن إعادة ترميم البنية التحتية والمؤسسية، من خلال تقوية وتنمية الاقتصاد، اعتمادًا على صندوق الطوارئ الذي تُحصل منه المساعدات الخارجية[٢]. وعليه تحول كيان المقاومة إلى حزب سلطوي مكمل لسردية أزمة دول ما بعد الكولونيالية، وسيطرة نخبتها على الحكم، فقد شكل الحزب الحكم دوائره المقربه، وطبقاته الاجتماعية المؤيدة، وتعامل مع المعارضون له بمنطق جماعات إسقاط الدولة في عالمنا العربي، إذ استخدم معهم نفس وسائلها من اعتقال وتعذيب وقتل بطيء وسريع.

وجدت "حماس" أن الاتفاق أهمل قضايا الصراع الأساسية والتي تتمثل في الموقف من السيادة على القدس، وشرعية المستوطنات، وأزمة الشتات الفلسطيني وعودة ملايين اللاجئين، وقدرة السلطة على إقامة علاقات دولية بما يمنحها الحرية الكاملة، بجانب شرط التنسيق الأمني الذي كان له الأثر الأكبر في اعتقال واغتيال رموز العمل المقاوِم بحُجة محاربة الإرهاب، والذي رأته "حماس" خيانة علنية لمشروع التحرير.

مع وفاة عرفات، ومجيء قيادة جديدة لفتح صريحة في رفضها للكفاح المسلح أو لأي مقاومة جادة مهما كان شكلها، ثم مع الفشل النهائي والأكيد لمشروع التسوية، أكملت "فتح" حالة السلطوية، فلا يوجد من تياراتها ما ينافس على تقديم مقترحات نضالية، وإنما تتنافس تياراتها على المصالح التي تترتَّب على أي حالة سلطوية، فهي محض أجنحة ومراكز نفوذ تربطها علاقات المصالح لا غير[٣]. فقد ترسَّخت طبقة سياسية – اقتصادية من المنتفعين بالوضع الحالي، وهؤلاء من الصعب عليهم الخروج على مصالحهم ونفوذهم والانقلاب عليها، لمواجهة قرار ترامب، أو إعلان الانسحاب الجماعي من السلطة الفلسطينية والتوجُّه نحو العمل الجماهيري لقلْب الأوضاع رأسًا على عقب، والعودة مجدَّدًا لسلاح المقاومة.

أصبح مستقبل استمرار السلطة رهينًا بصورة رئيسية في تنفيذ الجانب الأمني للاتفاقية المتمثل في مواجهة المقاومة عمومًا، وحماس تحديدًا، ولذلك يجد مشروع المقاومة عوائق كبيرة في التحرُّك في الضفة الغربية، وفك الحصار في غزة، نتيجة امتلاك الإدارة الإسرائيلية لأوراق اللعبة، بسيطرتها على سلطة منزوعة الأنياب، من كيان وهمي الفاعلية، إلا على أهله.

وبالتالي فأي حديث عن مصالحة فلسطينية لا يتطرَّق إلى قضية التنسيق الأمني خاصة وأوسلو عامة وهْم لا طائل منه. وعليه كانت ومازالت إسرائيل المنتصر الأكبر من هذا الاتفاق، بعد تخلي "فتح" عن سلاح المقاومة، واعتماد المفاوضات مرجعية وحيدة لتسوية صراعاتها مع الفلسطينيين، ودخول الجسد الفلسطيني مرحلة شيخوخة تنظيماتها وفقدانهم القدرة على المناورة والإبداع في التحرك،

---

(١) أسامه يوسف، "اتفاق أوسلو... التداعيات الكارثية على القضية الفلسطينية"، موقع العربي الجديد، ٢٠١٧/٩/٣٠، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/nTzmqk

(٢) للاطلاع على الاتفاق كاملًا: متاح على موقع الجزيرة، على الرابط التالي: https://goo.gl/٦T٦s٤Y

(٣) ساري عرابي، "الأرضية الفتحاوية: مقدمة في أزمة حركة حماس"، موقع إضاءات، ٢٠١٦/١٠/١٨، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٢ZkUAu

بعد أن حدَّدت معظم مساراتهم، لاسيما مع تعاون النظام السياسي العربي مع إسرائيل في ضرورة التقييد على المقاومة، وتبنِّي وجهة النظر الصهيونية في تسوية وتصفية القضية الفلسطينية.

رابعًا– النخب والأيديولوجيا كخلفية للانقسام الفلسطيني:

يرتبط العمل السياسي في عالمنا العربي بدرجة كبيرة بالقيادة السياسية، نظرًا لضعف الديمقراطية الداخلية، وهشاشة عملية مؤسسية اتخاذ القرارات، لذلك تفتقر إلى الدقة معظم المحاولات التي تحاول مناقشة مستقبل المصالحة الفلسطينية بعيدًا عن مفهوم النخب وكوادر حركتي فتح وحماس.

تاريخيًّا، كان للرمز والقائد فاعلية كبيرة في قيادة عدد من الحركات والفصائل على مدى تاريخ فلسطين الحديث، فقد استطاع خليل الوزير وجورج حبش وياسر عرفات والشيخ أحمد ياسين وأبو مازن وخالد مشعل التأثير بشدة على مجريات تاريخ القضية منذ لحظة ١٩٤٨م.

وعلى الجانب الآخر، ارتبطت أحاديث صعوبة نجاح المصالحة الفلسطينية، نتيجة التوجُّه الفتحاوي للعلمانية، وارتباط حماس بالأيديولوجيا الإسلامية. بعيدًا عن التهويل والتهوين من حجم وأثر الخلاف الفكري على طبيعة الانقسام الفلسطيني، وتوخيًا للدقة، لابد أن نشير إلى عدم توازن هذا العامل بين كلا الجانبين، ففي الوقت الذي يتخذ بعدًا عقيديًّا/وطنيًّا في حالة حماس، من الصعب تصويره بالشكل ذاته في حالة "فتح"، لاسيما أن الأخيرة تنظيم غير مؤدلج يعرف نفسه بأنه كيان متجاوز للأيديولوجيا وممثل لشتَّى تمثُّلات الخبرة الفلسطينية، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.

لم يكن مشهد أوسلو وليد لحظة تاريخية معيَّنة، لكنه جاء بعد مشاهد تضمَّنت هزيمة ١٩٦٧، ثم انسحاب الأنظمة العربية من دعم مشروع تحرير فلسطين ولو صوريًّا، وظلَّت "فتح" رهينة إرث تاريخي بدأ بصورة رئيسية مع جهد القيادي الفتحاوي وأحد أبرز مؤسسي الحركة خليل الوزير أبو جهاد، والذي أكَّد –رغم كونه من إخوان فلسطين– على ضرورة وجود سلطة وحكومة فلسطينيتين مستقلتين، تدافعان عن الشعب الفلسطيني، بتبنِّي المقاومة المسلحة كخيار وحيد ونهائي، وعليه أحدثت هذه السردية من نضاله –وهي ربط الأيديولوجيا والشخصية الفلسطينية بمشروع السلطة– أثرها، فاتَّخذت "فتح" زمام المبادرة في العمل الفدائي دون انتظار الدعم العربي عسكريًّا، ولذا كان للرعيل الأول من رجال "فتح" أثر كبير على صياغة الهوية. إلا أن عرفات ومع ضعف الأداة العسكرية المقاوِمة لديه، استغل الانتفاضة في دعم موقفه التفاوضي، من أجل الوصول إلى مرحلة وجود سلطة فلسطينية تساعد في دعم تشكيل هوية وطنية، كمرحلة من مراحل الوصول للدولة. فكانت السلطة إحدى المشاريع في رؤية حركة "فتح" في مشروعها القائم على المقاومة المسلحة كما قامت عليه أفكار وسياسات الأوائل.

مع قدوم محمود عباس وما يمكن تسميته بالجيل الثاني، الذي نشأ وترعرع على موائد التفاوض، لم يكن لدى هذه النخبة مشروع حقيقي قابل للتنفيذ، فقد تسلموا التركة بعد أن أثبتت "أوسلو" فشلها في تحقيق مراحل تأسيس الدولة الفلسطينية، علاوة على تخلِّي "فتح" عن البندقية، فأخذت هذه الأسباب تدفع أبو مازن للحفاظ على ما وصل إليه نضال "فتح" باعتباره مكاسب لا ينبغي التفريط فيها، واستكمال مسار العمل السياسي السلمي مع الاحتلال، ومن ناحية مقابلة، استخدام السلطة القوات الأمنية في حماية أمن إسرائيل من العمل الفدائي.

تحوَّلت البوصلة من البناء على ما تم في الماضي، والدفع خطوات نحو الوصول إلى مرحلة الدولة، حتى أصبحت وظيفة السلطة تهيئة السياق المناسب لإنجاح عملية التفاوض، التي هي في الحقيقة محاصرة عمليات "حماس" و"الجهاد".

لذا رغم توجُّه ياسر عرفات للتفاوض السياسي في نهاية مساره النضالي، إلا أنه ترعرع على قدسية المقاومة والسلاح، ولذا استطاع أن يوفِّق في كثير من الأحيان بين توجُّهات "فتح" و"حماس"، على الأقل لتقوية موقفه التفاوضي، كما استدعى المظلومية الفلسطينية في شعارات أيديولوجية لتعبئة الجماهير لدعمه.

أما محمود عباس فقد تشكَّلت حياته السياسية على استراتيجية دحض إرهاب المقاومة، فلم يكن لديه ما ينادي به. إن تناول تاريخ تعامل رئيس السلطة الفلسطينية الحالي أبو مازن مع "حماس" مذ توليه السلطة، يوضح أن عملية المصالحة لن تأخذ خطوات بعيدة لاسيما في ضوء ضعف الأخير وعدم قدرته على إدارة العملية السياسية مع الاحتلال بمرونة تمكِّنه من استغلال ورقة المقاومة في يده، لذا لم تكن له مواقف جِدِّيَّة ورؤية حقيقية للخروج من فلك السياسات الصهيونية – الأمريكية، بهدف مقاومة قرار ترامب، أو على الأقل إعلان فشل مشروع حل الدولتين، والاستقالة من السلطة الفلسطينية، والتوجُّه لكافة فصائل العمل الفلسطيني، من أجل التعاون في تأسيس رؤية استراتيجية موحَّدة لمقاومة الاحتلال؛ وعليه من الصعب القول بأن لفتح أيديولوجيا حالية يمكن أن تدعم أو تُفشل مشروع المصالحة.

على ضوء تنظيم مرحلة ما بعد أبو مازن، يبدو أن الترتيبات الإقليمية التي يقودها محور الثورة المضادة ستدفع بورقة محمد دحلان لتولي منصب رئاسة السلطة الفلسطينية بعد أبو مازن، وتاريخ الرجل في التنكيل بحركة حماس كبير، ويكفى أنه كان مسئول الجهاز الأمني في غزة وقت اندلاع الحرب الأهلية في ٢٠٠٧، كما شنَّ حملة اعتقالات واغتيالات عدَّة في حق فصائل المقاومة، حيث يعرف بعدائه الشديد لتيارات الإسلام السياسي، لذلك لا غضاضة إن كان هو الرئيس المفضل لمحور (مصر – الإمارات – السعودية – إسرائيل)، لاسيما مع تزايد تسريبات ما يُسَمَّى بصفقة القرن.

أما على الجانب الآخر، فقد ارتبطت حماس في نشأتها وسياساتها بالتوجُّهات الإسلامية، التي برزت بشدة في ميثاقها الذي أعلنته عقب الانتفاضة، ورغم ذلك، طوَّرت حماس خطابها في التسعينيات والعقد الأول من الألفية الجديدة بغرض استيعاب المشترك بينها وبين فتح، حتى تراجعت عن شرط إلغاء علمانية منظمة التحرير وقبلت بإعادة هيكلتها بما يضمن مشاركة كافة الفصائل المقاومة.

أخذ خطاب الفكر يتضاءل كثيرًا مع إكراهات الواقع وضغوطات السياسة. ولا تجد "حماس" مشكلة حالية مع "فتح" في مشروع المصالحة، بل معظم قادتها في الداخل والخارج ينادون بها.

تُنتقد حماس كثيرًا بسبب بعض مواقفها البراجماتية، لاسيما موقفها حاليًّا من المحور الشيعي، إلا أنها في الحقيقة لم تجد كيانًا عربيًّا يمكن الارتكان إليه ولم تفعل، فبعد نجاح جماعة الإخوان المسلمين في مصر ٢٠١٢ ووصول الدكتور "محمد مرسي" إلى السلطة، تقاربت الحركة كثيرًا مع المحور السني، بل وناصبت نظام بشار العداء ووقفت بجانب الشعوب الراغبة في الحرية، إلا أنها حاليًّا غير قادرة على تفعيل هذا التوجه، خاصَّة أن هناك اتجاهًا سائدًا لدى الأنظمة العربية لاستئصال جماعات الإسلام السياسي بشتى صورها.

الجدير بالذكر هنا أن "حماس" تتشابه مع "فتح" في نشأتهما من رحم جماعة الإخوان المسلمين، كما يؤمن كل منهما بضرورة "الدولة الوطنية الفلسطينية"، لدرجة أن تحليل معظم قرارات وسياسات "حماس" تعود بالأساس لأهداف ذات صبغة وطنية وليس دينية. بل إن الحركة لا تؤمن بأنها تستهدف تأسيس إمارة إسلامية على فلسطين، ولكن ينصبُّ هدفها على تحرير بيت المقدس من أيدي الصهاينة، وحصول الشعب الفلسطيني على حريته وحقوقه المسلوبة، كما أن البنية الأيديولوجية الدينية التي شكَّلت أساس ميثاق حركة "حماس"، انحسرت حدَّتها تدريجيًّا، وهو الأمر

الذي أكَّدته مفردات خطاب قيادات الحركة خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، وكذلك أداء الحركة وممارساتها بعد دخول الألفية الجديدة، فبعد أن دعت منظمةَ التحرير إلى التخلّي عن علمانيتها كشرط للانضمام إليها في ميثاقها وفي بداية ظهورها، تراجعت "حماس" ضمنيًّا عن ذلك عندما بدأت بالتركيز على البرنامج السياسي للمنظمة واستحقاقاته، ومطالبتها كذلك بالتزام المنظمة بالديموقراطية ودعوتها للقبول بالتعدُّدية السياسية كما دعا برنامج الحركة الانتخابي عام ٢٠٠٦ إلى جعل الإسلام المصدر الرئيسي للتشريع وليس مصدرًا وحيدًا للتشريع، وهو ما يتفق مع موقف حركة "فتح" والسلطة الفلسطينية أيضًا[١]، وهي أمور تُوِّجَتْ في النهاية بوضعها في وثيقة الحركة التي أعلنتها في ٢٠١٧.

ولذلك، من الصعب التعويل على أداة الأيديولوجيا، لحل أزمة الانقسام الفلسطيني، فعلى الرغم من أن فكر "فتح" يقوم على أساس علماني، بينما فكر "حماس" يقوم على أساس ديني، إلا أن كلا الفكرين محكوم بثقافة وحضارة أصلها واحد وهي العربية الإسلامية، وبانتماء وطني فلسطيني وحيد يصهر في مضمونه السياسي جميع الانتماءات الفكرية، ضمن اتفاق مشترك على سيادة القيم الديمقراطية كمحدد بنيوي لمفاصل السياسة الفلسطينية الداخلية. فالسياق الذي ميَّز الحالة الفلسطينية أنتج تقاطعات فكرية متجلية بين فكري "حماس" و"فتح" في مفاصل رئيسية عديدة، بحيث باتت مراكز الالتقاء الفكري بين الحركتين أكبر من مكامن الافتراق. ومن الصعب اعتبار أن الخلاف الفكري بين الحركتين سببًا رئيسيًّا للانقسام[٢].

لقد أضحت الأزمة أعقد بكثير من مجرد خلاف فكري وأيديولوجي بين قطبي الساحة الفلسطينية، بقدر وجود جزء كبير منها في طبيعة النخبة الحاكمة التي اعتادت على التعامل مع "حماس" باعتبارها حركة مناهضة للدولة الفلسطينية، وبالتالي يجب أن تظل حبيسة جدران السجون. ورغم ضعف أثر الأيديولوجيا، إلا أنها يمكن أن تكون وسيلة إيجابية في حال اتفقت أطراف الصراع على صياغة مشروع فلسطيني يقوم على برنامج وطني حقيقي، ورؤية نضالية جامعة لشتى الفصائل، ومما يعقد المشكلةَ التدخلُ الخارجي الإسرائيلي والعربي والإقليمي والدولي، واستقواء بعض أطراف الخلاف بذلك[٣].

خامسًا– المبادرات العربية: غياب الرؤية وعرقلة المصالحة

تاريخيًّا، كانت أزمة المقاومة الفلسطينية منذ نشأتها في النظام الإقليمي العربي، منذ تركت الحكومات العربية، فلسطين رهينة لتسلل العصابات الصهيونية، فيما انشغلت هي بمعاركها الداخلية، ثم دخولها حرب ١٩٤٨م، وتسليمها فلسطين لإسرائيل، إلا أن ذروة الخلاف العربي مع المقاومة الفلسطينية، حدث في حروبها مع الأردن ولبنان وسوريا.

لم يكن رفض النظام الإقليمي العربي للمقاومة الفلسطينية مؤسَّسًا على ممارسات المقاومة الفلسطينية، التي شكَّلت سلطة منافسة للدولة إن في الأردن أو في لبنان، ولا على خلفية مسلكيَّات بعض تياراتها التي حرَمت المقاومة من تعظيم حواضنها الشعبية، بل وأدَّت –إلى جانب عوامل متعددة– إلى خسارتها حواضنها الموجودة، وهي حواضن كانت كبيرة أساسًا. فإذا كانت أخطاء المقاومة الفلسطينية في ذلك الحين، قد ساعدت النظام الإقليمي العربي على إقصائها وتدمير نقاط ارتكازها وقواعد انطلاقها، فإن تربُّص هذا النظام بالمقاومة بدأ مع نشوئها، وهي ما تزال مكوَّنة

(١) سنية الحسيني، "الانقسام الفلسطيني وخلاف حركتي «فتح» و «حماس»"، موقع الحياة، ٢٠١٥/٣/٢٣، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/bJqwsN

(٢) المرجع السابق.

(٣) محسن محمد صالح، "''لعبة'' المصالحة الفلسطينية"، موقع الجزيرة نت، ٢٠١٧/١٠/٢، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/gNNZR٤

من حفنة من الحالمين، قبل أن تتعاظم بعد "معركة الكرامة"، وإذا كانت المواجهة مع النظام الأردني قد بدأت بعد هزيمة العام ١٩٦٧ بأقل من عام، فإن جلال كعوش، أول شهيد للمقاومة في لبنان، استشهد في سجون الأمن اللبناني في ٩ يناير ١٩٦٦م، أي قبل هزيمة عام ١٩٦٧م، وأمَّا النظام السوري فدوره معروف في إضعاف المقاومة الفلسطينية في لبنان منذ أواسط سبعينيات القرن الماضي[(١)].

كما قدمت الدول العربية عددًا كبيرًا من المبادرات بغرض تسوية النزاعات الفلسطينية، إلا أنها في كل مرة لم تحقِّق فاعلية تذكر، وذلك يعود لعدد من الأسباب، أبرزها النية والإرادة الحقيقية لتسوية الخلافات من ناحية، ورغبة أطراف الصراع في المصالحة بالأساس من ناحية أخرى. ثانيها– تجزئة قضايا الصراع، والتركيز على العوامل الإجرائية والتفصيلية، وإهمال الأسباب الكلية والجوهرية في الصراع. ثالثها– مراعاة معظم المبادرات توازنات القوى الدولية، وخشيتها من إثارة حفيظة الدول الكبرى، مما جعلها حبيسة عدم الفاعلية حتى لو توافر حسن النية والرغبة في إنهاء النزاع. رابعها– تركيز المبادرات على إدارة الخلاف بدلا من إيجاد توافق حقيقي بين الطرفين على قاعدة ما هو مشترك، حيث لم تول أهمية كافية لمعالجة التباين (السياسي والأيديولوجي) بين الطرفين انطلاقًا من أساسيات المشروع الوطني الفلسطيني والبرنامج السياسي الأنسب لتحقيقه. والحقيقة أن السبب المحوري في فشل كافة مبادرات التصالح بين الحركتين تعود بالأساس لأنها تنطلق بداية من شرعية أوسلو ومؤسسات السلطة التي أنتجتها، ومن هنا فقد ولدت تلك المبادرات وهي هالكة لأنها تبتعد عن أحد أهم نقاط الخلاف، فضلًا عن تركيزها على الأمور الثانوية.

ولذلك فإن مبادرات إنهاء الانقسام بصيغها المختلفة كانت صيغًا لإعادة إنتاجه، لأنها تقوم على تقاسم السيطرة والنفوذ بين حركتي فتح وحماس، وهو ما يعني أن إنهاء الانقسام يقتضي الاحتكام إلى قواعد مختلفة، تستند إلى تعاقد اجتماعي – سياسي، ينبثق منه توافق وطني على أساسيات المسألة الوطنية وخطوطها العريضة[(٢)].

والوضع حاليًّا، أصبح من الصعوبة بمكان، فقديمًا عندما تعرَّض الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات لضغوط أمريكية شديدة في قمة كامب ديفيد عام ١٩٩٩، ليقدِّم بعض التنازلات في القدس، قال للمسؤولين الأمريكيين إنه يمكن أن يوافق على الصفقة المعروضة عليه فقط إذا حصل الأمريكيون على موافقة السعودية ومصر والأردن عليها، وذلك لأنه كان يدرك أن أيًّا من زعماء الدول الثلاثة لا يمكن أن يقبل بتحمُّل مسؤولية الموافقة على صفقة لا تقدِّم للفلسطينيين والعرب والمسلمين الحدَّ الأدنى من حقوقهم في القدس. وبعد ١٨ عامًا من هذه القمة، لم يخسر الرئيس عباس فقط هذا الدعم الذي يمكن أن يستخدمه لمقاومة ضغوط واشنطن، بل إن بعض الدول التي لجأ لها عرفات؛ أصبحت هي الآن تمارس الضغوط على الفلسطينيين والأردنيين لصالح واشنطن، ولا بد أنها هي من ساهمت في تعزيز القناعة لدى ترامب بالتقليل من تداعيات قرار نقل السفارة والاعتراف بالقدس عاصمة للاحتلال[(٣)]، بجانب تحوُّل الموقف الرسمي الأمريكي من إدانة الاستيطان –على الأقل شكليًّا– إلى دعمه، ورغم أن هذه القضايا إحدى نقاط الاتفاق بين "حماس" و"فتح"، إلا أن فتح لم تطوِّر أدوات للتعامل مع هذا الملف جيدًا في الماضي وحاليًّا، ويبدو أنها لن تستطيع فعل شيء في سياق رؤية ترامب، لاسيما مع تبنِّي الإدارة الأمريكية الحالية لتصوُّر اليمين العنصري الصهيوني لطريقة المفاوضات مع السلطة، وهو أن السلام بين إسرائيل والفلسطينيين يتحقق عبر

(١) ساري عرابي، "نكبة الفلسطينن العربية "، موقع إضاءات، ٢٠١٦/٥/١٦، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/U٧z٥pQ

(٢) باسم الزبيدي، مرجع سابق.

(٣) فراس ابو هلال، "رؤيتان عربيتان للقدس.. ومرحلة جديدة من التيه العربي!"، موقع عربي ٢١، ٢٠١٧/١٢/١٨، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/u٧A٥٤٢

التفاوض المباشر بين الطرفين فقط، الذي يهدف إلى الانفراد بالفلسطينيين وإخضاع التفاوض معهم لميزان القوى الثنائي، بمعنى إبعاد أي وصاية أخرى، بما في ذلك مرجعية الأمم المتحدة وقرارات الشرعية الدولية(١).

وآخر مشاريع بعض الأنظمة العربية، والذي بات يعرف بصفقة القرن، ورغم أنه ليس علميًّا أن نتحدث عن شيء لم يظهر بصورة رسمية، إلا أن التسريبات والتعليقات العديدة التي تدور بخصوص هذه الصفقة، تشير بدرجة ما إلى وجودها. وتدور معظم التحليلات حول وجود مؤامرة لتصفية القضية الفلسطينية من خلال تأسيس دولة منزوعة الأنياب تحت كنف الدولة الصهيونية. لذا فإن أول إجراءات هذه المؤامرة نزع سلاح المقاومة، تحت ستار "سلطة واحدة... قرار واحد... أمن واحد" مع تأسيس الدولة على قطاع غزة وجزء من الشريط الحدودي مع مصر في شمال سيناء. ورغم تصريح أبو مازن بأنها ستكون صفعة القرن وليس صفقة القرن، إلا أن توجُّهات "فتح" تعزِّز نجاح هذا المسار باستمرارها في السلطة وبتنسيقها مع المحتل من جهة، والتضييق على حماس وعدم استيعابها من جهة أخرى.

هناك سيناريو آخر يطرحه البعض حول هذه الصفقة، ويشير فيها إلى ما يمكن تسميته "حل الثلاث دول"، بدلًا من "حل الدولتين"، والمقصود بحل الثلاث دول هو: دولة يهودية، دولة أردنية تضم الضفة الغربية، ودولة مصرية تضم قطاع غزة" من خلال دفع القطاع للثورة على "حماس"، وحدوث قلاقل تستدعي دخول الجيش المصري، أو دخول إسرائيل في حرب واسعة ضد "حماس" ما يستدعي نزوح المدنيين إلى سيناء وتوطينهم هناك(٢).

(١) تقدير موقف، " السياسة المتوقعة لإدارة ترامب نحو الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي"، مرجع سابق.

(٢) فراس أبو هلال، "فلسطين.. المؤامرة، المأزق، المخرج"، موقع عربي ٢١، ٢٠١٨/١/٣١، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/CLiKwy

وتتجاهل الصفقة قضايا القدس وعودة اللاجئين الفلسطينيين، والمستوطنات وغيرها، أي أن ما يتم عبارة عن حكم ذاتي وظيفي موسَّع، ولسنا أمام مشروع دولة أو عملية تحرير. إذن، هناك مشروع تصفية وفق المتطلبات والشروط الإسرائيلية. وربما كان قرار ترمب نقل السفارة الأميركية إلى القدس مؤشرًا على بدء التطبيق العملي للصفقة عبر فرض الأمر الواقع، كما أن ردود الفعل العربية والإسلامية والدولية لم تخرج عن حدود المتوقع لدى الأمريكيين والإسرائيليين(٣). علاوة على التطبيع العلني الذي اتخذته بعض دول الخليج وفي مقدمتها السعودية، التي جعلت خصمها الوحيد هي إيران وليس إسرائيل، حيث أكَّدت الأخيرة مرارًا على أنه لن تكون هناك تسوية للصراع، قبل تطبيع العلاقات مع الدول العربية، رغم وجود علاقات دافئة بالفعل بينها وبين الأنظمة العربية، إلا أنها تريد تطبيعًا كاملًا مع الشعوب أيضًا، ومن هنا أخذت تتوجَّه للإعلام الرقمي العربي، بغرض تهيئة القلوب والعقول لدولة إسرائيلية في قلب الأمة العربية.

خاتمة– مستقبل القضية الفلسطينية: تحديات واحتمالات

نستخلص مما سبق أن التسويق لمشروع المصالحة لا يزيد عن كونه استهلاكًا إعلاميًّا، وأن مقومات نجاحها غير موجودة، رغم محاولات "حماس" الجدِّيَّة في تحقيق مصالحة تخفِّف عنها إرث فشل الربيع العربي.

تعاني فلسطين أزمة غياب خيال سياسي يمكِّنها من تجاوز هذه المرحلة، والقفز فوق المتناقضات لمحاولة استنهاض تجربة جديدة للتعامل مع الحصار الخانق. كما أن استمرار نخبتها كما هي، لا يبشر بتغير في المستقبل القريب.

(٣) محسن صالح، "صفقة القرن هل ستمر؟"، موقع الجزيرة نت، ٢٠١٨/١/٢٥، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/tYi١Dp

ولذلك تجد "حماس" و"فتح" نفسيهما ومن خلفهما مشروع المصالحة الفلسطينية بين ثلاثة مسارات رئيسية، عليهما أن يختارا أحدها، الأول– استمرار الوضع كما هو بغية حدوث موجة جديدة من الثورات تساعد "حماس" على تغيير أوضاعها، وتخفِّف عنها حدَّة الخناق، وهو السيناريو الغالب اتِّخاذه لها. وعلى الجهة الأخرى ستظل فتح مؤمنة بالمحور العربي الخاضع لإسرائيل باعتباره صمام أمانها، ما يعني أن حركة فتح ستظل مؤمنة بعملية السلام باعتبارها الحل النهائي لتسوية صراعها، وبالتالي فشل أي محاولة للمصالحة الفلسطينية.

أما السيناريو الثاني: فهو رضوخ "حماس" لمتطلَّبات أوسلو وشروط الرباعية الدولية، وفي مقدمتها الاعتراف بإسرائيل ونزع السلاح، واللجوء للتفاوض السياسي. وبالتالي تعيد استنساخ تجربة "فتح"، وتحوُّلها من حركة مقاومة إلى حركة مهادنة وخضوع، ما يعني موتًا سريريًّا لمشروعها. وفي تلك الحالة، يمكن أن تحدث مصالحة فعلية بين "فتح" و"حماس" على أرضية أوسلو.

وأخيرًا السيناريو الثالث– وهو صياغة مشروع جديد للمقاومة وفقًا للسياق الحالي، يحدث من خلال انسحاب "فتح" من السلطة الفلسطينية وإلغائها، والاتفاق على استراتيجية جديدة موحَّدة لمقاومة المشروع الصهيوني، إلا أنه أمر شبه مستحيل، نتيجة معاناة "حماس" من إرث تنظيمها المؤسسي الذي أضعف قدرتها على المقاومة والحركة، والذي سيعيق حدوث ذلك حتى لو قرَّرت الدخول فيه منفردة من جهة –ويكفي مقارنة حماس أول عقدين بحماس العقد الثالث، كما يصعب توقع حدوث ذلك الأمر مع استمرار نخبة "فتح" من جهة أخرى.

وعلى الجانب الآخر، نجد أن أي دخول جاد لحماس في منظمة التحرير، مرهون أساسًا بقرار مركزي حاسم لحركة "فتح" بإلغاء اتفاقيات أوسلو والعودة للميثاق الوطني، والاستعداد الحقيقي لتحمُّل أعباء ومتطلبات وأثمان الشراكة والتداول القيادي... وهو أمر غير وارد في هذه المرحلة[(١)].

كما تحتاج المقاومة لنخبة جديدة تدرك جيدًا الخبرة الفلسطينية، وتراعي أخطاءها السابقة، دون أن تعيد تكرارها، مع العمل الدؤوب لتعريف مشروع وطني موحد يجمع ولا يقصي، يوحد ولا يفرق، وفقًا لبرنامج سياسي محدَّد الملامح قابل للتطوُّر، يسع الجميع دون تفرقة، ولا شك أن "حماس" اتخذت خطوات بعيدة من أجل تحقيق ذلك –رغم أخطائها– إلا أن سياقها حال دون استكمال ذلك.

بالإضافة إلى الحاجة لتعزيز هيكل مؤسَّسي ثابت المعايير والقواعد، يمثل بنية كلية تشمل كل طوائف الشعب، وتمثل أداة الاحتكام إليه عند الخلاف والحاجة، مع تطوير أدوات انتخاب أعضائه ومحاسبتهم، بما يمكِّن من المراقبة الدائمة.

ختامًا، في الوقت الذي ساد فيه اليأس من نزاع الجبهة مع المنظمة، ظهرت حركة حماس الفتية في أوج لحظات القتامة، عازمة على استكمال مشروع التحرير، لذا لا تعدم الأمة من رجال قادرين على تجديد عزِّها ومجدها، وليس أدَلَّ ممَّا حدث في انتفاضة الخناجر ودهس العساكر، فيما لم تستطع إسرائيل مواجهته.

لقد مثَّل الربيع العربي لحظة ميلاد جيل جديد، لن يكون أحمد نصر جرار وعهد التميمي آخرهما. وعليه من المنتظر ظهور قوة جديدة قد سئمت من حالة الانقسام ستحاول تلك الفئة وضع موطئ قدم لها في مواجهة الاحتلال، بعيدًا عن كاهل السياسة وحمولة التنظيم التي أضحت ترهق القضية أكثر ممَّا تقدِّم لها.

*****

(١) محسن صالح، "حماس والأسئلة الحرجة"، موقع الجزيرة نت، ٢٠١٧/١٢/٢٩، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/NVK٢A٨

المستوى الثاني– أنماط مقاومة القرار:

-



نحو إعادة الاعتبار لانتفاضة القدس ضد التهويد الإسرائيلي

مروة يوسف(*)

مقدمة:

"القدس بالنسبة لنا موضوع دين –أو أديان– ووطن وتاريخ وثقافة، هي ماض وحاضر، وهي مستقبلنا أيضًا، وفلسطين هي وعاء القدس وحاملتها، وهي من أعطاها في الغالب من صبغتها وأهميتها، ليست القدس مدينة في وطن هو فلسطين، ولكن فلسطين وطن في مدينة هي القدس"

المستشار طارق البشري(١)

لقضية القدس أوجة متعددة مثل الديني والثقافي والإنساني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، تتداخل فيما بينها لتظهر تعقيداتها وإشكالياتها على مستويات عديدة. تلك التعقيدات وإشكالياتها تظهر على مستوى قضية فلسطين ككل، فتزيد الأمر تعقيدًا، فهي ليست قضية تنتهي مع المفاوضات، لذلك فقد تم تأجيلها مرات عدَّة في المسار التفاوضي واعتبارها من قضايا الحل النهائي، إلا أن ذلك الوضع مهَّد لإسرائيل رسم سياسات وتنفيذها على الأرض في كل من الأراضي الفلسطينية وفي القدس بشكل خاص، حيث مارَس الكيان الإسرائيلي سياسة تهويد مكثفة للمدينة المقدسة تهدف إلى إضفاء طابع ديني يهودي عليها –ليس فيها بشكل كبير– وتغيير مسار الوضع الإسلامي العربي على الأرض، وهو ما تستعرضه تلك الورقة.

والسؤال الرئيس لتلك الورقة هو: هل هناك انتفاضة في القدس؟ وللإجابة على ذلك التساؤل ستنقسم الورقة إلى محورين أساسين هما:

١- إلى أين وصلت سياسات التهويد؟

٢- انتفاضة القدس، ويتم فيها شرح مؤشرات وجود انتفاضة داخل مدينة القدس ومشاهدها.

أولًا- عمليات تهويد مدينة القدس:

منذ استيلاء الكيان الإسرائيلي على المدينة في عام ١٩٦٧ وهي تعاني من محاولات التهويد بشكل يومي، لتنفيذ المخطط الرئيسي للكيان الإسرائيلي، وهو أن تكون القدس عاصمة لإسرائيل، وذلك المخطَّط يمزج بين الثقافي والأمني والسياسي والاقتصادي والديني، ويتوجَّه نحو الأرض والعمران والإنسان لنفي وإقصاء كل ما هو عربي وإسلامي في المدينة، وتنقسم خطة التهويد تلك إلى عدَّة مستويات، منها:

١- **المستوى الديني:** والمقصود به الاعتداء الموجَّه للمسجد الأقصى، بالإضافة إلى محاولات تزييف التاريخ والحفريَّات من أجل إثبات وجود الهيكل اليهودي. مع بداية السيطرة الإسرائيلية على القدس الشرقية في ١٩٦٧، كانت البداية استهداف الأقصى، فتمَّ تحويل حائط البراق إلى حائط المبكي ومصادرة ما حوله من أحياء وبوابات كالمغاربة وذلك بحجة كشف

(*) باحثة بمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

(١) المستشار طارق البشري، عن القدس وفلسطين وعاؤها الجغرافي، (في) د.نادية مصطفى، د.سيف الدين عبد الفتاح (إشراف عام): **العدد الأول من حولية «أمتي في العالم» (الأمة والعولمة)**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ١٩٩٨) ص١، منشور على موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث على الرابط التالي: https://goo.gl/qFJcrT

امتداد حائط البراق، وتم تكثيف الحفريات الأثرية في المنطقة التي يسمِّيها الإسرائيليون الحوض المقدَّس، وهي المنطقة التي تضم البلدة القديمة ومحيطها[1]. واستخدمت السلطات الإسرائيلية العديد من الأدوات والآليات لتنفيذ هذا المستوى، منها:

- **تهديد وجود المسجد الأقصى**، ولتهديد وجود الأقصى وجهان، الأول- التهديد المباشر، وبدأت أولى تلك المحاولات مع حرق المسجد في أغسطس ١٩٦٩، وفي يناير ١٩٨٤ دخل يهوديان المسجد الأقصى وبحوزتهما كمية كبيرة من المتفجرات لنسف مسجد قبة الصخرة، وفي يوليو ٢٠٠١ منعت السلطات الإسرائيلية دخول مواد البناء لترميم المسجد الأقصى، وفي ديسمبر ٢٠١٠ حاول مستوطن وضع تفجيرات لنسف المسجد القبلي. أما الثاني- فهو التهديد غير المباشر نتيجة للحفريات التي تقوم بها السلطات الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى وما نتج عنها، مثل: انهيار الدَّرَجِ المؤدي إلى مدخل المجلس الإسلامي الأعلى في ١٩٨٤، واكتشاف فتحة طولها ٣ أمتار وعرضها متران وعمقها أكثر من ١٠ أمتار تؤدِّي إلى نفق طويل شَقَّتْهُ دائرةُ الآثار الإسرائيلية بمحاذاة السور الغربي الخارجي للمسجد الأقصى، وأيضًا في ١٩٩٦ أدَّت الحفريات إلى اهتزازات في الحائط الجنوبي للمسجد[2].

- **تغيير محيط الحرم الشريف**، حيث تحاول السلطات الإسرائيلية تهويد محيط الحرم لتسهيل عملية تغييره نفسه، ومنها على سبيل المثال: الكشف عن مخططات لهدم القصور الأموية المحاذية للمسجد الأقصى في أغسطس ١٩٩٧، وفي أكتوبر ٢٠٠٨ تم افتتاح كنيس يهودي بأرض وقفية بعد خمسين مترًا من الأقصى، وافتتاح كنيس الخراب بجوار المسجد الأقصى في مارس ٢٠١٠، والإعلان عن مخطط بناء كنيس كبير يدعى "فخر إسرائيل" على بعد مائتي متر من المسجد الأقصى في أبريل ٢٠١٠، واعتبار باحات المسجد الأقصى حدائق عامة وفتحها أمام اليهود وتحويل تبعيتها إلى بلدية القدس الإسرائيلية.

- **الحفريات أسفل المسجد الأقصى**، وتعدُّ من أكبر أنواع الاعتداءات التي يتعرَّض لها المسجد الأقصى في محاولة لفرض الادِّعاءات الإسرائيلية حول كونه مكان هيكل سليمان، ومحاولة إعادة إحياء هذا التراث حسب ما تدَّعي إسرائيل، ولم يُعرف متى بدأت الحفريات أسفل المسجد الأقصى، إلا أنه في عام ١٩٨١ تم اكتشاف نفق يمتدُّ أسفل المسجد الأقصى، ومن بعدها أصبحت الحفريات معروفة للجميع، كما سبقت الإشارة إلى انهيار الدَّرَجِ المؤدِّي إلى مدخل المجلس الإسلامي الأعلى في ١٩٨٤، واكتشاف فتحة نفق بمحاذاة السور الغربي للمسجد الأقصى، وفي يناير ٢٠١٣ تم

---

(١) أمجد جبريل، الثقافي والسياسي في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس: قراءة في تفاعلات الأمة مع قضية القدس عام ٢٠١٠، (في) د.نادية مصطفى، د.سيف الدين عبد الفتاح، (إشراف): **حولية «أمتي في العالم» العدد العاشر، الحالة الثقافية للعالم الإسلامي**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١) ص ص٢٢٧ – ٢٢٨، منشور على موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث على الرابط التالي: https://goo.gl/١pviL٨

(٢) محمود محارب، سياسات إسرائيل تجاه الأقصى، **سياسات عربية**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ١٩، مارس ٢٠١٦) ص ص ٨ – ١٩.

الكشف عن وجود كنيس للنساء وحفريات جديدة أسفل بوابة السلسلة.

- **الاقتحامات المتكررة** والتي بدأت بعد يومين من بدء حرب ١٩٦٧ حيث دخل الجنرال "موردخاي جور" وجنوده المسجد الأقصى ورفعوا العلم الإسرائيلي على قبة الصخرة وحرقوا المصاحف ومنعوا المصلين من الصلاة فيه وصادروا مفاتيح أبوابه، ثم تكرَّرت الاقتحامات، وكان أبرزها في يناير ١٩٨١ حيث اقتحمت حركة أمناء الهيكل مع جماعات أخرى الحرم، وفي سبتمبر ٢٠٠٠ اقتحم آرييل شارون ساحات المسجد الأقصى وكانت الانطلاقة لانتفاضة الأقصى، وفي مارس ٢٠١٤ اقتحم الحاخام المتطرف يهودا غليك برفقة مستوطنين الأقصى من جهة باب المغاربة.
- **إغلاق المسجد أمام المصلين**، أُغلق المسجد لأول مرة أمام المصلين بعد حرب ١٩٧٦ وتمت مصادرة مفاتيحه من قبل إسرائيل، وأُغلق المسجد للمرة الثانية في العام الماضي مع رفض البوابات الإلكترونية من قبل المقدسيِّين.
- **تضيق حرية العبادة**، منذ بداية التسعينيات تفرض إسرائيل حصارًا عسكريًّا مشدَّدًا على القدس تمنع بموجبه الفلسطينيين من باقي الأراضي الفلسطينية الدخولَ إلى القدس للصلاة بالمسجد الأقصى إلا للحاصلين على تصاريح، وعادة ما تشترط سنًّا معيَّنة مثل ٤٥ عامًا أو أكثر، هذا من جانب، وعلى الجانب الآخر مازالت خطة التقسيم الزماني المكاني[١] التي طرحتها الحكومات الإسرائيلية محل شد وجذب بين الحكومة الإسرائيلية والمقدسيِّين، حيث تحاور وتناور الحكومة الإسرائيلية لتطبيقها[٢].
- **تغيير الوضع القانوني**، سواء فيما يتعلق بالسيادة على المسجد الأقصى والتي حتى الآن من المفترض أنها تتبع الأردن بناء على ترتيبات بين الأردن وإسرائيل عقب اتفاق وادي عربة[٣]، حيث ناقش الكنيست في ٢٠١٤ مقترحًا بسحب السيادة الأردنية على المسجد الأقصى، أو من حيث إقرار أحقيَّة اليهود في الصلاة داخل المسجد الأقصى وباحاته، فعلى سبيل المثال، وافقت المحكمة المركزية الإسرائيلية على السماح لليهود بالصلاة في المسجد الأقصى في ١٩٧٦، وطبق هذا القرار رسميًّا في ١٩٨٩ مع السماح بإقامة الصلاة اليهودية على أبوابه، ولكنه قوبل بالكثير من المعارضة

(١) خطة التقسيم الزماني المكاني، تعني تخصيص أوقات معينة لدخول المسلمين المسجد الأقصى وأخرى لدخول اليهود، وتقضي باقتسام ساعات اليوم وأيام الأسبوع والسنة بين اليهود والمسلمين، ومن خلالها يرى الجانب الإسرائيلي أنه يستوجب على المسلمين مغادرة الأقصى من الساعة ٧:٣٠ حتى ١١:٠٠صباحًا، وفي فترة الظهيرة من الساعة ١:٣٠ حتى ٢:٣٠، وفترة ثالثة بعد العصر، لتخصيص هذا الوقت لليهود بحجة أنه لا صلاة للمسلمين في هذا الوقت، ليتم السماح لليهود بأداء ثلاث صلوات في اليوم داخله، كما يتم تخصيص المسجد الأقصى لليهود خلال أعيادهم، والتي يقارب مجموع أعدادها نحو ١٠٠ يوم في السنة، إضافة إلى أيام السبت طوال السنة، كما يحظر رفع الأذان خلال الأعياد اليهودية.

(٢) للمزيد حول تفاصيل سياسة تضييق حرية العبادة، انظر:

- شيماء الحديدي، ماذا تعرف عن التقسيم الزماني المكاني للمسجد الأقصى الذي تريده إسرائيل؟، نون بوست، ١٨ سبتمبر٢٠١٥، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/yFW٣b٦

- موقع الجزيرة، التقسيم الزماني والمكاني للأقصى... القنبلة الموقوتة، ٣٠ سبتمبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/eqg٢G٣

(٣) محمود جرابعة، وليهي بن شطريت، **القدس في استراتيجيات أطراف الصراع**، تقارير (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٣٠ يوليو ٢٠١٧) ص٦.

الشعبية الفلسطينية، وبعد الكثير من الاحتجاجات الإسرائيلية سمح المستشار القانوني الإسرائيلي بالصلاة ولكن مع التنسيق مع الشرطة الإسرائيلية في ١٩٩٧[١].

وفي نهاية هذا المستوى نجد أن الأمر لا يقتصر على تغييرات على الأرض فقط، بل القيام كذلك بتغيير الصور النمطية حول المسجد الأقصى، من حيث كونه مكانًا دينيًّا خاصًّا بالمسلمين، واعتباره مزارًا سياحيًّا إسرائيليًّا أو وسيلة دعاية تستطيع السلطات والشركات الإسرائيلية استخدامها من أجل تحقيق مزيد من الأرباح، فعلى سبيل المثال استخدمت وزارة السياحة الإسرائيلية مسجد قبة الصخرة في دعايتها التي تقوم بها من أجل جلب السياح، باعتباره مزارًا سياحيًّا إسرائيليًّا، وليس مكانًا إسلاميًّا له قدسيَّته، ومثال آخر

(١) للمزيد حول الاعتداءات الإسرائيلية على المسجد الأقصى، انظر:

- أبرز الاعتداءات على المسجد الأقصى، الجزيرة نت، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/MyyqSG
- المسجد الأقصى: تاريخ حافل من الاعتداءات والانتهاكات والتزوير، موقع رصيف ٢٢، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/EEufd٣
- أمجد جبريل، الثقافي والسياسي في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس: قراءة في تفاعلات الأمة مع قضية القدس عام ٢٠١٠، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٢٩-٢٣١.
- محمود محارب، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٠ – ٢٢.
- أمجد جبريل، قضية القدس بين سياسات التهويد وتخاذل عالم المسلمين والصمت الدولي، (في) د.نادية مصطفى، د.سيف الدين عبد الفتاح، **حولية «أمتي في العالم» العدد الثاني، العلاقات البينية داخل الأمة**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٠) ص ٤٥٣.
- المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، **هل تقف فلسطين على عتبات انتفاضة ثالثة؟** تقدير موقف، وحدة تحليل السياسات في المركز العربي، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، نوفمبر ٢٠١٤) ص ٣.

على ذلك سماح السلطات الإسرائيلية بإقامة زفاف في باحات الأقصى.

٢- **مستوى ديموغرافية القدس**، تؤثر الديموغرافية وحجم وتوزيع السكان على شكل الأوضاع النهائية، وكانت ومازالت إسرائيل تقوم بتغيير الوضع على الأرض منذ بداية احتلالها، وكان حجم وتوزيع السكان في القدس من أهم الإشكاليات التي واجهتها والتي حاولت بطرق عديدة التغلُّب عليها، والمقصود هنا استهداف المقدسين، فهم العقبة الأساسية أمام عمليات التهويد وتغيير شكل المدينة، فهم المقاومون، وهم المرابطون، وديموغرافية القدس تحدِّد كيفية التعامل الإسرائيلي مع سكان القدس من أجل تقليص عددهم، فكانت سياسة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تهدف إلى جعل نسبة العرب في المدينة القديمة ٣٠٪ من عدد السكان الكلي لتستطيع السيطرة عليهم حين إتمام شكل الوضع النهائي، وعلى الرغم من أن إسرائيل لم تتمكَّن من تحقيق ذلك حتى الآن، إلا أن هناك عامليْن أساسِيَّيْن تعتمد عليهما السلطات الإسرائيلية، وهما: الأول- زيادة أعداد المستوطنين، فعدد مستوطني القدس أقل قليلًا من نصف المستوطنين في كل أنحاء فلسطين التاريخية، والعامل الثاني- عمليات الطرد والإبعاد والتضييق من أجل خفض أعداد العرب في المدينة، هذا بالإضافة إلى خفض مستوى الخصوبة نتيجة عمليات التكدير اليومية[٢]. لتكون ديموغرافية القدس أساسًا لعملية التهويد الإنسانية، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث سياسات رئيسية:

أ) **سياسة الطرد**، وهي عمليات طرد المقدسيين وسحب الهويات المقدسية منهم، وتنفذ على

(٢) يوسف كرباج، الديموغرافيا والصراعات في إسرائيل/فلسطين: توقعات للمستقبل، **مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٨، المجلد الثاني، ربيع ٢٠١٤) ص٤٣.

مستويين: الأول- المستوى الفردي، ويشمل أيضًا عدَّة مستويات: الطرد بالهوية، وهو عملية سحب الهوية المقدسية وهذا يتم أيضًا على شقين: الأول- من غاب عن القدس مدَّة سبع سنوات، والثاني- ضمن عمليات التكدير اليومية التي تمارسها قوات الاحتلال ضد المقدسيين، فيمكن أن تسحب هوية المقدسي على معبر أو بوابة وإن لم يغب عن القدس قط، وفي المجمل تجبر إسرائيل كل عام ٨% من الفلسطينيين الذين يحملون الهوية المقدسية على الرحيل نتيجة لسحب هوياتهم بحجج الإجراءات الإدارية والقانونية[١]. والمستوى الثاني في الطرد الفردي، هو عمليات الطرد المحددة لأشخاص بعينهم، ومنهم طرد البرلمانين المقدسيين، وطرد شخصيات دينية ووطنية مثل الشيخ رائد صلاح، نتيجة لنشاطهم السياسي من أجل حماية المدينة والمقدسيين. أما المستوى الثاني في سياسة الطرد- هي عمليات الطرد الجماعي التي تشمل أحياء بكاملها، ففي العام الماضي كانت القوات الإسرائيلية تستهدف حي الشيخ جرار في القدس، حيث طردت ٤٥ عائلة من منازلها[٢]، وفي بداية مارس ٢٠١٨ أقرَّ الكنيست قانونًا يمنح وزير الداخلية صلاحية إبعاد الفلسطينيين من سكان القدس عن مدينتهم، وينصُّ القانون على منح صلاحية سحب هويات المقدسيين بحجة "خرق الأمانة لدولة إسرائيل"، أو في حال اتُّهِموا بالمساس بالأمن، أو الانتماء إلى أي من "المنظمات الإرهابية" وهو تعريف يطال عمليًّا غالبية الفصائل الفلسطينية، وهو ما يعني أن يتمَّ ترحيل الفلسطينيين دون أي إجراءات قانونية أو محاكم، وبناءً على قرار من وزير الداخلية الإسرائيلي فقط[٣].

ب) **سياسة الهدم**، والمقصود بها هدم آلاف المنازل تحت حجة البناء بدون ترخيص، مع العلم باستحالة الحصول على تراخيص بناء للفلسطينيين في القدس، فيضطر المقدسي لأحد الحلول الآتية: الأول- النزوح من القدس إلى مناطق الضفة الغربية، الثاني- البناء دون ترخيص، وهو ما يعني أن بيته سيهدم في القريب العاجل على نفقته الخاصة، حيث إنه مطالب بدفع نفقة الهدم، أو انتظار معجزة الترخيص، وذلك يعني أنه مطالب بالتنازل عن جزء من أرضه لبلدية الاحتلال، وتصل بعض التقديرات أن هناك ما يقرب من ٥٠٠٠ منزل تم هدمه[٤].

---

(١) أمجد جبريل، قضية القدس بين سياسات التهويد وتخاذل عالم المسلمين والصمت الدولي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٤.

(٢) للمزيد حول سياسة الطرد التي تتبعها إسرائيل، انظر:
- أمجد جبريل، الثقافي والسياسي في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس: قراءة في تفاعلات الأمة مع قضية القدس عام ٢٠١٠، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٣٢ - ٢٣٤.
- تفريغ القدس من الفلسطينيين بالطرد والهدم والاستيطان، موقع عرب ٤٨، تاريخ النشر ٧ سبتمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/cTMnAu
- إسرائيل تتبع سياسة ممنهجة لطرد الفلسطينيين، موقع الجزيرة نت، تاريخ النشر ١٦ أغسطس ٢٠١٦، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٩BZdcs

(٣) للمزيد حول قانون الطرد الإسرائيلي، انظر الآتي:
- قانون إسرائيلي يتيح المقدسين من مدينتهم، سكاي نيوز عربية، ٨ مارس ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/s٣eifE
- قانون إسرائيلي يتيح طرد المقدسيين وآلاف العرب، الشرق الأوسط، ٩ مارس ٢٠١٨، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٦yAhyN

(٤) للمزيد حول سياسة الهدم التي تتبعها إسرائيل، انظر:
- هدم منازل المقدسيين... أن تذبح نفسك، موقع الجزيرة نت، تاريخ النشر ٢٢ مايو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/jyCvBb

ج) **سياسة الاستيطان**، في مقابل سياسة الطرد والهدم تأتي سياسة الاستيطان، ومن أجل تنفيذ تلك السياسة بشكل جيد فقد صادرت السلطات الإسرائيلية ١٨ألف دونم، وأقامت تسع عشرة مستوطنة تزيد مساحاتها على ١٣ ألف دونم، تضم حوالي ٥٧ ألف وحدة سكنية، ويقيم فيها أكثر من ١٥٢ ألف مستوطن، وتوسَّعت إسرائيل في بناء المزيد من الوحدات السكنية في تلك المستوطنات مع انكفاء الدول العربية على ذاتها نتيجة للربيع العربي وما تلاه، ثم قرَّرت إسرائيل المزيد من التوسُّع في بناء تلك الوحدات الاستيطانية لتصل تلك الزيادة إلى ١٤ ألف وحدة سكنية جديدة، بالترافق مع القرار الأمريكي بنقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس[(١)].

د) **سياسات التضيق والتكدير اليومية**، والمقصود بها جملة السياسات التي تتبعها إسرائيل بهدف التضييق على المقدسيين العرب بشكل خاص من أجل جعل الحياة اليومية شبه مستحيلة، وذلك يتم من خلال اتجاهات عدَّة:

١) النظام الأمني المعمول به في القدس من خلال السيطرة على مداخل القرى والشوارع والأزقَّة من خلال الأكمنة وكاميرات المراقبة وما يستدعي ذلك من توقيفات وأسئلة ومشاحنات يومية مع قوات الاحتلال، وزاد الأمر سوءًا مع التكثيف الأمني الذي بدأته إسرائيل في ٢٠١٤ في محاولة لاحتواء انتفاضة القدس[(٢)].

٢) الاتجاه العمراني من خلال ضم المستوطنات إلى القدس وفصل الأحياء الفلسطينية عنها، بناء على قوانين تسنها السلطات الإسرائيلية بحيث تختل ديمغرافية القدس بناء على التغيير الجغرافي العمراني، ومن أهم أساليب إسرائيل في تغيير ديمغرافية القدس الجدار العازل، حيث أخرج هذا الجدار أكثر من ٨٠ ألف فلسطيني من القدس.

٣) الاتجاه الاقتصادي من خلال التضييق على الفلسطينيين في الحصول والوصول إلى أعمالهم، خاصَّة الحرفيين وأصحاب الأعمال الصغيرة من خلال الإجراءات المعقَّدة للحصول على تصاريح وتراخيص لأعمالهم،

---

(١) للمزيد حول سياسة الاستيطان الإسرائيلية، انظر:

- الاستيطان في القدس: ١٩ مستوطنة لتغيير وجه المدينة، موقع الجزيرة نت، أكتوبر ٢٠٠٤، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/cbj٧Yp
- سميحة ناصر، الاستيطان في القدس، إضاءات، ١١ أكتوبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/R٢e٤٦d
- إسرائيل توسع الاستيطان في قلب القدس الشرقية، قناة العربية، ٢٥ أكتوبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/LumTVW
- توسيع الاستيطان في القدس بغطاء أميركي، جريدة الحياة، ٩ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/bKygzS

- هدم منازل المقدسيين وشرعنة المستوطنات، موقع الجزيرةنت، تاريخ النشر ١ ديسمبر ٢٠١٦، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٩ac٢Gp
- أمجد جبريل، الثقافي والسياسي في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس: قراءة في تفاعلات الأمة مع قضية القدس عام ٢٠١٠، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.
- أمجد جبريل، قضية القدس بين سياسات التهويد وتخاذل عالم المسلمين والصمت الدولي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٥.
- نادرة شلهوب، القدس وفلسطين والسياسات اليومية الكولونيالية، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، (حيفا: مركز مدى الكرمل، المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، العدد ٨٥، شتاء ٢٠١١) ص ص ٥٤ – ٦٤.

(٢) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، **آفاق تصعيد المواجهة الشعبية الفلسطينية مع الاحتلال الإسرائيلي**، تقدير موقف، وحدة تحليل السياسات في المركز العربي، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أكتوبر ٢٠١٥) ص٤.

هذا من جانب، ومن جانب آخر تُستخدم الضرائب الباهظة المفروضة على المقدسيين لبناء المزيد من المستوطنات.

٤) تضييق الحركة، من خلال منع الوصول إلى المشافي والأعمال بالإضافة إلى تضييق الحركة داخل الأحياء، فيصعب الانتقال من حي إلى حي آخر، بل يصعب دفن الموتى في مقابر أسرهم إذا سكنوا في حي آخر غير المتواجدة فيه المقابر، بالإضافة إلى منع دخول غير المقدسيين القدس، حتى وإن كانت عائلتهم هناك، فعلى سبيل المثال إذا تزوَّج مقدسي من غير مقدسية، فإما أن يخرج هو خارج القدس أو يحاول تهريبها داخل عربة إسعاف أو عربة خضار[١].

٥) تهويد العملية التعليمية، حيث يتم حصار خيارات التعليم في مدينة القدس، فالمدارس العربية في القدس لم تعد مؤهَّلة للتعليم بسبب قِدمها ورفض السلطات الإسرائيلية ترميمها، بالإضافة إلى أنها ألغت التعليم المجاني للطلبة العرب بداية من ٢٠٠٩، ومن جانب آخر تصر السلطات الإسرائيلية على تطبيق المناهج الإسرائيلية للتعليم[٢].

إن سياسات إسرائيل في تغيير ديمغرافية القدس ليست استثناء أو حالات فردية، فما سبق ينطبق على فئات المقدسيين من رجال ونساء وشيوخ وأطفال، فلا أحد مستثنى من عمليات الهدم والطرد والتكدير، ولا يمر يوم دون أن يتعرَّض الجميع لصورة أو أخرى من تلك السياسات، وما سبق ذكره هي سياسات للتغيير متَّبعة لرسم خارطة جديدة لشكل القدس[٣]، ولا تستخدم إسرائيل ذلك فقط، فلها أذرع ثقافية إعلامية للترويج على مدار السنوات السابقة بأن القدس جزء تاريخي من إسرائيل، ليس أقلها مشهد صلاة ترامب على حائط البراق في زيارته الأخيرة، أو الترويج لذلك في المنظمات والاحتفالات الدولية[٤]، هذا من جانب، ومن جانب آخر –وفي الجانب السياسي– مازالت القدس قضية في الملف النهائي على طاولة المفاوضات المتوقفة الفلسطينية–الإسرائيلية، والسؤال الذي يطرح نفسه هاهنا: متى يحين الوقت لقضايا الحل النهائي؟ وكيف سيكون شكل هذا الحل بعد التغييرات التي تقوم بها إسرائيل منذ احتلالها القدس في سبيل تهويدها؟

إن الجزء السابق من الورقة إنما يهدف لتوضيح حجم معاناة المقدسين وحجم التغيرات التي يتعرَّض لها الأقصى على سبيل المثال لا الحصر، فكما سبق الذكر، لإسرائيل أدوات أخرى للتهويد، لم تستفض فيها الورقة، لأن الهدف الأساسي هنا هو إبراز دور المقدسي في الدفاع عن القدس والأقصى، وهو ما سيلي تفصيله.

ثانيًا– انتفاضة القدس:

كانت ومازالت حركة الشارع الفلسطيني في القدس ذات مسارات عديدة ومختلفة، فمنذ عام ٢٠٠١ مع رحيل فيصل الحسيني وإغلاق بيت الشرق والذي عُدَّ موحِّدَ الحركة المقدسية ضد التهويد منذ احتلال المدينة عام ١٩٦٧ وحتى وقت إغلاقه[٥]، ثم تنوَّعت الحركة في خمسة أطر مختلفة

(١) نادرة شلهوب، مرجع سبق ذكره، ص ص٥٤ – ٦٤.

(٢) أمجد جبريل، الثقافي والسياسي في الاستراتيجية الإسرائيلية لتهويد القدس: قراءة في تفاعلات الأمة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٢.

(٣) نزار أيوب، **مدينة القدس بين الاستعمار الإسرائيلي والقبول الأمريكي**، تقييم حالة (الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ديسمبر ٢٠١٧) ص ١٧.

(٤) انظر على سبيل المثال: د.نادية مصطفى، **قضية القدس في ديزني لاند!! رؤية حول مدلولات العلاقة بين الثقافي والسياسي**، القدس، نوفمبر ١٩٩٩، متاح على موقع مركز الحضارة للدراسات والبحوث، على الرابط التالي: https://goo.gl/LBe٨ve

(٥) أمجد أحمد جبريل، قضية القدس في القرن العشرين: الجذور التاريخية والآفاق المستقبلية، (في) د.نادية مصطفى، د.سيف الدين عبد الفتاح،

تراوحت ما بين منظمة التحرير الفلسطينية (المؤتمر الوطني الشعبي للقدس الذي تم تأسيسه عام ٢٠٠٨ ودائرة شؤون القدس التي تأسست عام ٢٠٠٩)، والسلطة الوطنية الفلسطينية (محافظة القدس ووزارة شؤون القدس)، وديوان الرئاسة الفلسطينية (اللجنة الوطنية العليا للقدس) وفي أغلب الأحيان، جاء تشكيل هذه المؤسسات بناء على "اعتبارات شخصية" وليس ضمن رؤية واستراتيجية شاملة، مع وجود قيود أمنية وسياسية تحد من عملها ونشاطها، ونتيجة لعدم فاعلية ما سبق في توضيح حركة المقدسيين تجاه عملية التهويد المستمرة، جاء إنشاء المرابطين كبديل شعبي ديني على عملية التهويد أيضًا وذلك لحماية الأقصى(١).

جاء تشكيل المرابطين في مقابل رفض السلطات الإسرائيلية إدخال مواد البناء لترميم الأقصى في عام ٢٠٠٠، حيث رأت الحركة الإسلامية تعمير الأقصى بالبشر، حيث يواجه المرابطون الاقتحامات الإسرائيلية وتنفيذَ خطة التقسيم الزماني والمكاني بالمرابطة في الأقصى طوال أيام الأسبوع كل ساعات اليوم بالصلاة والدعاء والهتافات والتكبير عند حدوث تلك الاقتحامات، وظلَّت حركة المرابطين في شَدٍّ وجذب مع السلطات الإسرائيلية –حيث إن الأخيرة تقوم باعتقالهم ومنع دخولهم المسجد الأقصى وإضافة العديد منهم على القوائم السوداء– حتى الآن على الرغم من حظر نشاطهم منذ ٢٠١٥ من قبل وزير الجيش الإسرائيلي(٢).

في البداية يجب التأكيد على أن ما يمكن أن يطلق عليه "انتفاضة القدس" لم يبدأ فقط نتيجة لعمليات التهويد الإسرائيلية بشقَّيْها فقط، ولكن أيضًا بسبب الانقسام الفلسطيني وغياب آلية واضحة لإنهائه، بالإضافة إلى التخاذل العربي ووضوح التحالفات العربية الإسرائيلية، ومن جانب آخر ما زال الخارج –وخاصة الولايات المتحدة– متحيِّز لإسرائيل وقد اتضح ذلك بشكل علني قوي مع إعلان ترامب نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، فيبدو الأمر وكأن الشارع الفلسطيني أخذ يرسم خيارات جديدة بعيدًا عن رهانات التسوية وحسابات الفصائل المختلفة وخلافاتها ومصالحاتها وإشكاليات الإقليم وتصورات الخارج(٣). فكما حدث مع الانتفاضات السابقة، فهي تقوم في ظل غياب سياسي ونضالي، وعندما تغيب القيادات التي تدافع عن الحقوق الفلسطينية تقوم الانتفاضات(٤).

وانتفاضة القدس لها لحظات صعود وهبوط، ولها آليات وأدوات مختلفة، ولها مشاهد أساسية، البعض يطلق عليها هبَّات أو انتفاضات مصغرة تنتهي بانتهاء الأداة المستخدمة، والبعض يطلق عليها حراكًا لأن الحراك بتلك الآليات لم ينتقل إلى كل من الضفة الغربية وغزة، بالإضافة إلى غياب التنسيق والتشبيك بين وحداتها المصغَّرة على الأرض، ربما لكل تلك الآراء وجهات نظر وجيهة مقارنة بالانتفاضات السابقة وحجمها وشكلها وفعلها، ولكن نتيجة لما سبق ذكره من أزمات داخلية وإقليمية وخارجية، وحجم الضغط الذي يتعرَّض له المقدسيين بشكل خاص، سيتم اعتبارها انتفاضة متصلة بدأت في ٢٠١٥ بهبَّة السكاكين وربما قبل ذلك مع حركة المرابطين في بداية الألفية ومع انتفاضة الأقصى، ولم تنتهِ بمواجهة قرار ترامب بنقل

«**الأمة في قرن» عدد خاص من «أمتي في العالم»**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٢) الكتاب الثالث، ص ٤٥٩.

(١) محمود جرابعة، وليهي بن شطريت، مرجع سبق ذكره، ص ص٥ – ٦.

(٢) للمزيد حول المرابطين، انظر:

- ماجدة إبراهيم، أمة في حركة... الرباط في الأقصى بين التحدي والتصدي، **فصلية "قضايا ونظرات"، العدد الخامس**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، أبريل ٢٠١٧)، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/ocndXr
- مرابطو الأقصى، موقع الجزيرة، ١٦ سبتمبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/RqYcg٣

(٣) المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، **تحرك أمريكي لاحتواء الهبة الشعبية في الأراضي الفلسطينية المحتلة**، تقدير موقف، وحدة تحليل السياسات في المركز العربي، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أكتوبر ٢٠١٥) ص ص ٣ – ٥.

(٤) عبد الستار قاسم، انتفاضة القدس، موقع الجزيرة نت، ١٩ أكتوبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/OBssUQ

السفارة الأمريكية إلى القدس، وستتم مقارنتها بالسياق التي ظهرت خلاله وليس الانتفاضات السابقة، فالسياقات هنا محدِّدة وموجِّهة للمسار وكيفية الحركة بل وحجمه ومَن المشارك فيه.

ستتناول هذه الورقة ثلاثة مشاهد أساسية في انتفاضة القدس وهي: مشهد السكاكين وعمليات الدهس، ومشهد رفض البوابات الإلكترونية، ومشهد رفض قرار ترامب بنقل سفارة الولايات المتحدة الأمريكية إلى القدس.

١- **مشهد السكاكين**: بدأ في أكتوبر ٢٠١٥، وأطلق على هذا المشهد انتفاضة بحدِّ ذاته لاستمرار أدواته وحجم أحداثه لما يزيد عن العام، وهو كذلك من حيث قوَّته وحجمه واختلاف حجم المشاركين ونوعيتهم، إلا أنه وفي هذه الورقة سيُطلق عليه مشهد من مشاهد انتفاضة القدس الممتدَّة، كان الطعن بالسكين هو الأداة الأساسية لهذا المشهد لشباب من القدس والضفة الغربية ضدَّ المستوطنين وجنود الاحتلال، اشترك فيها الفتيان والفتيات على حدٍّ سواء، لمدة زادت عن العام ونصف رفضًا لعمليات التهويد الإسرائيلي وردًّا على الأزمة الداخلية التي أنتجت وضعًا متجمدًا فلسطينيًّا، ومتحرِّكًا على الصعيد الإسرائيلي، ثم قامت قوات الاحتلال بعملية ثأرية كبرى ضد الفلسطينيين على المعابر، حيث قامت بتنفيذ عمليات إعدام فورية بحق الشباب أو القيام بحملة عقوبات جماعية على الفلسطينيين نتيجة لتلك العمليات.

أما فيما يتعلق بمجموع العمليات التي نفَّذها الفلسطينيون خلال هذا المشهد، نجد أنها حوالي ١٤٣ عملية طعن، و٨٩ عملية إطلاق نار، و٣٩ عملية دهس، و٩ عمليات زرع وإلقاء عبوات ناسفة، نتج عنها ٢٤٥ شهيدًا فلسطينيًّا و١٢ ألف مصاب، أما على الجانب الإسرائيلي فقد قُتل ٣٥ شخصًا وتم إصابة ٥٠٠ آخرين، بالإضافة إلى أن ٨١% من العمليات نُفِّذَتْ على أهداف عسكرية للجيش الاسرائيلي، فيما تم إغلاق ٤٣ مصنعًا لتصنيع الأسلحة (ورش صغيرة)، وتمت مصادرة ٤٥٠ قطعة سلاح مختلفة، أمَّا فيما يخصُّ عمليات إلقاء الحجارة فقد وجد أن هناك ٨٢٦ عملية إلقاء للحجارة، كما ذكر أن عدد المنازل التي تمَّ هدمها والتي تعود لمنفِّذي تلك العمليات، بلغ نحو ٤٠ منزلاً في الضفة والقدس، فيما تم اعتقال أكثر من ٣٣٦٩ فلسطينيًّا؛ وذلك حسب تقرير إسرائيلي صدر بهذا الشأن، وكانت الإشكالية الأساسية التي واجهت قوات الاحتلال هي غياب التنظيم السري المسلَّح، حيث صعب عليهم معرفة أو متابعة تحرُّكاتهم للحيلولة دون قيام تلك العمليات، وطالبوا بالتنسيق الأمني مع القوات الفلسطينية حيث أمر الرئيس محمود عباس بتفتيش حقائب التلاميذ في الضفة الغربية وأعلن بكل فخر أنه تمت مصادرة أكثر من تسعين سكينًا(١).

٢- **مشهد البوابات الإلكترونية**: في الرابع عشر من يوليو ٢٠١٧ قرَّرت قوات الاحتلال إقامة بوابات إلكترونية كاشفة حول الحرم القدسي بحجه مقتل شرطيين إسرائيليين قرب المنطقة نتيجة لأسلحة تم تخبئتها داخل الأقصى، وكانت العملية التي قام بها ثلاثة شباب فلسطينيين أسفرت عن مقتل هذين الجنديين نتيجة لإطلاق النار عليهما واستشهد فيها الشباب الثلاثة،

(١) للمزيد حول مشهد السكاكين في القدس، انظر:
- محمد شيخ إبراهيم، انتفاضة السكاكين في فلسطين، أخبار أوروبا، ٢٧ يناير ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/J٩AXF٢
- حسين البدري، «انتفاضة السكاكين» خناجر المقاومة في قلب دولة الاحتلال، المصري اليوم، ١١ أكتوبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/SYRt٤e
- انتفاضة السكاكين غيرت أساليب المخابرات الإسرائيلية، موقع الجزيرة نت، ٢٣ أكتوبر ٢٠١٦، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/wZdNxF
- انتفاضة السكاكين تنتقل إلى مرحلة المقاومة المسلحة، قناة العالم، ١٠ يونيو ٢٠١٦، متاح على الرابط:
https://goo.gl/dPt٣MH

فقامت قوات الاحتلال على إثر هذه العملية بمنع الصلاة في المسجد الأقصى واعتقال ٥٨ موظف تابع لدائرة الأوقاف الإسلامية، وتم تركيب البوابات الإلكترونية، إلا أنه يجب التذكير بأن خطة نصب البوابات الإلكترونية أمام بوابات الأقصى أقرّها المجلس الوزاري الأمني المصغر الإسرائيلي منذ ٢٠١٥.

وعلى جانب آخر نفَّذ فلسطيني عملية طعن داخل مستوطنة ممَّا أدَّى إلى مقتل ثلاثة أشخاص. وفي الأردن في ٢٣ يوليو حاول شخصان الدخول للسفارة الإسرائيلية لتنفيذ عملية بداخلها ممَّا أدَّي إلى استشهادهما على يد حارس السفارة، ومن الجانب الرسمي الإسرائيلي أوقف محمود عباس التنسيق الأمني مع إسرائيل، مما اضطر الحكومة الإسرائيلية إلى إزالة البوابات الإلكترونية في الخامس والعشرين من يوليو[١].

وعلى إثر ذلك القرار قامت احتجاجات واسعة داخل القدس وخارجها على تلك البوابات التي تقيِّد حرية الدخول من وإلى المسجد الأقصى، واعتصم الفلسطينيون أمام البوابات، ورفضوا الدخول لساحات الأقصى عبر البوابات، وصلي عدد كبير منهم في الشوارع تعبيرًا عن رفضهم الإجراءات الإسرائيلية، ونتج عن تلك الاحتجاجات ارتقاء ثلاثة شهداء و٣٧٧ مصابًا فلسطينيًّا بمحيط المسجد الأقصى والبلدة القديمة في القدس المحتلة، و١١٠ إصابات في مناطق مختلفة من الضفة الغربية.

يتعبر البعض هذا المشهد انتصارًا للاحتجاج السلمي في مقاومة إسرائيل، ولكن الإشكالية تكمن في أن انتقال الاحتجاجات إلى دول أخرى هو ما اضطر إسرائيل بشكل ما للتراجع خاصة مع رفض المجتمع الدولي تلك الخطوة في ظل الأوضاع الراهنة، بالإضافة إلى أن سير هذه الاحتجاجات لم يكن سلميًّا بشكل كلي فكان تنفيذ عملية الطعن داخل مستوطنة له تأثيره على الجانب الإسرئيلي أيضًا، ولكن لا يمكن إغفال أهمية الاحتجاج السلمي الذي كان موجودًا في القدس سواء في أيام الجُمع، أو الاعتصام الدائم أمام البوابات، أو الرفض الشامل للإجراءات الإسرائيلية، فتشابُك الأدوات وتكاملها، سواء السلمية أو العنيفة هو ما يجعل المقاومة متجدِّدة ومتكيِّفة مع حالة الحصار والإغلاق الإسرائيلي، وإلا سيُقضى عليها.

٣- **رفض قرار ترامب:** أعلن رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب في السادس من ديسمبر ٢٠١٧، عن قرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وهو القرار المتَّخذ في ١٩٩٩ ولكن يتم تأجيله منذ ذلك الوقت، وعُدَّ ذلك القرار بمثابة "وعد بلفور" جديد، ونهاية للوساطة الأمريكية لحل الصراع العربي-الإسرائيلي، ونهاية كذلك لمسار التفاوض السلمي المتوقف منذ فترة كبيرة، إلا أنه ومن جانب آخر كان القرار فاتحًا لحركة احتجاجات كبرى في مواجهة قوات الاحتلال الإسرائيلي على مستوى الدول العربية والإسلامية، ولمواجهات في الداخل سواء في القدس أو الضفة[٢].

---

(١) للمزيد حول مشهد الاحتجاجات على البوابات الإلكترونية، انظر:
- إسرائيل تزيل البوابات الإلكترونية من مداخل القدس، موقع بي بي سي العربية، ٢٥ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٢٣qyeZ
- شيماء عزت، البوابات الإلكترونية حول الأقصى تصبح "رمزا للصمود الفلسطيني"، فرانس ٢٤، ٢٦ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/AM٢٥٢٢
- مونالیزا فريحة، معركة البوابات الإلكترونية الإسرائيلية... هل تفتح باب القدس المقفل؟، جريدة النهار، ٢١ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/ktv٧JT
- أسئلة وأجوبة، ماهي مشكلة البوابات الإلكترونية في القدس؟، رويترز، ٢٤ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/J١wXQv
- أهم محطات معركة البوابات الإلكترونية في الأقصى، موقع الجزيرة نت، ٢٧ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/CfYqF٥
- البوابات الإلكترونية الإسرائيلية تمهيد لابتلاع الأقصى، موقع الجزيرة نت، ٢٠ يوليو ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٤qUf٧Q

(٢) للمزيد حول رفض قرار ترامب، انظر:

يمكن القول بأن الاحتجاجات ما زالت مستمرَّة حتى الآن بشكل خفيف في الأراضي الفلسطينية وخاصة في القدس، ولكن ليس بنفس قوَّتها عند صدور القرار، وذلك على أهمية القرار وتوقيته، حيث انتظر العديد من المتابعين أن تتحوَّل تلك الاحتجاجات إلى انتفاضة ثالثة أو رابعة حسب رؤيتهم، إلا أن ذلك لم يحدث، ويُرجع كثيرون ذلك إلى الخلاف الفلسطيني–الفلسطيني بالأساس وغياب التنسيق.

بناءً على ما سبق نجد أنه بالرغم من عدم قوة الاحتجاجات في الداخل الفلسطيني في مواجهة قرار ترامب، إلا أنه وبالنظر إلى الاحتجاجات التي شهدتها القدس أو الاحتجاجات حول القدس وقضاياها يمكننا القول بأن تلك الاحتجاجات تُعَدُّ مشهدًا أو خطوة في مسار انتفاضة القدس الممتدَّة.

خاتمة:

إن السؤال الذي يطرح نفسه الآن، لماذا هي انتفاضة وليست حركات احتجاجية متفرقة؟ ويمكن الإجابة على هذا السوال بتعريف ماهية الانتفاضة، وهي حسب د.بشير أبو القرايا الذي يري أنها مقاومة مستمرة، من مجتمع أو شعب، لظلم، وقع من قوة داخلية ذات نفوذ وسلطان أو من قوة خارجية أكثر قوة، تهدف إلى سلب هويته وأرض ومقدساته أو إبادته[1]، وإذا نظرنا لوضع انتفاضة القدس سنجد أنها مقاومة ضد العدو من الشعب الفلسطيني تشارك فيها جميع طوائف المجتمع في الضفة والقدس وغزة بل واشترك فيها وساندها عرب الداخل (عرب ٤٨)[2] تتَّضح في المسارات اليومية من المشاحنات على الأكمنة والمعابر حتى العمل المسلح سواء بعمليات الطعن أو إطلاق الصواريخ.

ومن جانب آخر وإذا تم رسم خط جامع بين الانتفاضات الصغرى أو حركات الاحتجاج أو الهبَّات، فإن القدس كانت محور تلك الاحتجاجات كلها منذ عام ٢٠٠٠، فقد مثَّل رفض القرارات الإسرائيلية المختلفة حول القدس مركز انطلاق للاحتجاجات سواء في الداخل الفلسطيني أو في الدول العربية.

ومن جانب ثالث، تنشب الانتفاضات عندما يحصل فراغ سياسي ونضالي في الساحة الفلسطينية تغيب فيه القيادات، وقد شهدت الساحة الفلسطينية فراغات نضالية متكررة عبر مراحل الصراع في فلسطين، وكانت الجماهير الفلسطينية هي التي تهب وتأخذ مكان القيادات السياسية والثورية، فمنذ محاولة "أبو عمار" قيادة انتفاضة

- مظاهرات في القدس ضد ترامب، موقع سي إن إن العربية، ١٥ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/M٥Ruwa
- القدس وفلسطين... سيل من الردود الغاضبة والمعارضة لقرار ترامب، سكاي نيوز العربية، ٦ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:https://goo.gl/dWjZZQ
- الهدف الذهبي... خمسة أسباب تجعل توقيت ترامب بشأن القدس ذكيًّا للغاية، ساسة بوست، ١٢ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:https://goo.gl/RXErqf

(١) د.بشير أبو القرايا، الظاهرة الانتفاضية: دراسة في النموذج الفلسطيني (١٨٨١ – ٢٠٠١)، (في) د.نادية مصطفى، د.سيف الدين عبد الفتاح، «**الأمة في قرن» عدد خاص من «أمتي في العالم**»، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٢) الكتاب السادس، ص ٢٢١.

(٢) يشارك عرب ٤٨ بالتظاهر والاحتجاج على كل ما يحدث في القدس على الرغم من كم الاعتقال والتضيق الممارس بحقهم من قبل سلطات الاحتلال، وللمزيد حول دورهم، انظر:

- عميد صعبانة، تراجع الشعور بالأمان، وتحميل الحكومة الإسرائيلية مسؤولية اندلاع المواجهات الحالية، فلسطينيو الداخل وهبَّة أكتوبر ٢٠١٥، ملفات مدى، برنامج دراسات إسرائيل، (حيفا، مدى الكرمل: المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، ملف رقم ٢٠١٥/٧، يناير ٢٠١٥) ص ٨.
- أنطوان شلحت وإمطانس شحادة، عقد ونصف العقد على (هبّة أكتوبر ٢٠٠٠) فلسطينيو ٤٨ بين فكَّيِ الملاحَقة الأَمنيَّة لرموز الوعي القومي وتجريم العمل السياسي، ملفات مدى، برنامج دراسات إسرائيل، (حيفا، مدى الكرمل: المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، ملف رقم ٢٠١٥/٧، يناير ٢٠١٥) ص ١٢.

٢٠٠٠، فشلت القيادات الفلسطينية في توحيد الشعب الفلسطيني تحت قيادة تعبِّر عن مطالبه خاصة بعد ما وصل إليه الخلاف الفلسطيني-الفلسطيني في ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧.

وبالتالي هي انتفاضة على الرغم من قلة المشاركة الحالية، والتي يعتبرها البعض دليلًا على انتفاء حالة الانتفاض عنها، ولكن قلة المشاركة تلك في أساسها تعبير عن السخط الشعبي من القيادات التي تستغل الانتفاضات في المساومة والمهادنة وليست انتفاضة ١٩٨٧ ببعيدة عنا والتي تم استغلالها في إنتاج اتفاقية أوسلو[١].

وأخيرًا، وبصرف النظر عن تسميتها أو محاولات تحليل الحراك فيها، فهي انتفاضة ممتدة للقدس، في "مصاطب العلم" كما يطلق عليها المرابطون، وفي الهتافات والتكبير عن الاقتحامات، وفي الشجار اليومي للصغار في محاولة العبور للمدارس، وفي تهريب عروس إلى داخل القدس، في رفع سكين وحجر وعلم في وجه الاحتلال، انتفاضة يومية مستمرة تحمل سمات المقاومة الشعبية السلمية تارة والعنيفة تارة أخرى، على الرغم من كافة الإشكاليات حولها والسياقات المحيطة.

****

(١) عبد الستار قاسم، مرجع سبق ذكره.



الاحتجاجات الفلسطينية الراهنة: انتفاضة شاملة أم موجة عابرة؟

أحمد عبد الرحمن خليفة، محمود عاشور مؤمن[*]

مقدمة:

تأتي الانتفاضة الفلسطينية كخيار مطروح أمام القوى في الساحة الفلسطينية مع تعثر المسار السياسي التفاوضي، ولقد شهد التاريخ الفلسطيني انتفاضات —أو ثورات كبرى إن صح التعبير– أبرزها الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦، والانتفاضتان الأولى والثانية: ١٩٨٧، ٢٠٠٠ على الترتيب، وكانت السمة المميزة لهذه الانتفاضات شعبيتها وإنهاكها للعدو الإسرائيلي، وكان الرد عليها دائمًا بمزيد من العنف والقمع والقوة من قبل الاحتلال والانتهازية من قبل أطراف أخرى.

والانتفاضة بوصفها عملًا شعبيًّا من أعمال المقاومة إنما هي حركة وإبداع جهادي شعبي فلسطيني يحمل في طيَّاته معاني الغضب والإجماع ومقاومة الجور[1]؛ أي إن الانتفاضة بهذا المعنى لابد لها من تأييد جماهيري، ووعي تتولَّد معه الرغبة المشتركة في مقاومة المحتل بشتى السبل المتاحة والممكنة.

ولما كان تحليل الأوضاع الراهنة (أو تقدير موقف معين) لا يقف عند حد ثنائية "هنا والآن"، وإنما له سياق تاريخي (ذاكرة)، كما يتطلب تسكين الجزء (الانتفاضة الراهنة) في إطار الكل (المقاومة ككل في إطار الصراع الفلسطيني–الإسرائيلي)، فإن هذه الورقة ستجد في التاريخ آفاقًا مهمة للمقارنة والحكم (التقييم) عما إذا كانت هذه الاحتجاجات الراهنة حول قرار ترامب تمثل انتفاضة شاملة ثالثة أو رابعة–بإعتبار عمليات ٢٠١٥ انتفاضة–؟ أم إنها لا تعدو كونها أعمال غضب عفوية تفتقر إلى الشعبية والاستمرارية سرعان ما تزول؟

وتأتي الأعمال الاحتجاجية الفلسطينية الراهنة في إطار ظروف إقليمية ودولية، بل محلية شديدة التعقيد؛ أو بمعنى آخر: تمثل عنصرًا للخطر والإحباط أكثر منها فرصةً وأملًا للتغيير في الأوضاع الراهنة لصالح الجانب الفلسطيني. فالوضع العربي شديد الاهتراء والضعف، والوضع الإقليمي لا يختلف كثيرًا بصراعاته وحروبه، أما الوضع الدولي فهو اليوم أشد تحيُّزًا ضد الفلسطينيين مقارنةً بأي وقت مضى – على الأقل من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وما زاد الطين بلة استمرار الداخل الفلسطيني في حالة من الانقسام والاستقطاب والضعف، ومع ذلك يظل للشعب الفلسطيني –بل والشعوب العربية– كلمتهم التي تختلف كثيرًا عن حكَّامهم، إلا أن هذا السياق ينبئ بأن الطريق لن يكون ممهدًا للانتفاضة أن تنمو وتترعرع بغية إحداث التغيير دون معاكسات، بل سيقع عليها العبء مضاعفًا إذا ما أرادت خلخلة التوازنات الراهنة وتحريكها لصالحهم.

وانطلاقًا مما سبق سنقسم هذه الورقة إلى عددٍ من المحاور: يبحث الأول في مقدمات وأسباب انتفاضة فلسطينية جديدة، في حين يمحص الثاني احتمالية أن تكون هذه الانتفاضة شاملة، ويأتي الثالث لعرض إمكانيات استمرار الانتفاضة في السياق الإقليمي والدولي، والخيارات المتاحة أمامها.

(*) طالبان بكلية الدراسات الاقتصادية والعلوم السياسية– جامعة الإسكندرية.

(١) إسماعيل عبد الكافي، محمود هيبة، **إدارة الانتفاضة الفلسطينية** كنموذج لإدارة الصراعات والأزمات الدولية: نظرة مقارنة لإدارة انتفاضة الحجارة وانتفاضة القدس، بدون ناشر، بدون تاريخ، ص ص ٧ ، ٩.

أولًا– أسباب ومقدمات انتفاضة فلسطينية جديدة

يبرز على رأس أسباب الانتفاضة الراهنة –بلا شك– قرارُ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بنقل عاصمة إسرائيل إلى القدس(١)؛ وهو قرار تاريخي(٢) عمل كل رئيس أمريكي على إرجائه، بالإضافة إلى الأسباب التقليدية من زيادة وطأة الاحتلال وعدد المعتقلين، توافق ذلك مع تراجعٍ للقضية الفلسطينية في سُلَّم أولويات صانع السياسة الخارجية العربي، وتأزُّم دولي عام بالنسبة لحل القضية الفلسطينية وتعثُّر المسار التفاوضي. تاريخيًّا كانت هذه الأسباب هي أهم المحركات الرئيسية للانتفاضة الفلسطينية، إلى جانب الاعتداء على المسجد الأقصى(٣).

يضاف إلى ذلك مجموعة أعمق من الأسباب تستمد جذورها من إنشاء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية، وزيادة الحصار المفروض على قطاع غزة، واستمرار تحدِّي إسرائيل للشرعية الدولية (قرارات الأمم المتحدة) وذلك بدعم أمريكي واضح، وتعثُّر المفاوضات وفشلها في إحداث خطوات جادَّة نحو الدولة الفلسطينية ذات السيادة، وازدياد حدَّة السلوك الإسرائيلي العدواني تجاه الأطفال والشباب والشيوخ وصولا لدرجة ما يمكن وصفه بـ"تطهير عرقي"، بالإضافة إلى الاستهانة بالمقدَّسات والاعتداء المتكرِّر على المسجد الأقصى والمصلِّين، ويُزاد على ذلك انشغال عربي وإقليمي بالقضايا الداخلية والاضطرابات المنتشرة في أصقاع المنطقة(٤).

انطلقت شرارة هذه الاحتجاجات الراهنة بدعوة من حركة حماس(٥)، واتَّخذت من أيام الجُمَعِ ذروة للعمل الانتفاضي السلمي تحت عنوان "الغضب"، وبدأت تتوافد جموع الشعب الفلسطيني إلى الشوارع للتعبير عن رفضهم، وشملت الاحتجاجات مدن: القدس، رام الله، غزة، الضفة الغربية، حاجز قلنديا، نابلس، الخليل، بيت لحم، طولكرم. واتخذت هذه الاحتجاجات منحى صاعدًا هابطًا، حيث شهدت الأيام التالية لقرار ترامب حدَّة وصدى وكثافة، ثم أخذت في التزايد فالتراجع فالخفوت(٦). ولم يصل الامتداد الجغرافي لهذه الاحتجاجات إلى كافة أرجاء القطاع والضفة الغربية بل ظلَّت –حتى الآن– محصورة في عدد قليل من المدن.

ثانيًا– احتمالية استمرار الانتفاضة وشمولها:

كانت الاستمرارية والشمول من أهم ما يميز الانتفاضتين الأولى والثانية؛ بمعنى طول مدتها الزمنية نحو ما يزيد عن خمس سنوات، والشمول في مشاركة المجتمع الفلسطيني بكافَّة فئاته وفصائله وقطاعاته، وفيما يلي محاولة لفحص وتمحيص مدى توافر –أو بالأدق: احتمال توافر– هذين الشرطين في الانتفاضة الراهنة. **وهنا نحاول طرح**

---

(١) يُراجع بشأن قرار الرئيس الأمريكي ودوافعه وطبيعة الحالة العربية الراهنة المرافقة للقرار: **خلفيات اعتراف ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل وتداعياته**، مركز الجزيرة للدراسات، ١٢ديسمبر ٢٠١٧.

(٢) ويحمل قرار ترامب سمة التاريخية من جانبين: **الأول–** أنه اتخذ قرارًا سعى معظم الرؤساء الأمريكان إلى تأجيله منذ صدوره من الكونجرس ١٩٩٥ خشية الإضرار بعملية السلام أو انخفاض الدعم العالمي للولايات المتحدة كوسيط محايد في القضية أو إعطاء فرصة لمنافسين آخرين أو الإضرار بمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وإدخاله في مزيد من عدم الاستقرار، أما الجانب **الثاني–** فهو قرار تاريخي ليس لأنه يناقض توجهات الولايات المتحدة بشأن إسرائيل ولكن لدرجة انحيازه وجرأته ليتخطى أمورًا كانت تُعد قبل ذلك مسائل خلافية أو متروكة للتسوية المباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

(٣) **بصدد هذه الأسباب المختلفة للانتفاضات عامة، انظر:**

- محسن محمد صالح، **فلسطين: سلسلة دراسات منهجية في القضية الفلسطينية**، بدون ناشر، الطبعة الأولى، مايو ٢٠٠٢، الفصل الخامس ص ص ١٨٤ – ١٩١.

(٤) **لمزيد من التفصيل بشأن الأسباب يمكن الرجوع إلى:**

- **الانتفاضة الفلسطينية ٢٠١٥ – ٢٠١٦**، حلقة نقاشية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٤٥، المجلد ٣٨، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عُقدت بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٦. ص ص ٨٦ – ١٢٤.

(٥) محسن صالح، ربيع الدنان، وائل وهبة، **اليوميات الفلسطينية: شهر ديسمبر**، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ص ص ٩، ١٦.

(٦) **جمعة الغضب.. عشرات المدن تنتفض دعمًا للقدس**، الجزيرة، تاريخ النشر: ٨ ديسمبر ٢٠١٧، تاريخ الدخول: ٢٣ فبراير ٢٠١٨، على الرابط: https://goo.gl/CQ٤LkN .

السؤال التالي: هل الاحتجاجات الراهنة تمثل انتفاضة شاملة؟

تكمن الإجابة عن هذا السؤال في أن الاحتجاجات الراهنة نلحظ فيها مشاركة من قبل فئات المجتمع المختلفة (رجال ونساء وأطفال وشباب)، بالإضافة إلى مشاركة معظم قطاعات المجتمع (الاجتماعية والثقافية والسياسية)، إلا أن هذه المشاركة تظل أفقية لا رأسية، أي لا تتسم بالعمق والكثافة والشعبية اللازمة لوصفها انتفاضة شاملة.

وقد يُعزى ضعف شمول الحركة الراهنة إلى عدَّة عوامل يرجع بعضها إلى التعقد الإقليمي من جانب، والتأزم الدولي من جانب آخر، والاقتسام والانقسام الداخلي من جانب ثالث. **فداخليًّا** –وهو السياق الأهم والأول للانتفاضة– يبرز غياب عنصر القيادة المحفزة للانتفاضة؛ فخلال الانتفاضتين الأولى والثانية توافرت مثل هذه القيادة المشجعة للثورة، بل حاول الرئيس **عرفات** الأخذ بناصيتي المقاومة والمساومة، بخلاف الرئيس **عباس** الذي رأى في التفاوض خيارًا استراتيجيًّا وحيدًا[(١)].

ولا شك أن لعنصر القيادة الكاريزمية التي يجتمع حولها الشعب دورًا كبيرًا في حشده وتعبئته وتنظيمه وتوجيه قدراته، وأيضًا عاملا مؤثرًا في استمرار وشمول الانتفاضة فضلًا عن التحدُّث باسمها، إلا أنه إلى الآن لم يصدر من الرئيس محمود عباس ما يفيد تشجيعه للانتفاضة –الشاملة التي تنطوي على عمليات عنف– أو تدعيمها وتوقُّفه عند حدِّ إدانة قرار ترامب ومراسلة الحكام[(٢)]. إلى جانب ذلك يزيد عنصر القيادة من الطبيعة السياسية للمقاومة ويجعلها تسير في الجانب الدبلوماسي جنبًا إلى جنب الزخم الشعبي، وتزداد أهمية هذا العنصر –على وجه الخصوص في الحالة الفلسطينية– إذ إن عنصر القيادة مرتبط بالمؤسسة السياسية، لما يسبغه عليها من شرعية وما تعطيه له من قوة، وإلا تُعتبر الأعمال الفردية أو الشعبية مجرد دماء تُسال على الأراضي الطاهرة[(٣)]، فلا أهمية للتحرُّكات الشعبية ما لم يتم تحويلها إلى قوة تفاوضية تدعم المفاوض الفلسطيني، وتُحَسِّن من وضع القضية في النظام الدولي.

يُضاف إلى ذلك غياب التوافق الداخلي، فعلى الرغم من توقيع اتفاقية الصلح بين حركتي حماس وفتح (منظمة التحرير) وإعلان الأولى لاتفاقية مبادئ تشير إلى نيتها في التعاون مع السلطة الفلسطينية، إلا أن الأمور لا تزال ضبابية ولم يتم التوصُّل إلى التوافق بشكل تام، ولم تعلن حتى الآن حركة فتح تحمُّسها لانتفاضة جديدة أو تحرُّكات شعبية احتجاجية.

علاوة على ما سبق، تشهد الآونة الأخيرة أوضاعًا معيشية صعبة في قطاع غزة[(٤)] وتذبذبًا واضحًا في موقف الشارع الفلسطيني من كل من الانتفاضة/المقاومة وعملية

---

(١) نادية سعد الدين، الانتفاضة الشبابية الفلسطينية.. دوافع ومسارات محتملة، موقع مجلة السياسة الدولية، تاريخ النشر:٢٧-١٠-٢٠١٥، تاريخ الدخول: ٩-٢-٢٠١٨، على الرابط التالي:
.https://goo.gl/frwMFm

(٢) وبمتابعة خطابه في المجلس المركزي (١٤ يناير ٢٠١٨) نجد أن موقف عباس لم يكن معارضًا لجهود الشعب الفلسطيني الرافضة لقرار ترامب، لكنه كان موقفًا يتَّسم بدرجة عالية من الميوعة والتلوُّن، ففي الوقت الذي كان يُثَمِّنُ ما يقوم به الشعب الفلسطيني من مظاهرات واحتجاجات، نجده على الجانب الآخر يرفض المقاومة المسلحة وينتقد موقف حركتي حماس والجهاد الإسلامي. وجدير بالذكر أن موقف الفصائل الفلسطينية –حركات: حماس، الجهاد الإسلامي، الأحرار، الجبهة الشعبية– الرافض لخطاب عباس يُظهر –بما لا يدع مجالًا للشك– أن عباس لم يكن له موقف واضح من الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي، الأمر الذي يؤكِّد غياب عنصر القيادة المحفِّزة للانتفاضة.

خطاب محمود عباس ٢٠١٨/١/١٤ في جلسة المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، متاح على موقع يوتيوب، على الرابط:
.https://goo.gl/oi١١١E

(٣) انظر في أهمية الارتباط بين الانتفاضة والمؤسسة السياسية، عمليات الشباب الفلسطيني الفردية... مزاجية وانتقامية، منشورة على موقع الشرق الأوسط، بتاريخ ١٠ فبراير ٢٠١٨، تاريخ الدخول: ٢٠ فبراير ٢٠١٨. على الرابط التالي: .https://goo.gl/Vn٩M٤g

(٤) انظر في تفصيل ذلك: تقرير نشره موقع الحياة الجديدة، ورد في: محسن صالح، ربيع الدنان، وائل وهبة، اليوميات الفلسطينية: شهر يناير، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت، ص ٢٣.

السلام، فأكثر من نصف الفلسطينيين في الضفة والقطاع يؤيدون إيقافًا متبادلا للعنف من كلا الجانبين –الفلسطيني والإسرائيلي؛ حيث تشير نتائج بعض استطلاعات الرأي التي أجراها المركز الفلسطيني للدراسات السياسية والمسحية، حول موقف الفلسطينيين من المقاومة إلى تراجعٍ في خيار فكرة المقاومة ما بين العامين ٢٠٠٢ و٢٠١٧، ولا سيما المقاومة العنيفة(١)، إلا أن هذه الآراء تأتي أشد ارتباطًا بالسياق المحيط والتطورات التي تشهدها القضية، وقد يؤدي ذلك التشرذم والانقسام وتردِّي الأحوال المعيشية وضعف تأييد السلطة لخيار المقاومة مع انخفاض الثقة الجماهيرية فيها –من جانب آخر– إلى تراجع الهمَّة بشأن المقاومة بصورها المختلفة. ولكن تظل "القدس" مسألة مركزية بين الفلسطينيين(٢).

ثالثًا– الانتفاضة الفلسطينية في السياقين الإقليمي والدولي: العوائق والفرص

اكتسبت المسألة الفلسطينية منذ بدايتها بُعدًا دوليًّا أساسيًّا، بل هي أصلا من صنع الدول الكبرى؛ ابتداءً من مؤتمر تيودور هيرتزل ١٨٩٧م، مرورًا بسايكس–بيكو ووعد بلفور ١٩١٧، وصولًا إلى الحروب المختلفة في السياق العربي–الإسرائيلي وقرارات ما يسمى بالشرعية الدولية، انتهاءً بالانتفاضات الفلسطينية. وبالتالي يقر معظم الكتَّاب أهمية البعد الدولي في حلِّ القضية الفلسطينية ومدى ارتباطها بطبيعة توزان القوى السائد عالميًّا(٣).

ومن نافلة القول أن إسرائيل دائمًا ما كانت تلعب على أوتار نظام التوزان السائد، فنجدها تودَّدَتْ للعثمانيين تارة، وللإنجليز تارة أخرى، ثم وثَّقَتْ تواصلها مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وظل هذا الارتباط مع الولايات المتحدة قائمًا ليتعدَّى وصف التحالف الاستراتيجي إلى الاندماج والتداخل الذي يصعب وصفه بمصطلحات العلاقات الدولية التقليدية(٤) لتصور إسرائيل أن بقاء واستمرار الولايات المتحدة والغرب أصبح مرتبطا ببقائها هي وليس العكس فحسب، على نحو ما تشير كثير من الخطابات وعلى رأسها خطابات بنيامين نتنياهو منذ منتصف التسعينيات وإلى اليوم.

وبالنظر إلى الواقع الدولي الراهن نجد أننا لا نزال نعيش نوعًا من القطبية الأحادية –حتى وإن كانت هشَّة أو مرنة– فلا تزال تصورات الولايات المتحدة هي المهيمنة على مجمل العلاقات الدولية، وهي الراعي والوسيط في الصراع الإسرائيلي–الفلسطيني رغم ما يُثار حوله من شبهات وتحيزات واضحة –انطلاقًا من طبيعة العلاقات بين إسرائيل وأمريكا السابق الإشارة لها، وبعد قرار ترامب أثيرت أسئلة

---

(١) انظر على سبيل المثال:

- نتائج استطلاع الرأي العام الفلسطيني رقم–٦، المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية، تاريخ النشر: نوفمبر٢٠٠٢، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢٣، على الرابط:

.https://goo.gl/i٨٦rX٢

- نتائج استطلاع الرأي العام الفلسطيني رقم –٦٥، المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية، تاريخ النشر: سبتمبر٢٠١٧، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢٣، على الرابط:

.https://goo.gl/٦F٦er٦

(٢) استطلاع رأي جديد: غالبية فلسطينية ضد قرار ترامب وعدم ثقة بتطبيق قرارات المركزي، شبكة فلسطين الإخبارية، تاريخ النشر: ٢٥فبراير، تاريخ الدخول: ٢٨فبراير ٢٠١٨. على الرابط:

.https://goo.gl/y٤tvmV

(٣) راجع في هذا الصدد على سبيل المثال:

- نادية مصطفى، المشروع الصهيوني والنظام الدولي عبر مائة عام من وعد بلفور، **قضايا ونظرات**، مركز الحضارة للدراسات السياسية، العدد السابع، أكتوبر ٢٠١٧، ص ٩.

- مروة يوسف، خبرة تطور الصراع العربي–الإسرائيلي: الاحتلال والمقاومة عبر مائة عام، **قضايا ونظرات**، مركز الحضارة للدراسات السياسية، العدد السابع، أكتوبر ٢٠١٧، ص ٦١.

(٤) انظر في معنى قريب للمطروح عرض كتاب: جونثان رنهولد الصراع العربي – الإسرائيلي في الثقافة السياسية الأمريكية، عرض: منى مصطفى محمد، موقع السياسة الدولية، منشور بتاريخ: ٢٠١٦/٥/٢٢، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢١، على الرابط التالي:

.https://goo.gl/hrR٤٨B

كثيرة حول إمكانية استمرار الولايات المتحدة[1] في لعب هذا الدور أو التأثير في القضية بشكل عام. والإجابة على السؤال تتلخَّص في أنه إلى الآن لم يستطع الدعم الدولي الرسمي/الشكلي والشعبي من صَدِّ الولايات المتحدة عن قرارها الأخير، ولعل ما شهدته الأمم المتحدة وأروقتها – مؤخرًا– خير شاهد على ذلك[2].

ولعل ما يستنتج من ذلك أن التعاطف الرسمي/الشكلي في الوضع الراهن لن يكون مناصرًا كافيًا للشعب الفلسطيني وانتفاضته ضد الاحتلال، حتى وإن ضمَّت قائمة الدول المعارضة الروس والأوروبيين والصين، فلعبة توازنات المصالح التي تقوم بها الولايات المتحدة مع كل الأطراف الحاضرة لا تجعلهم في حاجة للثورة ضد الأمريكان، فالتسويات حاضرة.

أما على المستوى الإقليمي والعربي:

فهنا يُطرح سؤال مهم: هل الدعم العربي ضروري لاستمرار الانتفاضة الفلسطينية؟[3] وما طبيعة الوضع الراهن؟

---

(١) يشوب موقف الولايات المتحدة إزاء القضية الفلسطينية وطريقة حلها تناقض وتعقد واضحين في عهد ترامب، فنجد أنه في حين يتخذ قرارات تبين درجة انحيازه لإسرائيل بفرض سياسة الأمر الواقع، فإنه في الوقت ذاته يؤكد على حل الدولتين، ويترك بابًا مواربًا نحو التسوية الفلسطينية "صفقة القرن"، وانعكس ذلك التناقض والتعقد على تحليلات الباحثين والكتاب العرب وحتى الإسرائيليين، ففي حين يرى البعض أن ذلك القرار لم يكن إلا إقرار بواقع موجود وهو لم يغيره عمليًا، حيث لم يشر إلى حدود مدينة القدس وأنها من المسائل المتروكة للتفاوض النهائي بين الطرفين، كما أن طبيعة ترامب كرجل أعمال تشير إلى أنه "لا يعطي بالمجان" بل إن إسرائيل ستكون مطالبة إزاء عطيته السابقة أن تضحي من أجل إتمام صفقة القرن. وبالتالي وفق التأويل السابق ستظل الولايات المتحدة تلعب دور الوسيط، خاصة في ظل طبيعة الرد العربي وتفاهمات نظام ترامب مع الحكام العرب التي أوصلها لتلك الأنظمة من خلال اتصالاته التليفونية وجولة نائبه التي أعقبت القرار، وأنه قادر بموقفه هذا على أن يقنع إسرائيل بالتنازل وأنه بذلك صديق لا شك في نيته.

راجع في هذا المعني:

- سعيد عكاشة، إسرائيل والقدس: من تأسيس الدولة إلى قرار ترامب، **مجلة السياسة الدولية**، العدد ٢١١، مجلد ٥٣، يناير ٢٠١٨، ص ص ١٥٨ – ١٦١.

وذلك بخلاف كتابات أخرى رأت في موقف ترامب انحيازًا غير مسبوق في تاريخ الولايات المتحدة التي كانت دائمًا تعلن سعيها وتأييدها لحل الدولتين، وترك خمسة موضوعات خلافية للتفاوض المباشر بين الطرفين (الحدود – القدس – الأمن – اللاجئون – الاعتراف المتبادل)، وأن ذلك القرار لا يضمن حلًا عادلًا ودائمًا للقضية، وبالتالي فهو لا يولِّد إلا مزيدًا من الرفض والتحدِّي، ويخرج الولايات المتحدة من طاولة مفاوضات هذا الصراع.

انظر في هذا الصدد:

- أحمد سيد أحمد، القدس بين الشرعية القانونية والأمر الواقع، مجلة السياسية الدولية، العدد ٢١١، مجلد ٥٣، يناير ٢٠١٨، ص ص ١٦٢ – ١٦٥.

وفي رأينا فإن الولايات المتحدة لا تزال تستطيع أن تلعب دور الوسيط لما تمتلكه من قوة المكافأة والضغط، وما تمتلكه من خطاب سياسي يفتح الأبواب أمام تفسيرات واحتمالات عديدة، ويؤكد أن الولايات المتحدة لازالت راغبة وقادرة في لعب هذا الدور. فالشريك الأوروبي فشل سابقًا في لعب دور كهذا، كما أن روسيا والصين لا تزالان بعيدتين عن طبيعة هذه القضايا التي لم يمهد لها تغلغلها في الشرق الأوسط لذلك حتى الآن، إضافة إلى مواقف ترامب من اليهود وتكوين فريق عمله المقرب من الإسرائيليين والذي يمكنه التفاوض وإقناع إسرائيل بتقديم تنازلات وصولًا إلى الصفقة المرجوَّة.

وفي معنى قريب، انظر:

- علاء سالم، التسوية الفلسطينية المحتملة في ضوء جولة ترامب الإقليمية، **مجلة السياسة الدولية**، العدد ٢٠١٩، مجلد ٥٢، يوليو ٢٠١٧، ص ص ١٠٨ – ١١١.
- سعيد عكاشة، إسرائيل والقدس...، مرجع سابق.

(٢) حيث شهدت الأمم المتحدة تقديم مصر نيابة عن المجموعة العربية لقرار في مجلس الأمن يدعو إلى التأكيد على قرارات الشرعية الدولية السابقة وبطلان أي عمل يغير فيها، واستخدام أمريكا للفيتو في مواجهة باقي الأعضاء، ثم رفع المسألة للجمعية العامة والمشاهد المصاحبة لها من تهديدات الرئيس ترامب ومندوبته –نيكي هايلي– للدول الداعمة للقرار.

(٣) يؤكد معظم الكتَّاب على ضرورة الدعم العربي لاستمرار الانتفاضة وتقويتها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، محمود هيبة، مرجع سابق.
- الانتفاضة الفلسطينية ٢٠١٥ – ٢٠١٦، حلقة نقاشية، **مجلة المستقبل العربي**، العدد ٤٤٥، المجلد ٣٨، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عُقدت بتاريخ ٢١ يناير ٢٠١٦. ص ص ٨٦ – ١٢٤، على سبيل التخصيص ص ٩٣.

تمدنا الوقائع التاريخية في الانتفاضات السابقة أن استمرار الانتفاضات الفلسطينية تزامن مع زخم عربي رسمي وشعبي وإعلامي، فالانتفاضة الأولى كانت في أوج مرحلة رفض إسرائيل والتطبيع معها (رفض كامب ديفيد ونقل الجامعة العربية من مصر لتونس)، أما في مرحلة الانتفاضة الثانية فكان العالم العربي يشعر أيضًا بذروة الضعف والاستهانة، ومن ثم كانت الانتفاضة كموجة شعبية وصيحة غضب مقبولة في هذا الإطار.

إلا أن الأوضاع العربية اليوم لا تنبئ بالشيء نفسه، فثمة تآمر وتآزر عربي مع الخارج في مواجهة الشعوب التي أضحت مغلوبة على أمرها في ظل الثورات المضادَّة، وحملات القمع والعنف والإرهاب الموجَّهة من الدول ضدَّ مواطنيها، يُضاف إلى ذلك أن الحالة الإقليمية التي كانت مناصرة قديمًا للقضية الفلسطينية الآن نجدها منهمكة، إما في قضاياها الداخلية (العراق، مصر، الأردن، سوريا، اليمن) أو بفعل الاشتباك مع الخارج (السعودية، إيران، تركيا)، أو في كليهما معًا.

وفي مثل بيئة كهذه يكون العمل الانتفاضي – مقاومة الجور– هو نتوء خارج عن طبيعة النظام الإقليمي السائد، ونمط تفاعلاته، فالمصلحة –والمصلحة الضيقة وأحيانًا الشخصية للحكَّام– هي المسيطرة على أطرافه الرئيسية، وتصبح معه الاحتجاجات الفلسطينية ودعمها ومتابعتها حدث على هامش قائمة طويلة من الصراعات والقضايا الساخنة والمستمرة التي تكاد تعصف بكيان هذه المنطقة.

رابعًا– المقاومة الفلسطينية: الخيارات والبدائل

يمر الشعب الفلسطيني بأزمة حقيقية من جرَّاء تعنُّت دولي وتمزُّق إقليمي وشتات داخلي، وهذه الأزمة لا تقف آثارها عند حدِّ هذه التحديات السابقة التي يحياها ويعيشها صباح مساء، بل تخطَّاها لتصبح تصفية القضية الفلسطينية صفقة القرن، وهنا نطرح سؤلًا مهمًّا: ما هي الخيارات والبدائل المتاحة أمام الشعب الفلسطيني؟

كانت الإجابة قديمًا تجيء على غرار "الانتفاضة هي الحل" و"لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة"[(١)]، فكانت بمثابة الخيار الاستراتيجي للخروج من حلقة مفرغة من المفاوضات، إلا أنه في ظل التأزُّم الراهن هل لا تزال الانتفاضة كذلك؟ وهل ليس أمام الشعب في الوقت الراهن سوى الانتفاضة؟

تتعدد الرؤى في هذا الصدد، فرأيٌ يرى أن الحالة الراهنة –للأسباب والظروف التي بينَّاها سلفًا– لن يخرجنا منها إلا الانتفاضة، فليس أمام الشعب سواها[(٢)]، وأنه إذا ما أراد لهذه الانتفاضة أن تنجح وتؤتي ثمارها أن يتجمَّع ويتوحَّد خلف مشروع وطني واحد.

أما الرأي الثاني، وهو الأقرب لعباس وحكومته، فإن زمن الانتفاضة قد وَلَّى، وأن القضية لن تُحل إلا من خلال الدبلوماسية التي تؤسَّسُ على قضايا الشرعية الدولية كما أسلفنا.

ورأي ثالث يُوَفِّق بين الرأيين السابقين، ويضع الانتفاضة في إطار الكل –المقاومة بكافة أنواعها– وبالتالي يرى في الانتفاضة عملًا من أعمال المقاومة إلا أنه ليس الوحيد، بل يجب أن تعضده وتعززه مقاومة مدنية تقوم على

---

(١) كلمة خليل الوزير "أبو جهاد" القيادي في حركة فتح الذي اغتالته إسرائيل في خضم أحداث الانتفاضة الأولى، ورد في: الانتفاضة الفلسطينية الثالثة و"سلطة أوسلو": هل تقدم قيادة السلطة على التمرد على نفسها؟ تاريخ النشر: ١٥ يناير ٢٠١٨، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢١، متوفر على الرابط: https://goo.gl/SWd٥١x.

(٢) نفس المرجع السابق، وفي نفس المعنى أيضًا انظر:

- حميدي العبد الله، الانتفاضة الفلسطينية: هل هي حالة مؤقتة؟، تاريخ النشر: ١٢ ديسمبر ٢٠١٧، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢١، متوفر على الرابط: https://goo.gl/HytUoB.
- منير شفيق ، الرد على دونالد ترامب، التجديد العربي، تاريخ النشر: ٦ فبراير ٢٠١٨، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢١، على الرابط: https://goo.gl/CFPrFm

رباعية[1] (الوحدة الوطنية، المقاومة الشعبية، والمقاطعة، وفرض العقوبات) انطلاقًا من إعادة الاعتبار لمفهوم الشعب، والإيمان بقدرة الناس على إحداث تغيير سياسي[2]. وهدفها في النهاية خلق توزان دولي لصالح القضية الفلسطينية[3].

وفي رأينا فإن الخيارات رغم ضيقها لا تزال موجودة ومتاحة (المقاومة المدينة، الاحتجاجات، المقاطعة، الانتفاضة الشاملة)، ولكنها أصبحت بحاجة لأن تكون مُصمَّمة ومُحكمة بشكل يخدم أغراضًا استراتيجية[4]، ويراعي أن لكل أمة أو شعب طاقة تفرغ وتُشحن بطرق مختلفة، والانتفاضة كعمل وخيار لابد من إدراك أنها تضعف حينًا وتقوى حينًا آخر، وأنها تمر بموجات من الصعود والهبوط، ومن ثم يصبح التعويل على طبيعة النظر إلى الانتفاضة، فهل هي غاية تُتوخى لذاتها أم أنها وسيلة يُبتغى من ورائها إحداث تغيرات لصالح الفلسطينيين؟ وهل نحن الآن في عصر الانتفاضات العفوية المدارة تلقائيا أم أن الأمر بات يتطلب مزيدًا من الجهد والتخطيط والتدبير؟

يبقى هنا عرض خيار وسمة أخيرة تتعلق باستخدام العنف أو العمليات المحدودة ضد العدو الإسرائيلي، والشاهد أن كافَّة الانتفاضات تميَّزت بملمح استشهادي وعنفي واضح من قبل الطرفين، يحاول الفلسطينيون من خلاله تكبيد العدو خسائر في الأرواح والجنود وبث الرعب في نفوس الإسرائيليين. ولعل العامل النفسي هنا أهم من العددي، فإثارة الذعر تدعو الشعب الإسرائيلي إلى التحرُّك للضغط على حكومته لإنهاء تلك الحالة، إلا أنه ومع تكرار هذه الحالات أصبحت القوات الإسرائيلية تُعِدُّ لمواجهة هذا الخيار عُدَّته وتضرب حيث يوجع من خلال طريقة العقاب الجماعي التي قد تؤدِّي إلى "فصل المقاومة عن الشعب"[5]، وهو ما تكون له آثاره السلبية على الشعب والمقاومة، إلا أنه يظل خيارًا مفتوحًا وقائمًا ما زال الاحتلال قائمًا.

خاتمة:

يبدو من التحليل السابق أن احتمالات الانتفاضة الشاملة متعثرة -في حدود إدراكنا، وأن الخيارات المطروحة تبدو أقل مما سبق، إلا أن هذا الواقع بذاته (المأزوم دوليًّا وداخليًّا وإقليميًّا) قد يؤدِّي إلى المقاومة الشاملة التي يتضافر فيها المدني مع المسلح، والعفوي مع المنظم، والفردي مع الجماعي، ولكن ذلك مرهون بأمرين لا ثالث لهما، إما حصول توافق وطني جامع، أو خلاف يفضي إلى تحرك جماهيري شعبي بعيدًا عن القيادة الرسمية الحالية والفصائل الفلسطينية التقليدية التي ظلت تقود العمل الانتفاضي طيلة السنوات الماضية.

وتشير الوقائع والمؤشرات -التي سبق عرضها من نتائج الاستطلاعات وطبيعة الانقسام الفلسطيني الداخلي والحالة العربية والإقليمية والدولية- إلى أن سيناريو التحرك الجماهيري البعيد عن القيادات التقليدية هو الأقرب للحدوث، خاصَّة أن التهديد الراهن يَمَسُّ بشكل أساسي الوضع في **القدس**، بما لها من مكانة في نفوس المسلمين والمسيحين -من غير الصهاينة- عامَّة والفلسطينيين خاصَّة، ويخبرنا التاريخ أنه حينما يتعلَّق الأمر بالأقصى والمقدسات فإن الانتفاضة تكون واقعة لا محالة، كما حدث في انتفاضة الأقصى (الانتفاضة الثانية)، وتركيب البوابات الإلكترونية في الفترة الأخيرة.

---

(١) بشير أبو القرايا، المقاومة المدنية في الضفة الغربية في مواجهة الاستيطان الإسرائيلي، **فصلية قضايا ونظرات**، مركز الحضارة للدراسات السياسية، العدد الخامس، أبريل ٢٠١٧، ص ٥٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٥٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٥٦.

(٤) عبد الغني سلامة، الاستراتيجية الفلسطينية، **مجلة شؤون فلسطينية**، العدد ٢٦٤، فلسطين، صيف ٢٠١٦، ص ص ٥٢ – ٦٩.

(٥) انظر في هذا الطرح: لبابة ذوقان، العقاب الجماعي الإسرائيلي في وجه العمليات الفردية في الضفة، مقال منشور على القدس العربي، بتاريخ: ١٥ يناير ٢٠١٨، تاريخ الدخول: ٢٠١٨/٢/٢١، متاح على الرابط: https://goo.gl/K٨LJpW.

ويأتي في هذا السناريو التحرُّك السياسي الرسمي والفصائلي تابعًا لهذا الحراك لا قائدًا له، وسيحاول أن يسمو بخلافاته بعيدًا عن المساومات والمفاوضات.

غير أن المعوقات لهذا السيناريو تبقى ماثلة، فالتحرُّكات الدولية الراهنة من الوطأة والشدَّة بشكل تصعب معه المقاومة، والداخل الفلسطيني من الانقسام والخلاف بصورة تجعل من التوافق الوطني أمرًا يُتشكَّك في الولوج إليه، كما أن الوضع العربي من الاهتراء والمهانة بشكل يجعل دعم المقاومة والتحرُّك لصالحها أمرًا غير يسير المنال.

يُثبت التاريخ أن المقاومة تكون بقدر تماسك المجتمعات والشعوب بعدالة قضيتها وبحسن تنظيمها لصفوفها وإصرارها على تحقيق أهدافها، ومن ثم فالتعويل على الشعب الفلسطيني وقدرته على التحدِّي والتصدِّي تظل هي مفتاح الخروج من ذلك النفق المظلم.

*****



ردود أفعال الشعوب العربية حول قرار ترامب

نادية عبد الشافي(*)

مقدمة:

ما زالت الأمة العربية والإسلامية تتعرض إلى الكثير من الصدمات والهجمات والحروب بشتى أشكالها والتي تضع أبناءها في مواجهة مستمرة للدفاع عن ووجودها وهويتها وخصائصها، وتعتبر المقاومة هي الأسلوب الأمثل والطبيعي للتصدي لما تواجهه الأمة ولا يجوز التخلف عنها؛ لأنها تعتبر استجابة إنسانية تظهر بتجليات متعددة تعبر عن ارتباط الفرد بأمته(١).

ومن أبرز ما تعرضت له الأمة في الفترة الأخيرة، اعتراف الرئيس الأمريكي ترامب في ٦ ديسمبر ٢٠١٧ بأن القدس عاصمة إسرائيل، ونقل عاصمة بلاده من الأراضي العربية المحتلة إلى القدس(٢). وقضية القدس من أهم قضايا الأمة، لذلك فلا يسوغ أن نتعامل معها على أنها قضية هامشية ننتفض لأحداث معينة تمر بها، ولكن يجب أن نتعامل معها -كما يقول د.سيف عبد الفتاح- على أنها "ميزان المقاومة وميزان عزة الأمة(٣)"؛ لأنها جزء من مقدسات الأمة ومقوماتها العقدية والحضارية وتحتوي على ميراث تاريخي وديني وقانوني يتطلب من أبناء الأمة اختيار الوسائل الأكثر فعالية للدفاع عنها(٤).

ومن هنا يأتي تساؤل هذا التقرير المتمثل في الآتي: هل ما حدث من رود أفعال الشعوب حول قرار ترامب يمثل مقاومة مدنية (شعبية حقيقية)؟ وسوف يحاول التقرير بقدر الإمكان الإجابة عن هذا التساؤل من خلال الآتي:

أولًا– أمة واحدة ومصير واحد:

ما زال القادة وبعض السياسيين العرب ينظرون إلى الدوائر العربية والإسلامية على أنها منفصلة، بالرغم من أن الغرب ينظر لها ككيان كلي له خصائصه ومقوماته(٥)، وبالرغم من التاريخ المشترك بينها الذي يشمل مراحل تاريخية متعددة: كتاريخ نشوء الإسلام، والفتوحات، وتوسع الدولة الإسلامية، ومواجهة الأخطار الخارجية للدولة الإسلامية، والتصدي للاحتلال الغربي في العصر الحديث.. كل هذا خلق مشتركا بين هذه الدوائر جعلها كيانًا واحدًا جماعيًا، يواجه نفس الخصوم والأعداء(٦)، إذنًا فلا جدوى من إغلاق القطر الواحد حدوده على نفسه، كما لا يمكن لأي دولة حتى وإن سعى قادتها عدم الاكتراث بالهم العربي وبالقضايا التي تهدده؛ لأن هذه القضايا تجعلهم رغمًا عنهم

(*) باحثة بمركز الحضارة للدراسات والبحوث

(١) حسن جمعة، ثقافة المقاومة: إعادة بناء الذات العربية المدنية، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٤،ص ص ١٤/٦.

(٢) أمل شاكر، القدس العربية لنا، الأهرام، ٢٢ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/y١wtRf

(٣) سيف الدين عبد الفتاح، القدس ميزان المقاومة، العربي الجديد، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/UFxB٣q

(٤) نادية مصطفى، قضية القدس في ديزني لاند رؤية حول مدلولات العلاقة بين الثقافي والسياسي، مجلة القدس، ١٩٩٩، منشور على موقع مركز الحضارة للدراسات السياسية، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٩Kq١٦t

(٥) مركز الحضارة للدراسات السياسية (إعداد)، نحو منهج للنظر في قضايا الأمة وعلاقتها الدولية: قراءة في مقدمات المستشار البشري لحولية أمتي في العالم، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٣٧/١٣٨، ٢٠١٠، ص ٧٨.

(٦) أماني صالح، توظيف المفاهيم الحضارية في التحليل السياسي الأمة كمستوى للتحليل في العلاقات الدولية، في: د.نادية مصطفى، د.منى أبو الفضل تحرير، العلاقات الدولية البعد الديني والحضاري، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، ٢٠٠٨، ص ٤٨.

كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر[1]خاصة في ظل التكتلات الدولية؛ لذلك أصبحت الوحدة بين الشعوب العربية والإسلامية ضرورة حيوية؛ لنصرة بعضها البعض[2]. فهناك من يسعى لمحو مفهوم الأمة والوحدة من وعي الشعوب، وهناك أيضًا من يتصدى لهذا الأمر بإحيائه، إدراكًا منه أن للأمة "وجودا وانتماءً ومصيرًا واحدًا، يجعل الفرد يشعر بمكانه ودوره فيها ويتابع شئونها باعتبار أنه يتابع شئونه الذاتية[3]".

وجاء قرار ترامب ليختبر وعي الشعوب وإدراكها للمشترك بينها ووحدة مصيرها، وكراهية المحتل الغربي وسياساته[4]، بعد أن سيطر على لغة الخطاب العربي العام مفاهيم ومصطلحات اليأس والعدمية، التي بثت روح القعود عن المواجهة الفعلية للعدو والاكتفاء بالإدانة[5]. وتم اختيار المقاومة المدنية –الشعبية– ضد قرار ترامب، لتكون هي معمل اختبار وعي هذه الشعوب بوحدة المصير، والتلاحم، وإدراك مفهوم الأمة.

ثانيًا– المقاومة عزة الأمة وقوتها:

هناك ارتباط بين مفهوم المقاومة، وبين الهجمات التي تتعرض لها الأمة وتهدد كيانها، فهذه الهجمات هي ما يولد لديها فعل المقاومة، ولم تغب أيضًا المقاومة في عصور القوة التي كانت تتمثل في أشكال الوقاية والحماية[6].

وللمقاومة أشكال كثيرة، وليس كما يعتقد البعض أنها مرتبطة فقط بالرصاص والقتال والمعارك، ولم تقف المقاومة في يوم ما أمام السلام أو تكن له خصمًا. كما يروج البعض ولكنها تتصدى للاستسلام الذي أطلق عليه الغرب "السلام" للتأثير على الشعوب ولفرض هيمنته عليها[7]. وتعدد أشكال المقاومة، فمنها السلمية ومنها المسلحة، ومنها السياسية الرسمية ومنها الشعبية، ومنها المدنية، ومنها المقاومة الحضارية الواسعة الأعداد والأرجاء. وسوف يتم التركيز على المقاومة المدنية (الشعبية) محل اهتمام التقرير؛ لأنها تعد من أبرز الأساليب الدفاعية النضالية التي قامت بها الشعوب منذ القدم للحصول على استقلالها وحريتها وهويتها، وللتخلص من العدو المحتل، والوقوف أمام بطش وقمع الأنظمة الديكتاتورية القمعية.

تُعرف المقاومة المدنية على أنها نوع من السلوك اللاعنفي، يشمل سلسلة من الإجراءات المستمرة ضد قوة أو سلطة معينة تمارس قهرًا أو عدوانًا أو احتلالًا؛ أما وصفها بالمدنية فيرجع لارتباطها بالمواطنين والمجتمع، ولتميزها بالسلمية الحضارية غير العسكرية، وتعتبر شكلا من أشكال الحركة الجماهيرية التي تسعى إلى تحقيق هدف معين أو مجموعة من الأهداف[8].

وتأخذ المقاومة المدنية طابعَ الدفاع وردّ العدوان، أو إسقاط الأنظمة الاستبدادية، أو الإعلان عن رأي معارض لموقف ما تتصدى له وتحاول إنهاءه[9]، وتستلزم المقاومة المدنية عدة أمور منها: تحليل دقيق لمختلف جوانب الوضع القائم وتحديد الجوانب الذاتية والموضوعية التي يمكن تأثر سلبًا أو إيجابًا في الصراع، والتخطيط الجيد للنشاطات التي يمكن لأفراد المقاومة القيام بها، ويتضمن التخطيط تحديد

(١) خليل إبراهيم البنا، إلى الأمة العربية مع التحية، دار أمواج للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ص ٢٢–٢٣.

(٢) خديجة النبراوي، يقظة الأمة، سوزلر للنشر، ١٩٩٨، ص ٣٢٩.

(٣) المستشار طارق البشري، أمتي في العالم: مقدمات الحكيم البشري، سلسلة الوعي الحضاري ٧، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٤، ص ٢١.

(٤) المرجع السابق، ص٤٢.

(٥) صلاح سالم، الصهيونية والمقاومة العربية..رؤية ثقافية، المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٦، ص ١١.

(٦) هاني محمود، المقاومة الحضارية دراسة في عوامل البعث في قرون الانحدار، مركز الحضارة للدراسات السياسية، دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠١٧، ص ص ٣٧–٣٨.

(٧) للمزيد انظر: عمار علي حسن، التغيير الآمن: مسارات المقاومة من التذمر إلى الثورة، دار الشروق، ٢٠١٢.

(٨) عبد الهادي خلف، المقاومة المدنية: مدار العمل الجماهيري وأشكاله، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٨، ص ص ٩١/٩٤.

(٩) أحمد عبد الحكيم وآخرون، حرب اللاعنف الخيار الثالث، أكاديمية التغيير، ٢٠١٣، ص٦٠.

الوسائل الفعالة لنجاح المقاومة، وتعبئة وحشد الجماهير[١].

ويختلف البعض حول بعض الأنشطة، وكونها مقاومة أو لا؛ فرأيٌ يطلق عليها مقاومة، وآخر يطلق عليها احتجاجًا، وثالث يعتبر المقاومة والاحتجاج مفهومًا واحدًا، وهذا الخلاف لا يقلل من قيمة النشاط سواء كان مقاومة أو احتجاجًا؛ لأن هناك مجموعة من العوامل هي التي تحدد نوعية النشاط كونه احتجاجًا أو مقاومة؛ كالبيئة السياسية والاجتماعية والثقافية وهدف النشاط وغيرها من العوامل. ويقصد بالاحتجاجًا مجرد التعبير عن موقف رافض ولكن لا يلزم منه الاستمرار ولا التكرار، وغلبًا ما يكون على سبيل ردّ الفعل. أما المقاومة فقد تبدأ باحتجاج وتتحول بعد ذلك إلى مقاومة ترفض الإذعان، وتتسم بالاستمرارية، وتسعى إلى تحقيق هدفها مثل المقاومة المدنية الفلسطينية تجاه المحتل، وفي صورتها النموذجية تقوم على تصور استراتيجي بعيد المدى، وتحدث الهدف المطلوب[٢].

فإن التفرقة بين المقاومة والاحتجاج ليس الهدف منها معرفة ما هو أفضل، فكل منهما له أهميته التي لا أحد ينكرها، ولكن الهدف معرفة ما تقوم به الشعوب تجاه حدث معين هل هو مقاومة أم احتجاج مؤقت؛ لأن هناك أحداثًا تتطلب الانتقال من الاحتجاج إلى المقاومة؛ لأهميتها وخطورتها على الأمة. ويعتبر قرار ترامب من الأحداث الخطيرة والعدوانية في تاريخ الأمة العربية والإسلامية، والتي تستلزم المقاومة الشعبية.

ثالثًا– ردود أفعال الشعوب العربية :

تحركت الشعوب العربية بشكل سريع، رافضة قرار ترامب، رافعة شعار "القدس عربية"، لتؤكد على أن الأمة العربية مازالت موجودة في وعي بعض أبناءها، وأنها ليست كما يصفها البعض باتت"جثة هامدة"، وأنهم مازالوا يتألمون ويساندون بعضهم البعض–حتى لو بنسبة ضئيلة– ولكن هناك عوائق تحول دون إظهار ذلك أو ترجمته على أرض الواقع؛ منها ما هو ذاتي ومنها ما هو خارجي[٣].

وتنوعت ردود الأفعال ما بين تحركات في الشوارع والميادين، بما فيها تظاهرات وتحركات شعبية من طلبة مدارس وجامعات، ومواقف برلمانية ونقابية، وكذلك حراك إلكتروني وإعلامي وفني، ومن ثم سوف نعرض نماذج لكل عنصر على سبيل المثال وليس الحصر.

أ) تحركات الشوارع والميادين :

خرجت أعداد من المحتجين الرافضين من الشعوب منددة بقرار ترامب في العديد من الدول العربية والإسلامية. ففي مصر توجه بعض المتظاهرين إلى نقابة الصحفيين، على الرغم من قانون الطوارئ والتظاهر الذي يقييد حركتهم ويهددهم بالعقوبات[٤]، وطالبوا بقطع العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإغلاق سفارتها، وإغلاق سفارة إسرائيل في الدول التي تربطها اتفاقات سلام معها (ومن ضمنها مصر) رافعين لافتات مكتوبًا عليها عبارات منددة بالقرار[٥]، مما أدى إلى القبض على عدد منهم من قبل الشرطة، ووجهت إليهم النيابة تهمة الانضمام إلى لجان ووحدات إلكترونية تابعة لتنظيم الإخوان المسلمين[٦]. وخرج الآلاف من جامع الأزهر الشريف مطالبين بمقاطعة تجارية واقتصادية للولايات المتحدة، وشدد المتظاهرون على دعمهم للشعب الفلسطيني ولعروبة القدس رافعين لافتات

(١) عبد الهادي خلف، مرجع سابق، ص٩٤.

(٢) أحمد عبد الحكيم وآخرون، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٣) جمال علي ظهران، ثقافة المقاومة والتحرير في إدارة الصراع العربي الصهيوني، مكتبة الشروق الدولية، ص٤٤.

(٤) الشعوب العربية تصرخ في وجه "ترامب": القدس عربية...، اليوم السابع، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٥ebggW

(٥) كل ما تريد معرفته ميدانيًا وسياسيًا منذ إعلات ترامب...، euronews، ١١ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/UzjtVj

(٦) بين التعتيم الإعلامي وتقييد حرية الصحافة..التحركات الاحتجاجية المنادية بالقدس عربية في مصر، مركز هردو لدعم التعبير الرقمي ٢٠١٨، ص٨، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/pqCZQy

"القدس عربية، القدس فلسطينية، يسقط ترامب ... أين الحكام العرب[١]".

وفي الأردن خرج مئات المتظاهرين في العاصمة عمان رافضين أيضًا قرار ترامب، وقاموا بحرق صورته وعلم الولايات المتحدة[٢]، رافعين أعلامًا أردنية وفلسطينية أمام السفارة الأمريكية، وتجمع نحو ألف شخص قرب مبنى السفارة في منطقة عبدون[٣]، وأكثر من عشرين ألف شخص في مسيرة مركزية[٤]، وطالبوا حكومة بلادهم والديوان الملكي بإلغاء العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، وإغلاق السفارة الإسرائيلية خاصة أن القرار يلغي إشراف السلطة الأردنية على المقدسات بالقدس[٥].

أما في المغرب فقام عدد من المتظاهرين بوقفة احتجاجية بمدينة طنجة تحت شعار "من أجل القدس مع المقاومة وضد كافة أشكال التطبيع" تلبية لدعوة مجموعة العمل الوطنية من أجل فلسطين، والجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني، وخرجت مجموعة من المتظاهرين بالرباط تندد بصمت الأنظمة العربية[٦].

وفي تونس تجمع المئات وتوجهوا إلى السفارة الأمريكية، ولكن الشرطة قطعت الطرق المؤدية لها، وشارك عشرات الآلاف في مسيرات رافعين الأعلام الفلسطينية[٧].

وشهدت البحرين أكثر من ثلاثين احتجاجا رافضا للسياسات الأمريكية في المنطقة، ومؤيدا لحق الفلسطينيين الكامل في القدس، رافعين صورًا لمدينة القدس المحتلة ولآية الله الشيخ عيسى قاسم كُتب عليها (القدس عاصمتنا الأبدية)[٨].

وفي لبنان شهد مخيم عين الحلوة للاجئين الفلسطينيين جنوبي لبنان مسيرةً وإحراق إطارات مطاطية[٩]، وشارك الآلاف في مظاهرة منظمة في العاصمة بيروت[١٠]، وطغى عليها النساء والأطفال، وتحركت المظاهرة نحو مقبرة الشهداء الفلسطينية المحاذية لمخيمي صبرا وشاتيلا[١١].

وعمت المظاهرات عدة مدن عراقية منها: الموصل والبصرة وبغداد والأنبار[١٢]، وتميزت المظاهرات بأنها موحدة تضم سُنّة وشيعة، وشارك بها نواب وسياسين وعلماء دين وشيوخ عشائر دعمًا للقدس[١٣].

(١) مظاهرات عربية وإسلامية ضد اعتراف ترامب بالقدس عاصمة لإسرائيل، أكاديمية D.W، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/LTkqXb

(٢) حراك شعبي في مدن عربية ضد قرار ترامب، الجزيرة نت، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٥WHn٥N

(٣) تظاهرات حاشدة في دول عربية وإسلامية تنديدًا بقرار ترامب حول القدس، المنار،٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/WgQn٥m

(٤) بالصور العالم ينتفض في "جمعة الغضب"، الخليج أونلاين، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/Rpg٢UV

(٥) مظاهرات حاشدة في عواصم عربية وعالمية تنديدًا بإعلان ترامب، موقع عرب ٤٨، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/jbrNbg

(٦) مظاهرات حول العالم ضد قرار ترامب بشأن القدس، الجزيرة نت، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/TvnXfM

(٧) مظاهرات حاشدة في عواصم عربية وعالمية تنديدًا بإعلان ترامب ، مرجع سابق.

(٨) مظاهرات شعبية في دول الخليج تنديدًا بوعد ترامب المشؤوم، موقع العهد الاخباري، ١١ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/TDfkp٤

(٩) المرجع السابق.

(١٠) الغضب من قرار ترامب يكبر...والقدس غائبة في السعودية، المدن، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/ngtYLu

(١١) أسامة نبيل، فيديو وصور جمعة الغضب..العالم الإسلامي ينتفض تضامنا مع القدس، مصر العربية، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/KVhzS٩

(١٢) الغضب من فرار ترامب يكبر...، مرجع سابق.

(١٣) أسامة مهدي، تظاهرات غضب عراقية موحدة ضد ترامب، إيلاف، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/Fok٤d٦

وخرجت مظاهرات من مدينة مارع بريف حلب بسوريا ومدينة حمص وإدلب على الرغم من الأوضاع السياسية والأمنية التي تعيشها هذه المدن(١).

شهدت الجزائر عدة وقفات احتجاجية منها الوقفة التي نظمتها حركة مجمع السلم أمام مقرها بالعاصمة(٢).

ومن اللافت للنظر أنه لا تذكر أي تحركات في الشوارع لقطر أو السعودية.

وهتفت كل هذه التحركات بشعارات منددة ورافضة لقرار ترامب، مؤكدة على عروبة القدس، مساندة للشعب الفلسطيني مثل: "خيبر خيبر يا يهود ..جيش محمد سوف يعود، بالدم بالروح القدس مش هتروح، وعيش حرية القدس عربية، بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين، تسقط تسقط إسرائيل، يا للعار ياللعار باعو القدس بالدولار، ترامب عدو الشعوب العربية.. القدس العربية، أمريكا الشيطان الأكبر، عالمكشوف وعالمكشوف..أمريكي ما بدنا نشوف، ولا سفارة ولا سفير اطلعْ برة ياحقير، اهتف سمع كل الناس أحنا للأقصى حراس، يا قدس صبرك صبرك بجيل الله نحرر أسرك، القدس تبقى عربية رغمًا عن الصهيونية".

تحركات طلبة المدارس والجامعات:

نظم الآلاف من تلاميذ المدارس الإعدادية والثانوية في تونس مظاهرة تدعو الشعوب العربية إلى الانتفاض ضد الإعلان الأمريكي، ومواجهة أي محاولة للتطبيع مع إسرائيل(٣)، وشهدت الجامعة الأردنية وقفة احتجاجية طلابية مطالبة بإلغاء معاهدة السلام الموقعة مع إسرائيل عام١٩٩٤م ومقاطعة واشنطن، ووقفات مشابهة في الهاشمية وأربد وجامعة فيلادلفيا(٤)، ونظمت جامعة قطر بالدوحة مظاهرة ضمت الطلاب والأساتذة رافعة أعلام القدس(٥)، ونظم مئات الطلاب مظاهرات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة(٦)، والجامعات المصرية الآخرى: عين شمس، الأزهر، المنوفية، القاهرة، الوادي الجديد(٧).

وتوضح هذه التحركات أن هناك أملًا في الأجيال القادمة – حتى ولو كان عددهم قليلًا- لخروجها عن دائرة اليأس والقعود التي انتابت البعض وجعلته مهزومًا داخليًا؛ بسبب فشل الثورات وتحركات الشارع في تغيير الأنظمة الاستبدادية.

ب) **رد فعل بعض البرلمانات والنقابات:**

–البرلمانات: ارتدى نواب البرلمان المصري وشاح القدس عربية، تأكيدًا منهم على عروبة القدس، وعلى التمسك بها وعدم التنازل عنها –على حد تعبيرهم- وطالبوا بمقاطعة المنتجات الأمريكية، وردد الدكتور علي عبد العال رئيس البرلمان المصري: "البيت لنا والقدس لنا وبأيدينا ستعود لنا، تحية للفلسطينيين المرابطين، وستظل القدس عربية وعاصمة للدولة الفلسطينية٨". ونظم البرلمان التونسي وقفة احتجاجية أمام مقر البرلمان، وهتف النواب: "الشعب يريد تحرير فلسطين، وفلسطين عربية ...لا حلول استسلامية" رافعين العلمين التونسي والفلسطيني(٩)، وحمل البرلمان الكونجرس الأمريكي مسؤولية القرار، وصوت البرلمان بأغلبية على لائحة ترفض القرار(١٠). ودعى البرلمان المغربي إلى إصدار قانون يحرم التطبيع مع الكيان الصهيوني، ورفض

(١) الغضب من قرار ترامب يكبر...، مرجع سابق.

(٢) أسامة نبيل، مرجع سابق.

(٣) مظاهرات حول العالم ضد قرار ترامب بشأن القدس، مرجع سابق.

(٤) تظاهرات حاشدة في دول عربية وإسلامية تنديدًا بقرار ترامب حول القدس، مرجع سابق.

(٥) مظاهرات شعبية في دول الخليج تنديدًا بوعد ترامب المشؤوم، مرجع سابق.

(٦) حراك شعبي في مدن عربية ضد قرار ترامب، الجزيرة نت، مرجع سابق.

(٧) بين التعتيم الإعلامي وتقييد حرية الصحافة...مرجع سابق، ص٧.

(٨) البرلمان ينتفض ضد قرار ترامب بشأن القدس...، اليوم السابع، ١٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٣PW٣SU

(٩) كل ما تريد معرفته ميدانيًا وسياسيًا منذ إعلات ترامب...، مرجع سابق.

(١٠) برلمان تونس يرفض قرار ترامب... والآلاف يتظاهرون، الخليج أونلاين، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/LAq٣gP

القرار؛ لأنه لا يستند إلى أي سند قانوني، وردد النواب: "يكفينا يكفينا من الحروب، أمريكا أمريكا عدوة الشعوب، لا لا ثم لا للتطبيع[١]".

–النقابات: أصدرت النقابات المصرية بيانات إدانة لقرار ترامب: نقابة أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية[٢]، نقابة الصحفيين[٣]، نقابة الموسيقيين[٤]، نقابة السينمائيين[٥]، أما نقابتي الصيادلة والمهندسين؛ اتخذوا قرار مقاطعة المنتجات الأمريكية، فتواصلت الصيادلة مع عدد من الأطباء من أجل عدم كتابة الأدوية الأمريكية في "روشتات" المرضى، وسعت نقابة المهندسين إلى استبدال السلع الهندسية الأمريكية ببدائل أوربية أو آسيوية أو محلية[٦]، وقدمت نقابة المحامين اقتراحات للرد على قرار ترامب[٧]، ويعتبر قرار كل من نقابتي الصيادلة والمهندسين من أكثر الأساليب فاعلية؛ لأنها تؤثر على رؤوس الأموال والاستثمارات (الاقتصاد).

ج) تحرك إلكتروني وإعلامي وفني دعمًا للقدس:

–مواقع التواصل الاجتماعي:

لمواقع التواصل الاجتماعي دور كبير في التأثير والانتشار عبر الحدود، بلا قيود ولا تأشيرة ولا طلب إذن من الحكومات للتجمع –يمكن أن تُمارس رقابة، ولكنها تكون بشكل نسبي– وهذا ما حدث بعد قرار ترامب، حيث انتفض رواد التواصل الاجتماعي وظلوا يدوّنون على تويتر كلمات تضامن مع الفلسطينيين مثل: "القدس شرف إن ضاعت..ضاع الشرف، لأجلك يا مدينة الصلاة نصلي، ستظل القدس حية في قلوب المسلمين حتى نحررها، اتحدوا من أجل القدس، القدس زهرة مدائنا لا عاصمتهم والأقصى أقصانا لا هيكلهم، القدس والأقصى وكل المقدسات ملك المسلمين والعرب حتى قيام الساعة[٨]"، واحتل هاشتاج #القدس_عاصمه_فلسطين_الأبدية[٩]، وغيره مراتب متقدمة.

وقام كثير من مستخدمي الفيسبوك بتغيير صورهم الشخصية بأخرى للقدس، ووضعوا شعار القدس عاصمة فلسطين على صفحاتهم، ونشر بعض المغردين صورا ورسومات للقدس وخرائط لفلسطين وبوستات ومقاطع فيديو وكاريكاتيرات ووسوم تعبر عن إدانتهم للقرار.

واستطاع هذا الحراك أن يكون إعلامًا بديلًا، وأداة فعالة لنقل الحدث وفعالياته، ومحافظًا إلى الآن على استمراريته–بشكل نسبيي– في التنديد بالقرار، والتعبئة الجماهيرية وتنويرها بالأشكال السابق ذكرها

–مظاهرة إعلامية...من أجل عروبة القدس:

قام اتحاد الإذاعات العربية، واتحاد المنتجين العرب بالشراكة مع اتحاد الإذاعات والتلفزة المصرية ومؤسسة الإذاعة والتلفزيون الأردنية بمظاهرة إعلامية عربية تضم ثماني عشرة دولة عبر الإذاعات العربية لنصرة القدس بعنوان: يوم

---

(١) بشعارات أمريكا عدوة الشعوب..رفض البرلمانيون المغاربة قرار ترامب، القدس، ١٢ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/nvyeg٦

(٢) بين التعتيم الإعلامي وتقييد حرية الصحافة...، مرجع سابق، ص٧.

(٣) نقابة الصحفيين ترفض قرار ترامب، وتعلن مساندتها الكاملة للشعب الفلسطيني، اليوم السابع، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٥RriQx

(٤) نقابة الموسيقيين تصدر بيانا رافضًا لقرار ترامب بنقل سفارة بلاده للقدس، اليوم السابع، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/VGURCW

(٥) نقابة السينمائيين: نرفض قرار ترامب ونعلن مقاطعتنا للأفلام الأمريكية، اليوم السابع، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/iyuswm

(٦) الإدانة لا تكفي ..نقابات ترفض وقرار ترامب بالمقاطعة: خسائر بالمليارات، الوطن، ٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/hL٤٢iJ

(٧) المحامين تقدم اقتراحات للرد على قرار ترامب، الوطن، ٨ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:https://goo.gl/qNpUHq

(٨) ريم الزاهد، صورا ردا على ترامب..تويتر ينتفض ب(القدس عاصمة فلسطين)، أخبار اليوم، ٧ ديسمبر٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/٤w١٤rV

(٩) متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/٦iuhfr

الإعلام العربي، وتحت شعار "إعلام واحد..وطن واحد..من أجل عروبة القدس"، وبث الإذاعات لقاءات مع شخصيات فلسطينية، وبرامج تتناول تاريخ القدس[1].

وأنشأت قناة الجزيرة صفحة جديدة "عن القدس" على موقعها الإلكتروني[2]، وعلى مواقع التواصل الاجتماعي الخاصة بها (فيسبوك[3]– تويتر[4])؛ تعرض من خلالهم أفلام وثائقية قصيرة، وتقارير عن آخر التطورات الحاصلة بشأن القدس.

ركز الإعلام العربي على القضية الفلسطينية — تركيز على القضايا الموسمية– ولكنه اهملها في الفترة الأخيرة بشكل ملحوظ للغاية، وصل لعدم التركيز عليها بعد إعلان ترامب القدس عاصمة لإسرائيل بشكل يليق بمكانتها للأمة العربية والإسلامية، وركز على قضايا أخرى ذات شأن داخلي كالانتخابات الرئاسية ومقاومة الإرهاب وإقامة الحفلات الترفيهية —في السعودية– وغيرها من القضايا.

–الفن..والقدس من جديد:

سارع بعض المطربين بإطلاق أغان لمناصرة القدس ومنهم –على سبيل المثال– المطربين: هاني شاكر "القسم"[5]، علي بن عربية ومحمد علي بن عربية "قدسنا يستغيث"[6]، فريق الأطفال طيور الجنة "هنا قدسنا"[7]، إسماعيل تمر وعمران نواهضة "يا أقصانا"[8]، عبد النور حسن "القدس عربية"[9]، فريق الوعد للفن الإسلامي "القدس توحدنا"[10]، فريق تشنقلة "انتفاضة القدس"[11].

لا يقل هذا الحراك أهمية عن تحركات الشارع؛ لأنه يلعب دورا كبيرا في تحريك الجماهير وحثها على التغيير، ويسهم في رفع المعنويات، واستنهاض روح المقاومة عندما تتصاعد وتيرة الصراعات بين الشعوب وأعدائها، وله أثر كبير إيجابي على الثوار، وسلبي على العدو، وهناك شواهد كثيرة على ذلك منها طلب رئيس الوزراء نيتنياهو من الرئيس الفلسطيني محمود عباس عدم السماح ببث أغانٍ وطنية حماسية في وسائل الإعلام الفلسطيني؛ لأنها تحرض الشباب الفلسطيني على الانخراط في العمليات الفدائية[12].

وهناك الكثير من الأغاني الوطنية الخاصة بالقضية الفلسطينية رسخت في وجداننا، وحفرت في ذاكرتنا، فعند سماعها عبر الإذاعات أو مشاهدتها على التلفاز يتولد وعي وإدراك أن هناك جزءًا محتلًا من الأرض العربية علينا تحريره فورًا مثل: زهرة المدائن لفيروز، في القدس في طريق الآلام لعبد الحليم حافظ، على باب القدس لهاني شاكر، القدس أرضنا لعمرو دياب، القدس هترجع لنا لعدد كبير من الفنانين، ومثله أوبريت الحلم العربي، وين الملايين ..الشعب العربي وين لجوليا بطرس، جايين فلسطين لعاصي الحلاني.

خاتمة:

أثبتت ردود أفعال الشعوب السابق ذكرها على أن قضية القدس ما تزال قضية الشعوب، وإن كانت مكتوفة الأيدي، ولم تعد قضية الأنظمة التي فرطت وفشلت في استعدادها، كما أثبتت أيضًا أن ثقافة الخوف لم تنتشر في وجدان كل أبناء الأمة؛ بدليل تحديهم للمناخ غير المؤاتِ

---

[1] بث تلفزيوني وإذاعي عربي دعمًا للقدس، رأي اليوم، ١٧ ديسمبر ٢٠١٧، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/tBq٢uD

[2] للاطلاع اضغط على الرابط التالي: https://goo.gl/PjnUKU

[3] للاطلاع اضغط على الرابط التالي: https://goo.gl/QsjTnD

[4] للاطلاع اضغط على الرابط التالي: https://goo.gl/yNejnq

[5] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/mZjR٤٨

[6] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/BWbcXv

[7] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/QqQaCL

[8] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/TJCKp٩

[9] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/QwX٨TU

[10] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/L٣٤ADf

[11] متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/dqMB١x

[12] الأغاني الوطنية..وقود الانتفاضة الفلسطينية الثائرة، الخليج أون لاين نبض الخليج العربي، ١٢ أكتوبر ٢٠١٥، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/sbgA٦٥

للتحرك أو التعبير عن الرأي، وإن كانت المقومات ليست بالهينة، ولكنها لم تصل إلى المقاومة؛ فانتهت احتجاج كما بدأت –تسجيل اعتراض على القرار ليس أكثر من ذلك– فلم تستطع ردود الأفعال أن تكون مؤثرة، وتستمر، وتلغي القرار أو حتى تقوم بالضغط على الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ما دفع السفيرة الأمريكية في مجلس الأمن نيكي هيلي إلى أن تقول: "السماء لاتزال هناك، ولم تقع على الأرض"، وهذا يدل على أن الردود لم تكن كافية وأنها عفوية[1].

ولكن عدم تطورها إلى أخذ شكل المقاومة؛ يرجع إلى عدة عوامل منها:

- قمع الأنظمة الاستبدادية لشعوبها وعناصرها الفاعلة كالنقابات والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني والتكتلات الشبابية، وتحويلها إلى قوى هشة ضعيفة مستسلمة، لسيطرة الدولة، ومن أشكال قمعها: حلها أو القبض على مؤسسيها ومصادرة أموالها.
- الانقسامات الثقافية والسياسية التي عمت الأمة العربية، بالإضافة إلى المعارك الدينية والطائفية والأهلية؛ مما أدى إلى ضعف النسيج الداخلي للمجتمعات.
- تحريم التظاهرات والتجمعات؛ بقوانين وتهم تلفق للمتظاهرين، تمكن الشرطة من فرض قبضتها عليهم ويساعد في ذلك التضليل الإعلامي.
- منع التعددية، وإعلاء نظام الصوت الواحد المؤيد للأنظمة.
- إنخفاض مستوى التعليم، وتزييف الحقائق حول "من العدو"؛ فالعدو الإسرائيلي أصبح صديقًا من حقه أن يعيش في سلام على أرضه–كما يقول بعض حكام الدول العربية وسياسيوها والصديق أصبح عدوًا يُمارس حصاره ومقاطعته– وتشويش الوعي، وتعاون الأنظمة مع العدو (صفقة القرن)؛ مما ساهم في جهل الشعوب بما يحدث حولها.
- التدخلات الأجنبية في شئون الشعوب الداخلية، وعدم تصدي الأنظمة لها؛ لوجود مصالح وعلاقات بينهم.
- معاناة معظم الشعوب العربية من الانهيار الاقتصادي، وارتفاع تكاليف المعيشة، وارتفاع نسب البطالة، وانخفاض قيمة العملة.

كل هذه العوامل من شأنها أن تؤثر في تحويل الاحتجاج لمقاومة تتخلى عن الإذعان والاستنكار والتنديد، وتستمر في تحركاتها المختلفة سواء كانت شوارع أو إلكترونية وإعلامية وفنية.

وأخيرًا. على الشعوب أن لا تيأس من الوضع الراهن أو تستسلم لحالة القعود واليأس التي سيطرت على معظم أبناءها خلال الفترة السابقة، فما قامت به هو احتجاج مدني شعبي، للأسف الشديد لم يستمر ليرقى إلى المقاومة؛ ولكن هذا ليس شأنها هي فقط، وإنما أيضًا شأن العوامل السابق توضيحها، ولا يقلل هذا من قيمة ما فعلته تجاه قضية القدس.

ولكن هذا لا يعفيها من دورها في إعادة إحياء القيم، والهوية العربية والإسلامية، والتراث، ومفهوم الأمة وما يتضمنه من تجاوز للثنائيات، وإدراك جماعي "لما يجمع بيننا نحن الشعوب الإسلامية ذات العقيدة الواحدة والحضارة الشاملة والتاريخ الواحد أو المتماثل والتشكيل النفسي المتشابه، إدراكنا أن ثمة مشتركًا عامًا يجمع بيننا، ومع ما يؤكد هذا المشترك العام من وحدة ما نعانيه من قمع عالمي واستبداد بنا من الدول الكبرى، ومن كراهية تجمعنا ضد

---

[1] الحراك الشعبي المنظم لإسقاط قرار ترمب، الجزيرة نت، ٢٧ ديسمبر٢٠١٧، متاح على الرابط التالي:
https://goo.gl/ouXckv

الاستعمار الغربي وسياساته، وما نشعر به من وحدة المصير"[1].

وعلى مؤسسات التنشئة الاجتماعية داخل المجتمعات -الأسرة، والمدارس المستقلة عن الأنظمة، ووسائل الإعلام البديل- أن تكون فاعلة في إبراز الحقائق ونشرها، وفي تكوين وعي الأجيال القادمة على التاريخ المشترك بين الشعوب، وعلى أن القدس حق العرب والمسلمين المغتصب من قبل إسرائيل، وأن إسرائيل ليست دولة وإنما هي العدو الذي لابد أن نتصارع معه جيلًا بعد جيل حتى يزول؛ حتى يتولد لديهم الإدارك العقلي والحسي، الذي يساعدهم على الفعل والممارسة والاستمرار، ومن هنا تبدأ شرارة المقاومة.

*****

(١) المستشار طارق البشري، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤١-٤٢.

المستوى الثالث– آفاق

مقاومة متنوعة ضد إسرائيل :



المقاومة القانونية.. قرار لجنة "الإسكوا" باعتبار إسرائيل دولة فصل عنصري نموذجًا

د.محمد وفيق(*)

مقدمة:

لا ريب أن فكرة "الكفاح" أو "المقاومة" هي إحدى أهم السمات المميزة لحالة الصراع عن حالة الاستقرار في الإطار السياسي، إذ الصراع علاقة تصادمية بين طرفين يستحيل الوِئام أو الائْتلاف بينهما، لا ينتهي إلا بتسليم أحدهما أو هلاكه.

والحقيقة أن مفهوم المقاومة ونظرياتها لا تحظى باهتمام بحثي كبير في الأدبيات العربية، أو على الأقل لا تحظى بذات الاهتمام الذي يحظى به مفهوم الصراع ونظرياته، سواء من جهة تحليل الظاهرة أو دراسة أبعادها وأدواتها، بعكس ما يُمكن أن نلمسه في الأدبيات غير العربية، كاهتمام الأدبيات الإيرانية مثلًا بقضية اقتصاد المقاومة، أو أدبيات أمريكا اللاتينية بقضية التحرُّر المعرفي، أو الأدبيات الفرنسية بتجارب المهمشين من أجل فهم أشكال المقاومة.

إن النظرة الأولى لفكرة المقاومة تفرض وجود طرفين أحدهما يُهيمن والآخر يقاوم، حيث علاقة القوة بينهما غير متكافئة، وهي وإن كانت عنصرًا مميزًا في أي صراع لا تتكافأ فيه القوى، فهي أيضًا عنصر مميز فيما هو أعم من ذلك وهو كل ممانعة لسُلطة، ولذلك فأشكالها تختلف باختلاف أسباب الممانعة والهامش الذي تتحرَّك فيه، وتقاس قوتها بحسب قدرتها على تحقيق أهدافها الجزئية وقُربها من تحقيق أهدافها الكلية.

وإذا كنا بصدد صراع طويل المدة شديد التعقيد مثل الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، فإننا حين نتكلم عن المقاومة، نتكلم بأسف عن أشكال محدودة منها تنوعًا وتأثيرًا، سواء العسكرية أو السياسية، وحين نقول العسكرية فإننا نعني صور استخدام القوة، في حين تعني السياسية جميع الأشكال الأخرى، والتي تندرج تحتها القانونية والاقتصادية والمعرفية والثقافية إضافةً إلى السياسية بالمفهوم التقليدي.

ولسنا بصدد دراسة أشكال المقاومة وقوة كل منها في التأثير، أو تأثير إحداها على الأخرى سلبًا وإيجابًا، ولكن نركز في هذه الورقة البحثية على دراسة نموذج لشكل من أشكالها، وهو تقرير لجنة الأمم المتحدة الاجتماعية والاقتصادية لغرب آسيا (إسكوا) بشأن اتهام إسرائيل بارتكاب جريمة ضد الإنسانية تجاه الشعب الفلسطيني، إذ يُمثل نموذجًا فريدًا – بل يكاد يكون هو الأول من نوعه – لما يُمكن أن يُعرف بـ "المقاومة القانونية" في ملف الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي.

أولًا– اتهام إسرائيل بجريمة ضد الإنسانية للمرة الأولى:

في ما يزيد عن ستين صفحة صدر تقرير لجنة الأمم المتحدة الاجتماعية والاقتصادية لغرب آسيا (إسكوا) المعنون "الممارسات الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني ومسألة الفصل العنصري (الأبارتايد)"(١)، الذي اتهم إسرائيل بتأسيس نظام فصل عنصري يهدف إلى تسلُّط جماعة عرقية وتسيُّدها على أخرى، والمعروف في القانون الدولي بجريمة "أبارتايد"، لممارستها عددًا من السياسات ضد الفلسطينيين التي تهدف إلى فصلهم عنصريًّا عبر تقسيمهم إلى فئات متعددة وإخضاع كل فئة منها لترتيبات قانونية مختلفة.

(*) رئيس المحكمة الأسبق بجمهورية مصر العربية ومدير المعهد الدولي للإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالكويت.

(١) للاطلاع على التقرير كاملًا: https://goo.gl/C١Q٤t٩

ويعزى الفضل في إعداد التقرير إلى الأستاذين القانونيين "ريتشارد فولك"[(١)] و"فيرجينيا تيلي"[(٢)]، حيث وجهت لجنة "الإسكوا" إليهما طلبًا ببحث مدى ممارسة إسرائيل لنظام الفصل العنصري بحق الشعب الفلسطيني، وهو ما استغرق نحو عامين لإعداده، حيث خَلص – بناء على الاستقصاء العلمي الدقيق والأدلة القاطعة التي أوردها – إلى أن إسرائيل بسياساتها وممارساتها مذنبة بما لا يدع مجالًا للشك بارتكاب جريمة ضد الإنسانية هي الفصل العنصري (أبارتايد) كما تعرفها نصوص القانون الدولي.

صدر التقرير بتاريخ ١٥ مارس ٢٠١٧م، وأعقبه بيومين فقط طلب رسمي من الأمم المتحدة – بناء على طلب الولايات المتحدة – بسحبه، حيث صرح "ستيفان دوجاريك" – المتحدث باسم الأمم المتحدة – أن نشر التقرير تم دون أي تشاور مسبق مع الأمانة العامة للمنظمة وهو لا يعكس بحال وجهات نظرها أو نظر الأمين العام لها.

وعلى خلفية ذلك تمت أرشفة التقرير وموجزه التنفيذي من موقعها الإلكتروني، وقبول استقالة "ريما خلف" – وكيلة الأمين العام للأُمم المتحدة والأمينة التنفيذية للجنة "الإسكوا" – بعد أن تقدَّمت باستقالة مسبَّبة[(٣)] إلى الأمين العام للمنظمة الأممية "أنطونيو غوتيريش"، في أعقاب الضغوط التي مورست عليها من أجل سحب التقرير.

ثانيًا–كيف مارست إسرائيل الفصل العنصري ضد الشعب الفلسطيني؟

ارتبطت جريمة الفصل العنصري (الأبارتايد) في الأصل بحالة محددة هي حالة جنوب أفريقيا، لكنها أُطلقت بعد ذلك في القانون الدولي على كل حالة يُمارس فيها الاضطهاد المنهجي ضد جماعة عرقية معينة، وعُدَّت واحدة من أهم الجرائم ضد الإنسانية التي أقرَّتها المحكمة الجنائية الدولية عام ١٩٩٨م[(٤)]، حيث عَرَّفها نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، بأنها: "أية أفعال لا إنسانية ترتكب في سياق نظام مؤسسي قوامه الاضطهاد المنهجي والسيطرة المنهجية لجماعة عرقية واحدة إزاء أية جماعة أو جماعات عرقية أخرى، بنيَّة الإبقاء على ذلك النظام"[(٥)].

وتُعرِّف المادة الثانية من الاتفاقية الدولية لقمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها – والتي أقرَّتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٣م – جريمة "الفصل العنصري" بأنها: "الأفعال اللاإنسانية المرتكبة لغرض إقامة وإدامة هيمنة فئة عنصرية ما على أية فئة عنصرية أخرى واضطهادها بصورة منهجية"[(٦)]، وتُحدد هذه الأفعال حصرًا بأنها:

---

(١) بروفيسور القانون الدولي في "جامعة برنستون" الأمريكية، والمقرر الأسبق للأمم المتحدة الخاص بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧م، وهو أحد أهم الخبراء في القانون الدولي وحقوق الإنسان والقضية الفلسطينية، له نحو ستين كتابًا وبحثًا منشورًا، من أهمها كتاب "فلسطين.. شرعية الأمل"، وقد تعرض لهجمة شرسة من الردود المسيئة من قِبل بعض المسئولين والسياسيين في الولايات المتحدة وإسرائيل عقب صدور تقرير لجنة "الإسكوا".

(٢) بروفيسور العلوم السياسية في "جامعة جنوب إلينوي" الأمريكية، ورئيس قسم البحوث في مجلس أبحاث العلوم الإنسانية في جنوب أفريقيا حتى عام ٢٠١١م، والخبيرة في السياسات الإسرائيلية، ولها العديد من الكتب والدراسات في السياسة والأيديولوجيات.

(٣) وربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يتقدم فيها مسئول عربي في منصب دولي باستقالته بسبب موقف مناصر لقضية عربية، وهي اقتصادية أردنية معروفة حصلت على الدكتوراه في النظم السياسية من "جامعة بورتلاند" الأمريكية، وشغلت عدة مناصب وزارية في بلدها قبل أن تتولى عام ٢٠١٠م منصب الأمينة التنفيذية للجنة "الإسكوا" بمنظمة الأُمم المتحدة.

(٤) وكانت إسرائيل واحدة من سبع دول صوَّتت ضد إقرار القانون من أصل ١٤٨ دولة.

(٥) Rome Statute of the International Criminal Court, Rome, ١٧ July ١٩٩٨, United Nations, Treaty Series, vol. ٢١٨٧, p. ٣.

(٦) International Convention on the Suppression and Punishment of the Crime of Apartheid, ٣٠ November ١٩٧٣, United Nations, Treaty Series, vol. ١٠١٥, p. ٢٤٤.

١) حرمان عضو أو أعضاء في فئة أو فئات عنصريًّا من الحق في الحياة والحرية الشخصية بـ:

(أ) قتل أعضاء من فئة أو فئات عنصريًّا.

(ب) إلحاق أذى خطير - بدني أو عقلي - بأعضاء في فئة أو فئات عنصريًّا، أو بالتعدِّي على حريتهم أو كرامتهم، أو بإخضاعهم للتعذيب أو المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو التي تحط من الكرامة.

(ج) توقيف أعضاء فئة أو فئات عنصريًّا تعسُّفًا وسجنهم بصورة غير قانونية.

٢) إخضاع فئة أو فئات عنصريًّا عمدًا لظروف معيشية يقصد منها أن تُفضي بها إلى الهلاك الجسدي، كليًّا أو جزئيًّا.

٣) اتخاذ أية تدابير - قانونية أو غير قانونية - يقصد بها منع فئة أو فئات عنصريًّا من المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبلد، وتعمُّد خلق ظروف تَحُولُ دون النَّماء التام لهذه الفئة أو الفئات، وخاصة حرمان أعضاء فئة أو فئات عنصريًّا من حريات الإنسان وحقوقه الأساسية، بما في ذلك الحق في العمل، والحق في تشكيل نقابات معترف بها، والحق في التعليم، والحق في مغادرة الوطن والعودة إليه، والحق في حمل الجنسية، والحق في حرية التنقل والإقامة، والحق في حرية الرأي والتعبير، والحق في حرية الاجتماع وتشكيل الجمعيات سلميًّا.

٤) اتخاذ أية تدابير - بما فيها التدابير القانونية - تهدف إلى تقسيم السكان وفق معايير عنصرية بخلق محتجزات ومعازل مفصولة لأعضاء فئة أو فئات عنصريًّا، أو حظر التزاوج فيما بين الأشخاص المنتسبين إلى فئات مختلفة عنصريًّا، أو نزع ملكية العقارات المملوكة لأفراد منها.

٥) استغلال عمل أعضاء فئة أو فئات عنصريًّا، لاسيما بإخضاعهم للعمل القسري.

٦) اضطهاد المنظمات والأشخاص بحرمانهم من الحقوق والحريات الأساسية، لمعارضتهم للفصل العنصري.

وعلى الرغم من أن جنوب أفريقيا كانت هي الأكثر ارتباطًا بالفصل العنصري، وتُمثل السياق الذي نشأ فيه هذا المصطلح، بل لم يتكرر استخدامه في أي سياق آخر، إلا أن توظيفه في السياق الفلسطيني من قبل تقرير لجنة "الإسكوا" تم بجدارة قانونية[١]، وقد أكد التقرير على أن القصد الجنائي

---

(١) جدير بالذكر أن الزعيم الجنوب أفريقي "نيلسون منديلا" يعتبر من طليعة من وظَّفوا مصطلح "الفصل العنصري" لصالح القضية الفلسطينية، وجاء هذا في تصريحه في اليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني في الرابع من ديسمبر ١٩٩٧م.

وسبقه إلى ذلك "أوري ديفيز" الأستاذ بمعهد الدراسات الشرق أوسطية في "جامعة دورهام"، والذي أخرج عام ١٩٨٧م كتاب "إسرائيل دولة فصل عنصري" وأصدر عدَّة مقالات ودراسات تُصنف إسرائيل باعتبارها دولة فصل عنصري، ومن أهمها أيضًا كتاب "الفصل العنصري الإسرائيلي.. إمكانيات النضال" عام ٢٠٠٣م.

وفي عام ٢٠٠٩م نشر فريق دولي من الباحثين القانونيين في "مجلس أبحاث العلوم الإنسانية" في جنوب أفريقيا دراسة موسعة تحليلية للبنية القانونية لإسرائيل، بعنوان "الاحتلال والاستعمار والفصل العنصري" خلصوا فيها إلى أن إسرائيل مذنبة بارتكاب العديد من ممارسات وسياسات الفصل العنصري القمعي ضد الفلسطينيين.

وفي ذات العام صدرت الطبعة الأولى لكتاب مهم عن الفصل العنصري في فلسطين بعنوان "الفصل العنصري الإسرائيلي.. دليل المبتدئين" للصحفي البريطاني "بن وايت"، حيث فَصل في السياسات والقوانين الإسرائيلية حيال الأراضي والشعب الفلسطيني، وعلاقة الفصل العنصري الإسرائيلي بالفصل العنصري الجنوب أفريقي تاريخيًّا وموضوعيًّا، واعتبر أن الأول أكثر تعقيدًا وسوءًا من الثاني برغم ارتباط جذوره به.

وفي ذات العام أيضًا تم تسليط الضوء على القضية إعلاميًّا بشكل أكبر من خلال "**محكمة راسل حول فلسطين**" المعروفة اختصارًا بـ "RToP"، وهي محكمة افتراضية (شعبية) أسَّسَها "برتراند راسل" مستعينًا بعدد من رؤساء الدول السابقين والعلماء والقضاة والمحامين وأساتذة الجامعات والكُتاب والصحفيين والممثِّلين، واستمرَّت لنحو عامين، حيث أصدرت توصيتها عام ٢٠١٣م بمناشدة جميع الأطراف والمعنيين بمنع إسرائيل من ممارساتها وانتهاكها لحقوق الإنسان وتفكيك نظام الفصل

متوافر وثابت في حق النظام الإسرائيلي، وتَمثل في الهيمنة العرقية التي بدت من القرارات والممارسات والتدابير التي اتبعتها حكومته، بل بدا أن هذا غرضًا أساسيًّا قام عليه هذا النظام من واقع القوانين التي أصدرها برلمانه لخدمة مبدأ الدولة اليهودية.

فالقانون الأساسي (الدستور) الإسرائيلي ينص على أنه؛ "لا يجوز بأي شكل من الأشكال نقل الأراضي التي تحتفظ بها دولة إسرائيل أو هيئة التطوير الإسرائيلية أو الصندوق القومي اليهودي"، مما يضع إدارة هذه الأراضي تحت سلطة هذه المؤسسات بصورة دائمة، والتي تُعرف بـ "سُلطة أراضي إسرائيل"، والتي تُمثل ٩٣% من الأراضي ضمن حدود إسرائيل المعترف بها دوليا، وهي – قانونًا – مُحرَّم استغلالها أو امتلاكها على غير اليهود، وهو نوع من الهيمنة العرقية كما يعرفها القانون الدولي بلا أدنى شك.

وليس هذا فحسب، بل إن هذا الحظر الخاص بالأراضي يندرج ضمن "الأغراض العامة" كما يرد في القانون الأساسي الإسرائيلي، والذي أشبه ما يكون بـ "أعمال السيادة"، حيث يحظر القانون الأساسي (الدستور) على أي حزب سياسي الطعن في الأغراض العامة.

وتعتمد إسرائيل على عدَّة استراتيجيات جغرافية قانونية في الفصل العنصري (الأبارتايد)، مثل استراتيجية "الهندسة الديموغرافية" التي تستعين بها لتثبيت وتعميق الهوية اليهودية للدولة، حيث تستخدم في ذلك بعض الأدوات القانونية والاقتصادية، منها "قانون العودة" الذي يمنح اليهودي أيًّا كانت جنسيته حق دخول إسرائيل والحصول على جنسيتها، بما يعني أن جميع يهود العالم يُمكن النظر إليهم كمواطنين إسرائيليين محتملين بالحق القانوني.

إلا أن أهم استراتيجية أشار إليها تقرير "الإسكوا" هي استراتيجية "تفتيت الشعب الفلسطيني"، باستخدام تدابير عسكرية وسياسية، كالاحتلال والتقسيم ومصادرة الأراضي وهدم المنازل والتهجير القسري وبناء المستوطنات والسيطرة على موارد المياه والتعذيب والاعتقال التعسُّفي الممنهج، لتقسيم الفلسطينيين وتقطيع الأوصال الاجتماعية والثقافية بينهم، وإضعاف إرادتهم وقدرتهم على مقاومة موحدة فعَّالة من شأنها تغيير الواقع الاستعماري.

ويوضح التقرير أنه منذ عام ١٩٦٧م يعيش الشعب الفلسطيني في أربعة "فضاءات جغرافية"، تخضع لأنظمة قانونية مختلفة، ففي حين يُطبق القانون المدني – مقترنًا بقيود خاصة – على نحو مليون وسبعمائة ألف فلسطيني يعيشون في إسرائيل، يُطبق قانون الإقامة الدائمة على نحو ثلاثمائة ألف من نظرائهم الذين يعيشون في مدينة القدس، والقانون العسكري على أكثر من ستة ملايين وستمائة ألف فلسطيني يعيشون منذ عام ١٩٦٧م في الضفة الغربية وقطاع غزة ومخيمات اللجوء، وأخيرًا يُحرم غيرهم من الخضوع لأي نظام قانوني، حيث تمتنع تمامًا عودة أكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني من اللاجئين والمنفيين قسرًا الذين يعيشون خارج المناطق الواقعة تحت سيطرة إسرائيل.

وكل هذه الاختلافات في الترتيبات القانونية تشترك فيما بينها في القمع والاضطهاد والتمييز، حيث تهدف إلى فرض الهيمنة العرقية وإدامتها وزيادة معاناة الفلسطينيين في الحصول على التعليم والرعاية الصحية والعمل وفي حقوق الإقامة والتملُّك.

وبحسب التقرير، فلا يُمكن حلُّ المشكلة الفلسطينية بحلِّ الدولتين أو في أي مقاربة إقليمية أو دولية ما لم يتم تفكيك نظام الفصل العنصري (الأبارتايد) الذي فرضته إسرائيل على الفلسطينيين، بغية تحقيق العدالة باستعادة الشعب الفلسطيني لكامل حقوقه، بما في ذلك حق تقرير المصير، وحق اللاجئين والمنفيين في العودة، وإلا فإن استمرار إسرائيل في انتهاك القانون الدولي دون رادع يُعرض المنظومة الدولية كلها للانهيار.

وقد حَمَّلت "ريما خلف" – الأمينة التنفيذية للجنة "الإسكوا" – المجتمع الدولي مسئولية غير مباشرة عن الجرائم

العنصري الذي تمارسه. للمزيد حول المحاكمة ووقائعها ونتائجها، انظر الرابط التالي: https://goo.gl/٤htUUM

المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني، إذ صرَّحت أثناء الإعلان عن تقرير اللجنة في مقر الأُمم المتحدة بأن تجاهل المجتمع الدولي هو الذي يُشجع إسرائيل على انتهاكاتها المتواصلة والمتراكمة للقانون الدولي، ودعا "ريتشارد فولك" – أستاذ القانون الدولي المشارك في إعداد التقرير– مختلف هيئات الأمم المتحدة إلى أخذ تحليل التقرير وما توصَّل إليه بعين الاعتبار والتفكير أكثر بالإجراءات العملية التي يُمكن اتخاذها دعمًا لأهداف اتفاقية قمع جريمة الفصل العنصري والمعاقبة عليها(١).

ثالثًا– قيمة تقرير "الإسكوا" من الوجهتين القانونية والسياسية:

برغم أن تقرير لجنة "الإسكوا" تضمَّن بعض الإشكاليات التي لا ينبغي غض الطرف عنها، والتي من أهمها: اعترافه ضمنًا بدولة الكيان الصهيوني (إسرائيل)، واستخدامه تعبيرات تحد من نطاق دولة فلسطين، فيقصد مثلًا بتعبير "الأراضي المحتلة" مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، وبعيدًا عن مسألة الفصل العنصري (الأبارتايد) التي عني بها، فنجده أحيانًا يصوِّر القضية الفلسطينية على أنها نزاع بين دولتين يُمكن تسويته ببعض الإجراءات السياسية.

يُضاف إلى ذلك تجرُّده من القيمة الرسمية، فالحكم بكون إسرائيل "نظام فصل عنصري" ليس له أي قيمة قانونية رسمية إلا إذا صدر عن محكمة دولية، وهو ما لم يكن غائبًا عن واضعي التقرير، حيث انتهوا إلى التوصية بإحياء لجنة الأمم المتحدة لقمع الفصل العنصري، ومركز الأمم المتحدة لمناهضة الفصل العنصري – اللذين توقف عملهما عام ١٩٩٤م بعدما تم التخلص من الفصل العنصري في جنوب أفريقيا – ودعوة الدول والحكومات والمؤسسات إلى إطلاق ودعم مبادرات المقاطعة للنظام الإسرائيلي، وسحب الاستثمارات من الشركات والمؤسسات الداعمة له، وفرض العقوبات الاقتصادية والعسكرية عليه، إلى غير ذلك من مبادرات هادفة إلى التصدِّي لسياساته وممارساته.

فبرغم ما تقدم، إلا أنه يظل للتقرير المشار إليه قيمة كبيرة من أوجه عديدة، أهمها:

أولًا– قيمته السياسية على المستوى الدولي، من حيث صدوره عن واحدة من أهم مؤسسات منظمة الأمم المتحدة، وليس بالأمر الهين أن تستنتج هيئة من هيئات الأمم المتحدة أن نظامًا ما يمارس جريمة ضد الإنسانية، فضلًا عن أن يكون هذا النظام هو النظام الإسرائيلي، ومن هذه الزاوية يُعد هذا التقرير هو الأول من نوعه الذي يصدر عن منظمة دولية هي إحدى لجان الأمم المتحدة، ويخلص بوضوح وصراحة إلى أن إسرائيل دولة عنصرية مارست كل صور الفصل العنصري التي نَصَّتْ عليها اتفاقية حظره الدولية بصورة روتينية ومُمنهجة.

وفي ذات السياق لكن من جهة أخرى، فإن التَّبِعات السياسية للتقرير عقب صدوره تُظهر الصورة الحقيقية القائمة للنظام الدولي، وأقصد بذلك ما أضافته هذه التبعات في رصيد ممالأة النظام العالمي للكيان الصهيوني وتحصينه من العقاب، فبرغم قوة الأدلة التي يُقدمها التقرير ومنطقية حُججه القانونية وخبرة واضعيه الحقوقية، إلا أن لجنة "الإسكوا" التي أصدرته تعرَّضت لضغوط شديدة لسحبه فور صدوره، والتي على خلفيتها تم رفعه من موقع المنظمة الإلكتروني وتم دفع الأمينة التنفيذية للجنة لتقديم استقالتها.

ثانيًا– قيمته القانونية الإثباتية، حيث يمكن اعتباره أول تحقيق منهجي شامل للسياسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، فبرغم تجرُّده من القيمة القانونية الرسمية إلا أن له قوة إثباتية من جهة توثيق الأدلة على الممارسات

---

(١) للاطلاع على التصريح الصحفي الذي صاحب إعلان لجنة "الإسكوا" عن التقرير، انظر الرابط التالي: https://goo.gl/YtR٧Cc

– ولمزيد من تصريحات "ريتشارد فولك" حول التقرير وما أعقبه من ردود فعل أمريكية غاضبة، انظر الرابط التالي:
https://goo.gl/tsAzQ٧

– وأيضًا الرابط التالي: https://goo.gl/٨qxDfT

الاسرائيلية العرقية وانعكاساتها على الشعب الفلسطيني وعلى النظام الدولي.

ثالثًا– قيمته الأنثروبولوجية، إذ لفت الانتباه إلى أوجه مهمة في القضية الفلسطينية تعكس معاناة الشعب الفلسطيني وخطورة الممارسات والسياسات التي تقوم بها إسرائيل، وتُفسر قدرًا كبيرًا من سلوك وآثار المقاومة الفلسطينية في مراحلها المختلفة، وهو ما يستلزم ضرورة البحث عن وسائل وأدوات تحد من أضرار سياسات التفتيت التي تمارسها السلطة الإسرائيلية لحساب تقوية المجتمع الفلسطيني وتوحيد المقاومة.

فمدة الاحتلال وطبيعته طوال هذه المدة، تفرض مقاربة جديدة تربط بعمق بين ممارساته وآثارها الماضية والحاضرة والمستقبلية، وتقرير "الإسكوا" يُمثل تجربة مهمة في تحليل الاحتلال من هذه الوجهة، وهو ما يتطلَّب فهمًا أكثر عمقًا لتداعيات السياسات والاستراتيجيات الإسرائيلية على جميع المستويات، لاسيما الاجتماعية والثقافية، وتطوير سياسات واستراتيجيات المقاومة وأدواتها في المقابل.

خاتمة

إن الإشكالية التي تتعرَّض لها أغلب صور المقاومة السياسية تنطلق دومًا من البحث في مدى تأثيرها وجدواها في التغيير، والسؤال الذي يلزم أن نبدأ منه في بحث هذه الإشكالية هو: هل يجب أن يكون إحداث التغيير هو الهدف من المقاومة؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، يلزمنا ابتداءً أن نُفرق بين الهدف الكلي والأهداف الجزئية للمقاومة، فالهدف الكلي لكل مقاومة بالطبع هو تحقيق التغيير، لكنه قد لا يتحقَّق إلا بتضافر أهداف جزئية، وهنا تبرز جدوى تنوع أشكال المقاومة وصورها، فعلى سبيل المثال: المقاومة الثقافية التي تهدف إلى عدم التعاطي مع ثقافة المحتل أو التماهي مع أعرافه وتقاليده، من أهم أسباب الحفاظ على تماسك البنية الاجتماعية للمُقاوم، والمقاومة الاقتصادية التي تهدف إلى مقاطعة المستعمر وإرهاقه اقتصاديًّا، هي من أهم أسباب إضعاف بنيته الاجتماعية.

وفي إطار المقاومة القانونية في القضية الفلسطينية التي هي موضوع هذه الورقة البحثية، فعلى الرغم من صعوبة – وربما استحالة– ما يمُكن أن تحقِّقه على مستوى المحاسبة، في ظل نظام دولي مُمالِئ لإسرائيل كما تبيَّن، فإنه يمُكن تحقيق عدد من الأهداف الجزئية بالغة الأهمية، منها:

– توفير الغطاء القانوني للكفاح المسلح الفلسطيني، والتأكيد على فكرة أن القضية الفلسطينية قضية صراع تحرُّري لا نزاع سياسي.

– توفير الغطاء السياسي لاستنهاض مشروع سياسي فلسطيني قويم داعم لكفاح داخلي حقيقي لا يُمكن لأحد الهيمنة عليه.

– تنشيط التفاعل مع الحركات الشعبية والفاعلين السياسيين والحملات المدنية الداعمة للتحرُّر إقليميًّا ودوليًّا (جماعات الضغط) لاسيما على المستويين الاقتصادي والاجتماعي – وهما المستويان الأكثر أهمية في أي مشروع تحرُّري.

– فتح ملف اللاجئين ومعاناتهم – خصوصًا في دول الجوار – والتعاطي معه بصورة أكثر إيجابية.

وهذه الأهداف الجزئية وغيرها تَصُبُّ جميعًا في صالح تحقيق الهدف الكلي للمقاومة وهو إزاحة المحتل.

*****



قرارات اليونسكو بشأن القدس وكيفية تفعيلها

أحمد خلف(*)

مقدمة:

مثَّلت القدس ولا تزال رمزًا مهمًّا للإنسانية، حيث تعدُّ قضية القدس قضيةً ذات خصوصية لها أبعاد تتجاوز في كثير من الأحيان التحيزات السائدة في مجال العلاقات الدولية، وهو ما يتجلَّى بوضوح في القرارات الأممية المتعلقة بالقضية الفلسطينية عمومًا ووضع القدس بها على وجه الخصوص.

وإذا كانت الكثير من القرارات المتعلقة بالقدس والقضية الفلسطينية دائمًا ما يفشل إقرارها في أروقة مجلس الأمن بسبب حق النقض الذي تملكه الولايات المتحدة الأمريكية، فإن من الأهمية بمكان ملاحظة مدى القوة الأخلاقية للقضية الفلسطينية التي تتغلَّب على اعتبارات المصالح السياسية والاقتصادية للدول في الكثير من الأحيان، وتفصح عن نفسها بوضوح أشد في المحافل ذات القوة المحدودة ماديًّا وإن كانت ذات أثر معنوي أكبر(١)، مما يؤشِّر على إدراك المجتمع الدولي لحقيقة إسرائيل وكونها كيانًا استيطانيًّا لا يحظى بالتقدير والتأثير إلا بمقدار ما يمكنه من ممارسة ضغوط وتقديم حوافز سياسية واقتصادية من أجل تحقيق ما يريده، وهي عملية غير مضمونة وتفشل في مرَّات عدَّة.

وفي البداية، تستعرض هذه الورقة أهم القرارات الصادرة من اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة) بخصوص فلسطين عمومًا والقدس خصوصًا، ثم تتناول دلالات هذه القرارات وكيفية تفعيلها.

أولًا– أهم قرارات اليونسكو المتعلقة بالقدس الشريف(٢):

(*) باحث بمركز الحضارة للدراسات والبحوث

(١) ومن الأمثلة على ذلك قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢١ ديسمبر ٢٠١٧ برفض قرار الرئيس الأمريكي دونالد ترامب باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأمريكية بإسرائيل إليها، حيث أيَّد هذا القرار ١٢٨ دولة، واعترضت عليه الولايات المتحدة وإسرائيل وسبع دول صغيرة، وامتنعت ٣٥ دولة عن التصويت وغابت ٢١ دولة عن الاجتماع، وأكَّدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها أن أي قرارات وإجراءات تهدف إلى تغيير طابع مدينة القدس الشريف أو مركزها أو تركيبتها الديموغرافية ليس لها أي أثر قانوني، وأنها لاغية وباطلة، ويجب إلغاؤها امتثالا لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة، وتدعو في هذا الصدد جميع الدول إلى الامتناع عن إنشاء بعثات دبلوماسية في مدينة القدس الشريف، عملا بقرار مجلس الأمن ٤٧٨ (١٩٨٠)، وطالبت الجمعيةُ العامةُ جميعَ الدول بالامتثال لقرارات مجلس الأمن المتعلقة بمدينة القدس الشريف، وبعدم الاعتراف بأية إجراءات أو تدابير مخالفة لتلك القرارات.

انظر القرار A/ES – ١٠ L./٢٢ على موقع الجمعية العامة للأمم المتحدة:https://goo.gl/qvJRkR

(٢) لمزيد من الاطلاع حول قرارات اليونسكو المتعلقة بالقدس وفلسطين، انظر:

– ريتا عوض، القدس في لجنة اليونسكو للتراث العالمي، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٩٤، ربيع ٢٠١٣، ص ص ٣٢ – ٥١.

– قرارات اليونسكو التي أغضبت إسرائيل، ٢/٥/٢٠١٧، موقع الجزيرة.نت. الموسوعة، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/Ghge٨٢

– قرار اليونسكو: الأقصى تراث إسلامي خالص، ١٨/١٠/٢٠١٦، موقع الجزيرة نت . الموسوعة، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/oJxiWn

– قرارات "اليونسكو" الرئيسة المتعلقة بالفلسطينيين، ١٣/١٠/٢٠١٧، موقع القدس العربي، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/DvCjpQ

– "اليونسكو": الأقصى كل الحرم وكل ما نفذه الاحتلال باطل، ٥/٧/٢٠١٧، شبكة هنا القدس للإعلام المجتمعي، متاح على الرابط التالي: https://goo.gl/NPjji٧

– قرارات اليونسكو بشأن محاولات "إسرائيل" تهويد القدس، ٣٠/٧/٢٠١١، موقع نداء القدس، متاح على الرابط التالي:

https://goo.gl/yFY١Nq

• **في ١٩٥٦**: اتخذت اليونسكو أول قرار لها بخصوص القدس، وجاء بعد نحو ثماني سنوات من ضم إسرائيل الشطر الغربي منها، ونصَّ القرار على اتخاذ جميع التدابير من أجل حماية الممتلكات الثقافية في المدينة في حال النزاع المسلح.

• **وفي ١٩٦٨**: أي بعد سنة واحدة من احتلال إسرائيل القدس الشرقية، وذلك في الدورة الخامسة عشر لليونسكو (١٩٦٨م) اتَّخذت اليونسكو قرارًا يؤكد على القرار السابق، كما دعا القرار إسرائيل إلى الامتناع عن إجراء أي حفريات في المدينة أو نقل للممتلكات أو تغيير لمعالمها أو ميزاتها الثقافية.

ونصَّ القرار الذي حمل رقم ٣٤٣ على أن المؤتمر العام إذ يدرك الأهمية الاستثنائية التي تتَّسم بها الممتلكات الثقافية الواقعة في مدينة القدس القديمة ولا سيما الأماكن المقدسة، لا بالنسبة للبلاد المعنيَّة مباشرة فحسب، وإنما أيضا للإنسانية جمعاء، بسبب ما لهذه الآثار من قيمة فريدة في النواحي الفنية والتاريخية والدينية، ويأخذ في الاعتبار القرار ٢٢٥٣ الصادر عن الجمعية العامَّة للأمم المتحدة في ٤ يوليو ١٩٦٧ بشأن مدينة القدس، ويقضي هذا القرار باعتبار جميع الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في القدس غير مشروعة، ويدعوها إلى إلغائها والامتناع عن اتخاذ أي عمل من شأنه تغيير وضع المدينة.

• **وفي ١٩٧٤**: اتخذت اليونسكو قرارًا قضى بالامتناع عن تقديم أي عون ثقافي وعلمي للإسرائيليين بسبب ممارساتهم في القدس، وشجب استمرار "إسرائيل" في القيام بأعمال التنقيب عن الآثار في مدينة القدس، وقد وُوجِهَ هذا القرار باعتراض غربي عنيف، فجمَّدت الولايات المتحدة دفع مساهماتها في ميزانية اليونسكو لمدَّة عامين، وخفضت فرنسا وسويسرا من نسبة مساهماتهما المالية في الميزانية.

• **وفي ١٩٧٦**: أصدر المؤتمر العام لليونسكو القرار رقم ٤/١٢٩ في دورته التاسعة عشرة، أكَّدَ فيه على توجيهاته ونداءاته لإسرائيل في القرارات السابقة بوقف أي حفريات أو تغيير من جانبها لمعالم مدينة القدس.

• **وفي ١٩٧٨**: أصدر المؤتمر العام لليونسكو قرارين آخريْن بخصوص القدس، أولهما- توجيه نداء عاجل إلى إسرائيل لكي تمتنع عن كافة الإجراءات التي تحول دون تمتع السكان العرب الفلسطينيين بحقوقهم في التعليم والحياة الثقافية والوطنية، وثانيهما- يدين إسرائيل لتغييرها معالم القدس التاريخية والثقافية وتهويدها.

• **وفي ١٩٨٠**: بدأ حضور القدس في "لجنة التراث العالمي" حين قدَّم الأردن ترشيح "مدينة القدس القديمة وأسوارها" للتسجيل في قائمة التراث العالمي، وقررت اللجنة اتخاذ الإجراءات اللازمة لدراسة هذا المقترح لما يمثِّله الموقع من قيم عالمية ذات أهمية فريدة من النواحي الدينية والتاريخية والمعمارية والفنية، وقرر المؤتمر العام لليونسكو في دورة اجتماعاته الحادية والعشرين لسنة ١٩٨٠ "التعجيل بإجراءات ضمِّ مدينة القدس إلى قائمة التراث العالمي، والنظر في تسجيلها في قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر".

• **وفي ١٩٨٢**: انعقدت الدورة السادسة للجنة التراث العالمي، وقرَّرَتْ بأغلبية الأصوات تسجيل موقع مدينة القدس القديمة وأسوارها في قائمة التراث العالمي المهدَّد بالخطر، وبالرغم من أن هذا القرار كان يقضي تحميل اليونسكو والمجتمع الدولي مسؤولية اتخاذ إجراءات حازمة وعاجلة في حماية الموقع والتدخل الفوري والفعلي لحفظه وصونه، إلا أنه لم يُفْضِ إلى هذه النتيجة، فلم تنَل القدس العناية الواجبة ولم تتم حماية تراثها، بل لم يكن للقدس حضور في اجتماعات لجنة التراث العالمي خلال ما تبقَّى من الثمانينيات وطوال التسعينيات، باستثناء ملاحظة قصيرة وردت في تقرير مقرِّر الدورة السابعة للجنة سنة ١٩٨٣.

• **وفي ٢٠٠٠**: عادت القدس مرة أخرى إلى لجنة التراث العالمي، بعد أن وقَّعت إسرائيل في ١٩٩٩/١٠/٦ على اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي،

وانضمَّت إلى اللجنة في ٢٠٠٠/١/٦، وقدَّمت في يوليو ٢٠٠٠ إلى مركز التراث العالمي "قائمة مؤقَّتة" تضم عشرين موقعًا ثقافيًّا وطبيعيًّا تنوي تسجيلها تباعًا في قائمة التراث العالمي، وكانت "القدس" من ضمن تلك المواقع، وفي دورة اللجنة الرابعة والعشرين التي عُقدت في مدينة "كرينز" بأستراليا سنة ٢٠٠٠، أدَّى البيان الذي وجَّهه مؤتمر الوزراء المختصين بالشؤون الثقافية العرب في نوفمبر ٢٠٠٠ إلى إثارة موضوع إدراج مدينة القدس على القائمة المؤقتة الإسرائيلية، بالرغم من عدم إدراجه على جدول أعمالها، وفي اجتماع اللجنة بكرينز أُعطيت الكلمة إلى رئيس بعثة فلسطين المراقِبة لدى اليونسكو؛ فخاطب اللجنة داعيًا أعضاءها إلى رفض النظر في الطلب الإسرائيلي لتسجيل موقع ثقافي في مدينة محتلة، وشكَّلت مداخلته أول مشاركة فلسطينية في تاريخ عمل اللجنة، وقد أدرك السفير الإسرائيلي لدى اليونسكو دلالة هذا الموقف، فاتَّهم اللجنة بالعمل وفق أهواء سياسية، واعترض على السماح لممثل فلسطين بمخاطبة اللجنة، واعترض على تسمية الوجود الإسرائيلي في القدس احتلالا.

• **وفي ٢٠٠١**: أوصى مكتب لجنة التراث العالمي تأجيل النظر في ترشيح القدس للتسجيل في قائمة التراث العالمي وفق الطلب الذي تقدَّمت به إسرائيل، وبالتالي لم يُعرض الطلب على الدورة الخامسة والعشرين للجنة التي عُقدت في هلسنكي بفنلندا في ديسمبر ٢٠٠١، وهو ما اعتبر انتصارًا للموقف العربي عامة والفلسطيني خاصَّة، وإن ظلَّت القدس للأسف على قائمة التراث الإسرائيلية المؤقتة، بالرغم من الضغوط التي مارستها المجموعة العربية ودعوة اليونسكو ومسؤوليها لدفع إسرائيل لإسقاط القدس من قائمتها التمهيدية التزامًا بالقرارات الدولية التي تنص على أن إسرائيل دولة محتلة لأراض فلسطينية وعربية بما فيها القدس.

• **وفي ٢٠٠٣**: اتخذت اليونسكو قرارًا بإرسال بعثة فنية إلى القدس لتقييم وضع البلدة القديمة على خلفية الإجراءات والحفريات الإسرائيلية فيها، بعد أن طلبت الدول العربية الأعضاء في لجنة التراث العالمي من اليونسكو تقديم تقارير عن أوضاع التراث فيها.

• **وبين عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦**: اتخذت اليونسكو قرارات نصت على القيمة الاستثنائية لمدينة القدس وأسوارها، ووضعتها على لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر، وأشارت إلى العقبات التي تضعها إسرائيل لتحول دون صون التراث الثقافي.

• **وفي ٢٠٠٧**: اتخذت اليونسكو قرارًا طالبت فيه إسرائيل بتقديم تقرير مفصَّل بشأن الحفريات التي تجريها في منحدر باب المغاربة المتاخم للمسجد الأقصى.

• **وفي ٣١ أكتوبر ٢٠١١**: تم قبول فلسطين عضوًا كامل العضوية في اليونسكو، بتأييد ١٠٧ أصوات وامتناع ٥٢ واعتراض ١٤ آخرين.

وأيَّدت غالبية الدول العربية والأفريقية ومن أمريكا اللاتينية تقريبًا انضمام فلسطين، وكذلك أيَّدته فرنسا، إلا أنها عبَّرت عن تحفُّظات حول شكليَّات تقديم طلب الانتساب.

• **وفي ٢٠١٤**: صادَقَت لجنة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو على قرار أردني فلسطيني طالَب إسرائيل بالوقف الفوري لكل حفرياتها غير القانونية، وانتهاكاتها ضد تراث البلدة القديمة بالقدس المحتلة، وجاءت تلك الموافقة على هذا القرار في دورة اللجنة ٣٨ التي انعقدت بالعاصمة القطرية الدوحة.

وندَّد القرار بما وصفه بالاقتحامات الاستفزازية التي يقوم بها يهود متطرفون بحق المسجد الأقصى، وطالبت اللجنة إسرائيل باحترام الوضع الراهن في المسجد الأقصى الذي طالما حافظ على المسجد كونه مكان عبادة إسلاميًّا على وجه الحصر، وموقع تراث ثقافي عالمي.

• **وفي ٢٠١٥**: أدان قرار تقدَّمت به المجموعة العربية القمع الذي قامت به قوات الاحتلال بالقدس، وإخفاق إسرائيل في حماية المواقع الأثرية وفي وقف الحفريات

المستمرة والأشغال شرقي المدينة خاصة في البلدة القديمة ومحيطها.

كما انتقد الممارسات الإسرائيلية في الحرم الشريف، ودعا إلى المسارعة في إعادة إعمار المدارس والجامعات والمواقع التراثية الثقافية والمؤسسات الثقافية والمراكز الإعلامية وأماكن العبادة التي دُمِّرَتْ أو تضرَّرت بسبب الحروب المتتالية في قطاع غزة[1].

• **وفي ٢٠١٦**: تم اتخاذ عدد من القرارات والمواقف بشأن القدس، فتمَّ إدراج ٥٥ موقعا تراثيا في العالم على قائمة المواقع المعرضة للخطر، ومنها البلدة القديمة في القدس المحتلة وأسوارها، مما خلَّف غضبًا واستنكارًا إسرائيليًّا.

وتبنَّى المجلس التنفيذي لليونسكو، بمبادرة من العديد من الدول العربية، وبتأييد من فرنسا، قرارًا حول "فلسطين المحتلة" يهدف إلى "حماية الإرث الثقافي الفلسطيني والطابع المتميز للقدس الشرقية".

كما تبنَّت اليونسكو قرارًا يدين "الاعتداءات والإجراءات الإسرائيلية غير القانونية" ضد حرية العبادة ودخول المسلمين إلى المسجد الأقصى.

وتبنَّت اليونسكو قرارًا[2] حول القدس الشرقية بمبادرة من دول عربية وبهدف حماية الإرث الثقافي الفلسطيني، وقد نفى هذا القرار وجود ارتباط ديني لليهود بالمسجد الأقصى وحائط البراق الذي يُسمِّيه اليهود "حائط المبكى"، واعتبرهما تراثًا إسلاميًّا خالصًا، وأظهر القرار الأسماء العربية الإسلامية للمسجد الأقصى والحرم الشريف وحائط البراق الذي سعت إسرائيل بشكل مستمر لتزوير هويته الإسلامية بإطلاق مسمى "حائط المبكى" عليه.

وتحدَّث القرار عن "الحرم القدسي"، بينما يطلق اليهود على المكان اسم "جبل الهيكل"[3].

• **وفي ٢٠١٧**: صوَّت المجلس التنفيذي لليونسكو على قرار يؤكد قرارات المنظمة السابقة باعتبار إسرائيل محتلَّة للقدس، ويرفض سيادة إسرائيل عليها.

---

(١) وحصل هذا القرار -الذي قدَّمته كل من الجزائر ومصر والإمارات والكويت والمغرب وتونس- على تأييد ٢٦ من الدول الأعضاء بالمجلس التنفيذي للمنظمة من جملة ٥٨ عضوًا، بينما امتنع ٢٥ عضوًا عن التصويت، وعارضَتْه ست دول، هي: الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا وهولندا وجمهورية التشيك وإستونيا.

(٢) اعتُمد القرار بعد أن تمَّت الموافقة عليه على مستوى اللجان يوم ١٣ أكتوبر ٢٠١٦ باجتماع في باريس، حيث صوتت ٢٤ دولة لصالح القرار وامتنعت ٢٦ عن التصويت منها فرنسا، بينما عارض القرار ست دول بينها الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا، وتغيبت دولتان، وتم تقديم القرار من قبل سبع دول عربية، هي الجزائر ومصر ولبنان والمغرب وسلطنة عمان وقطر والسودان.

(٣) جاء في نص قرار اليونسكو بشأن المسجد الأقصى الذي تضمن ١٦ بندا ما يلي:

– أكد أن المسجد الأقصى من "المقدسات الإسلامية الخالصة" وأنه لا علاقة لليهود به.

– يطالب إسرائيل بإتاحة العودة إلى الوضع التاريخي الذي كان قائمًا حتى سبتمبر ٢٠٠٠، إذ كانت دائرة الأوقاف الإسلامية الأردنية السلطة الوحيدة المشرفة على شؤون المسجد.

– يعتبر قرار اليونسكو أن تلة باب المغاربة هو جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، ويرفض الإجراءات الإسرائيلية الأحادية الجانب.

– يدين الاعتداءات الإسرائيلية المتزايدة والتدابير غير القانونية التي يتعرض لها العاملون في دائرة الأوقاف الإسلامية والتي تحد من تمتع المسلمين بحرية العبادة، ومن إمكانية وصولهم إلى المسجد الأقصى.

– يستنكر قرار اليونسكو بشدة الاقتحام المتواصل للمسجد الأقصى من قبل "متطرفي اليمين الإسرائيلي والقوات النظامية الإسرائيلية".

– ينتقد طريقة إدارة إسرائيل للأماكن الدينية في القدس، ويشير إلى أن القدس تعد مدينة مقدسة للمسلمين والمسيحيين واليهود.

– كما قررت اليونسكو إرسال لجنة تحقيق لتقصي الحقائق حول مساس إسرائيل بالأماكن المقدسة للمسلمين في مدينة القدس المحتلة.

عقب صدور قرار اليونسكو في أكتوبر ٢٠١٦، أدْلت المديرة العامة للمنظمة إيرينا بوكوفا بتصريحات اعتبرت فيها أن مدينة القدس القديمة مقدسة بالنسبة للديانات السماوية الثلاث (الإسلام واليهودية والمسيحية).

وقالت بوكوفا: إن التراث في مدينة القدس غير قابل للتجزئة، وإن الديانات الثلاث في القدس تتمتع بالحق في الاعتراف بتاريخها وعلاقتها مع المدينة.

كما حذرت المديرة العامة لليونسكو من أي محاولة لإنكار وطمس أي من التقاليد الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية بالقدس، لأن ذلك يعرِّض الموقع للخطر مما يتعارض مع الأسباب التي دفعت إلى إدراجه في قائمة التراث العالمي.

وتبنَّت لجنة التراث العالمي التابعة لليونسكو في دورتها الحادية والأربعين، المنعقدة بمدينة "كراكوف" في بولندا في شهر يوليو ٢٠١٧، قرار "بلدة القدس القديمة وأسوارها" المعد من قبل الأردن وفلسطين والمقدم من المجموعة العربية.

وجاء تبنِّي القرار رغم الضغوط الهائلة التي مارستها "إسرائيل" على الدول الأعضاء و"اليونسكو" لإفشال القرار، الذي أكد اعتماد (١٢) قرارًا سابقًا للمجلس التنفيذي لليونسكو و(٧) قرارات سابقة للجنة التراث العالمي، وجميعها تنص على أن تعريف الوضع التاريخي القائم في القدس هو ما كان عليه تراث المدينة المقدسة قبل احتلال القدس عام ١٩٦٧.

وتبنَّت اللجنة قرارًا يُؤكد عدم وجود سيادة "إسرائيلية" على القدس ويدين أعمال الحفر التي تقوم بها دائرة الآثار الصهيونية بمدينة القدس المحتلة.

وقدَّمت مجموعة الدول العربية صيغة القرار المذكور ووفقًا للادِّعاءات الصهيونية خففت الدول العربية والفلسطينيين من لهجة القرار بهدف تبنِّيه بالإجماع، لكن الضغوط الصهيونية أفشلت محاولة الإجماع(١).

وقرَّرت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل الانسحاب من اليونسكو بسبب ما اعتبرته كل منهما انحيازًا من اليونسكو ضد إسرائيل، وكان ذلك قبل انتهاء جولة انتخابات رئاسة اليونسكو في تشرين الأول أكتوبر ٢٠١٧.

ثانيًا- تفعيل قرارات اليونسكو:

يبدو مما سبق ذكره من مواقف وقرارات لليونسكو متعلقة بالقدس، أنها بطبيعة الحال تقتصر على الجوانب الثقافية والتراثية، وذلك وفق طبيعة عمل المنظمة نفسها كونها معنيةً بالعلوم والثقافة وأن ارتباطها وتعلُّقها بالجوانب

---

(١) وأيدت (١٠) دول القرار الفلسطيني هي: أذربيجان، اندونيسيا، لبنان، تونس، كازاخستان، الكويت، تركيا، فيتنام، زمبابوي، كوبا، وعارضت القرار ثلاث دول هي: الفلبين، جامايكا، بوركينا فاسو. وامتنعت (٨) دول عن التصويت هي: أنغولا، كرواتيا، فنلندا، بيرو، بولندا، البرتغال، كوريا، تنزانيا.

ومن أهم البنود التي أعاد القرار التأكيد عليها:

١- عدم شرعية أي تغيير أحدثه الاحتلال الإسرائيلي في بلدة القدس القديمة ومحيطها بعد احتلال القدس عام ١٩٦٧ خاصة بطلان الانتهاكات والنصوص القانونية التي بُنيت على ما يسمَّى "القانون الأساس" الذي أقرَّه الكنيست الإسرائيلي "لتوحيد القدس كعاصمة دولة إسرائيل" عام ١٩٨٠، باعتبار أن جميع هذه الإجراءات باطلة ولاغية وأن إسرائيل مطالبة بإلغائها وملزمة بالتراجع عنها حسب قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة وخصوصًا قرار مجلس الأمن الأخير ٢٣٣٤ (٢٠١٦).

٢- إدانة شديدة ومطالبة لسلطات الاحتلال بالوقف الفوري لجميع أعمال الحفريات غير القانونية، باعتبارها تدخُّلات صارخة ضد تراث القدس والأماكن المقدسة.

٣- إدانة شديدة لاقتحامات المتطرفين وقوات الاحتلال وتدنيس قداسة المسجد الأقصى/الحرم الشريف باعتباره مكان عبادة للمسلمين فقط، وأن إدارته من حق الأوقاف الإسلامية الأردنية حسب تعريف الوضع التاريخي القائم منذ قبل احتلال عام ١٩٦٧,

٤- مطالبة سلطات الاحتلال بتسهيل تنفيذ مشاريع الإعمار الهاشمي في المسجد الأقصى/الحرم الشريف مع التشديد على وقف التدخل في مبنى باب الرحمة، باعتباره جزءًا لا يتجزأ من المسجد الأقصى.

٥- مطالبة إسرائيل بالسماح غير المشروط لوصول السلطة المعنية والمتمثلة بخبراء الأوقاف الأردنية من أجل المحافظة على بلدة القدس القديمة وأسوارها من الداخل والخارج، بما في ذلك حق الوصول وترميم طريق باب المغاربة الذي يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المسجد الأقصى.

٦- إدانة شديدة ومطالبة سلطات الاحتلال بوقف جميع مشاريع التهويد مثل "بيت هليبا" و"بيت شتراوس" والمصاعد الكهربائية والتلفريك الهوائي والقطار الخفيف الذي يمر بمحاذاة سور القدس، وإزالة آثار الدمار الناجم عن هذه المشاريع.

٧- مطالبة سلطات الاحتلال بإعادة الآثار المسروقة، وتزويد مركز التراث العالمي في "اليونسكو" بتوثيق واضح لما تمَّت إزالته أو تزوير تاريخه من آثار في بلدة القدس القديمة ومحيطها.

٨- إدانة شديدة لاستمرار إسرائيل بمنع بعثة المراقبة وتعيين ممثل دائم لليونسكو في شرق القدس لكتابة تقارير دورية حول حالة الحفاظ على تراث مدينة القدس وأسوارها والمخالفات التي ترتكبها سلطات الاحتلال بهذا الخصوص.

٩- دعوة مدير عام "اليونسكو" ومركز التراث العالمي، لبذل كل الجهود والسبل ممكنة لتنفيذ قرارات وتوصيات "اليونسكو" المتعلقة بالقدس.

١٠- الإبقاء على "بلدة القدس القديمة وأسوارها" على قائمة التراث العالمي المهدد بالخطر كموقع مسجل من قبل الأردن عام ١٩٨١.

السياسية يأتي بصورة تبعية، فقرارات اليونسكو بالأساس تتعلق بالحفاظ على الطابع التاريخي والأثري للقدس، وتبدي قلقًا وانزعاجًا من الحفريات الإسرائيلة التي تؤثر سلبًا على طابع المدينة وآثارها العتيقة.

وتفعيل هذه القرارات يعتمد بشكل أساسي على اهتمام الأنظمة السياسية العربية بقضية فلسطين وفي القلب منها قضية القدس، واعتبار اليونسكو وغيرها من المؤسسات الأممية والدولية أدوات يمكن من خلالها تحسين الوضع القانوني الدولي لهذه القضية، مما يسهم مع جهود تُبذل في مساحات أخرى من تحسين لبقية الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية... إلخ، لكن المشكلة الكبرى تكمن في عدم إيلاء الأنظمة العربية الاهتمام الكافي والجهد اللازم لهذه القضية المحورية التي تتراجع أهميتها منذ عقود بشكل تدريجي، مما أثر بشكل سلبي على وضع هذه القضية بالنسبة للدول غير العربية والإسلامية كذلك، فقرَّرت دول غير عربية وغير إسلامية إقامة علاقات سياسية وتبادلت تمثيلا دبلوماسيًّا مع إسرائيل بالرغم من مقاطعتها إياها زمنًا طويلا، واتَّصلت بينها وبين إسرائيل علاقات اقتصادية ومشاريع استثمارية ضخمة، وهو الأمر الذي نلمس انعكاسًا له في تراجع قوة الصياغات المستخدمة في القرارات الخاصة بالقدس من جانب اليونسكو وإقرارها باحتلال القدس من جانب إسرائيل، بمرور الوقت، بل وتجاهلها لمدة طويلة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات، حتى عادت إلى أعمال اليونسكو بسبب القائمة المؤقتة المقدمة من جانب إسرائيل، استلزم مواجهة عربية عرقلت مخالفة اليونسكو لما استقر في قرارات مؤتمراتها العامة ودورات لجنة التراث العالمي بها بشكل صريح.

وبالتالي ستظل حركة المنظمات السياسية والثقافية غير الحكومية أو شبه الحكومية مكبَّلة بسبب تقاعس الأنظمة العربية عن الحركة الجدية والضغط بفاعلية من خلال استراتيجية واضحة المعالم ومتفق عليها بين هذه الأنظمة، وخاصة ممثلي العرب في المجلس التنفيذي لليونسكو ولجنة حماية التراث العالمي، وهو الأمر الذي تحيط به شكوك، يمكن تلمُّسها في الانقسام الأخير بشأن الترشح لرئاسة اليونسكو ٢٠١٧، والدفع بأربعة مرشحين عرب، واحتدام المنافسة بين مرشحي قطر ومصر.

ولكن ستظل هذه القضية مصدرًا دائمًا ومتجدِّدًا لإمكان تجاوز الخلافات العربية–العربية، بحيث يمكن أن يتجاوز العرب عن خلافاتهم والتوحُّد على هذه القضية، وإن استمرَّت خلافاتهم الأخرى قائمة، أو البدء بالتوحُّد عليها للتوافق حول قضايا أخرى.

وعلى مستوى الإجراءات داخل أروقة اليونسكو(١)، فإنه يتعيَّن أن تتصدَّر السلطة الفلسطينية –باعتبارها الطرف الأساسي المعني بالقدس– عبر بعثتها ومن خلال التنسيق مع الوفود العربية والإسلامية الأخرى في منظمة اليونسكو والاستعانة بخبراء متخصصين أكْفاء، لإثارة قضايا القدس وفلسطين وحماية التراث الديني والتاريخي والأثري بها، كأحد المداخل المهمة لتحسين وضع هذه القضية المركزية لدى العرب والمسلمين، وكذلك هي مهمة للكثير من الجماعات الثقافية والسياسية في العالم، والتأكيد على عروبة القدس وعدالة قضيتها وكونها أرض فلسطينية محتلة من جانب إسرائيل، وفضح الممارسات الصهيونية التي يتعرض لها أهل القدس خاصة وفلسطين عامة، وكذلك ما يملكونه من تراث ديني وإنساني فريد، ويتحقق ذلك بوضع خطة عمل دبلوماسي بالتشاور مع خبراء فلسطينيين وعرب في المجال، تنفَّذ مراحلها على مدى العام ولا تقتصر على مواسم الاجتماعات، بإشراف من وزارة الخارجية الفلسطينية خاصة.

ويقتضي ذلك فيما يقتضي: تعزيز البعثة الفلسطينية لدى اليونسكو ودعمها بالكفاءات المتخصصة، وإنشاء لجنة وطنية فلسطينية للتراث الثقافي والطبيعي العالمي.

---

(١) ريتا عوض، القدس في لجنة اليونسكو للتراث العالمي، مرجع سابق، بتصرف واختصار.

واستئناف السعي لإسقاط القدس من القائمة التمهيدية الإسرائيلية استنادًا إلى ما سبق بذله من جهد في الدورات السابقة للجنة وما أصدرته من قرارات في هذا الشأن.

والعمل على إعادة حضور "مدينة القدس القديمة وأسوارها" حضورا فعليًّا وكاملا في لجنة التراث العالمي؛ بما أنها موقع تراث ثقافي عالمي فريد في أرض محتلة ليس متنازعًا عليها.

وتحميل السلطة المحتلة التزاماتها استنادًا إلى المعاهدات الدولية الحامية للتراث الثقافي في زمن الاحتلال، وتحميل اليونسكو والمجتمع الدولي بأسره مسؤولية "الحماية الجماعية" لذلك التراث، والتي وضعت اتفاقية التراث العالمي لتحقيقها حفاظًا على تراث القدس بصفته تراثًا عالميًّا يجسِّد قيمًا إنسانية، تاريخية وفنية وروحية استثنائية.

*****